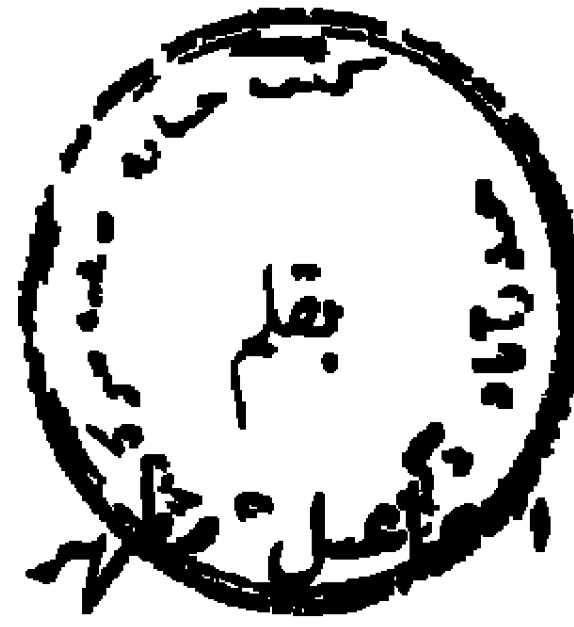
بين الدين والعلم

تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطى إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء

تأليف العلامة

اندرو ديكسون وايت

وترجمه الى العربية وعلق حواشيه



بقلم

اسماعيل مظهر

عضو المجمع المصرى للثقافة العلمية

وصاحب مجلتى العصور الشهرية والأسبوعية ومحررهما

١٩٢٩

دار العصور للطبع والنشر : شارع الخليج المصرى — بالظاهر بمصر

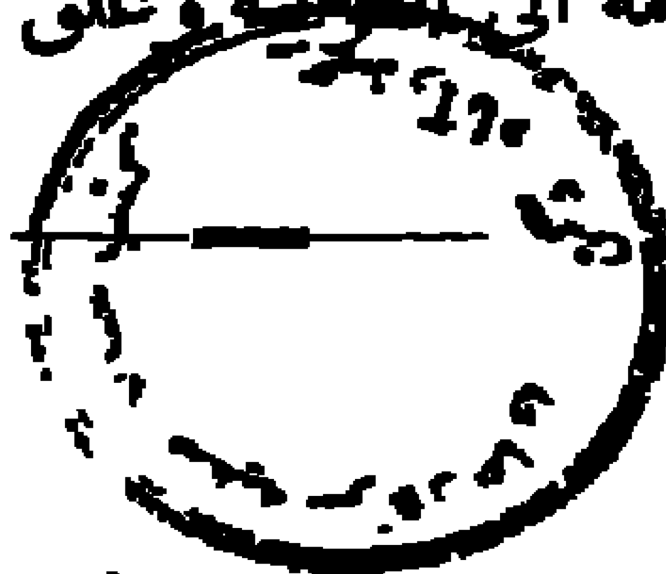
بين الدين والعلم

تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطى إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء

تأليف العلامة

اندرو ديكسون وايت

وترجمه الى العربية وعلق حواشيه



اسماعيل مظهر

عضو المجمع المصري للثقافة العلمية

وصاحب مجلتي العصور الشهرية والأسبوعية ومحررهما

١٩٣٠

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصري — بالظاهر بمصر

فهرست

الحديث والمدافعون عنها .

« ٩٧ — تنائج الانتصار على غاليليو

فرح رجال الكنيسة بانتصارهم ـ اسكات ديكارت ـ اضطهاد كامبانيلا وكلر ـ المقاومة وانتصار العلم ـ حيرة اللاهوتيين ـ المحاولات التى اتبعت لتأجيل تراجع الكنيسة .

« ١٠٦ — تراجع الكنيسة بعد انتصارها على غاليليو

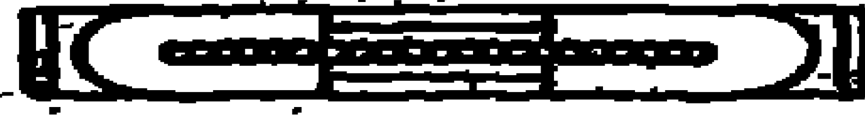
سهولة تراجع اللاهوتيين من البرتستانت ـ الصعوبات التى اعترضت الكنيسة القديمة ـ اتخاذ عصمة الباب سلاحا ضد نظرية كو برنيكوس ـ محاولات يراد بها اخفاء الحقيقة ـ المحاولة الأولى : فى أن غاليليو لم يتهم لاثباته دوران الأرض ، بل لأنه حاول اثبات النظرية بنصوص التوراة ـ سهولة القضاء على هده المحاولة ـ المحاولة الثانية : فى أن غاليليو لم يتهم من أجل الهرطقة ، بل لعدم احترامه البابا ـ فساد هدا الزعم ـ المحاولة الثالثة : فى أن الأمر كله لم يخرج عن كونه جلادا وقع بين الاساتذة الارسطوطاليسيين والاساتذة الذين اتبعوا الأسلوب التجريبى الحديث ـ المحاولة الرابعة : فى أن اتهام غاليليو كان موقوتاً ـ المحاولة الخامسة : فى أن غاليليو كان فريسة للبروتستانت والكاثوليك على السواء ـ الجهود التي بذلت لتسويد سمعة غاليليو من الوجهة الأخلاقية . الجهود التى بذلت لاخفاء مستندات محاكمة غاليليو ـ اخفاق هذه الجهود ـ المحاولة السادسة : فى أن البابوات بصفتهم هده لم يحرموا هذه النظرية مطلقاً ولم يلعنوها ـ نقض هذا الدليل بنفس كلام المدافعين عن الكنيسة ـ نقض أمناء الكاثوليك لهذه المزاعم ـ مجهودان فى سبيل التوفيق ـ نيومان ـ ده بونالد ـ تأثير كل هذا على المفكرين من العلماء ـ ليس هذا الخطأ براجع الى الكاثوليك أكثر من رجوعه الى البروتستانت ـ ليس فى الدين بل فى اللاهوت .

***

القرن التاسع عشر . أعمال وولاس وداروين . معارضة اغاسيز .

جهد اللاهوت الاخير

مهاجمة داروين ونظريته فى انجلترا . فى أمريكا . تكوين جامعة علمية كنسية لمحاربة نظرية النشوء . الهجوم فى فرنسا . فى المانيا . اعتناق « ليل » لمذهب النشوء . مهاجمة كتاب داروين « نشوء الانسان » . الفرق بين هذا الهجوم والهجوم الاول . معاداة المذهب الداروينى فى أمريكا . تغير فى لهجة العداء . محاولات فى سبيل التوفيق . تضاؤل العداء لفكرة النشوء . آخر الانفجارات اللاهوتية . انتصار فكرة النشوء الاخير .



« انما نستنشق من الهواء بلا كد ، تلك الافكار التى تحطمت في سبيلها القلوب الكبيرة » لوويل

* * *

« الحقيقة بنت الزمان » باكون

* * *

« وتعرفون الحق والحق يحرركم »

القديس يوحنا : اصحاح ٨ : ٣٢

بين الدين والعلم

العداء بين اللاهوت والعلم لا بين الدين والعلم — العلم موضوعي والدين ذاتي (١)

مقدمة بقلم المترجم

١ — تمهيد

كثر ماعلت الصيحة فى هذه الايام أن بين الدين والعلم عداء وأن فى طبيعة الدين شيئاً يعاند طبيعة العلم أو بالعكس. والحقيقة أن هذا القول له مبرراته القديمة والحديثة. وله فوق ذلك وقائع يذكرها التاريخ ووقائع تقع تحت أعيننا. غير أن مجرد القول بان بين الدين والعلم عداء وصراعاً، ومجرد رواية الوقائع التاريخية أو حدوث وقائع فى زماننا هذا تؤيد ما يرويه التاريخ، ليست بدليل قاطع على أن فى طبيعة الدين شيئاً يعاند طبيعة العلم أو أن فى طبيعة العلم شيئاً يعاند طبيعة الدين. ولو أنك نظرت نظرة أولية فى حالات الحضارة الحديثة لوقعت لاول وهلة على أشياء تدلك على صحة ما نذهب اليه. فان العلم يجرى تياره باقصى ماجرى تيار من التقدم فى كل العصور، وتجد بجانبه روح الدين قائمة راسخة القواعد، وانها لم تكن فى عصر من العصور الماضية بأكثر ثباتاً فى النفوس منها فى عصرنا هذا. نعم أننا لا تنكر أنه مرت على المدنية

---

(١) أردنا بهذه المقدمة أن نمهد للكلام فى هذا الموضوع وان نجعلها كمدخل لمادة لم يألفها بعد قراء العربية. وقد نشرت هذه المقالة فى جريدة السياسة الاسبوعية الا جزء صغيرا منها «المترجم»

عصور خفت فيها صوت الدين ليعلو صوت المادية حيناً ، ولكنا نجد مع هذا أنه مهما خفت صوته فى الخارج ، فان ثباته فى النفوس لم يضعف، وركيزته فى اليقين لم تهن .

ولو صح أن بين الدين والعلم عداء وصراعاً ، فكيف أن هذا الصراع الذى ظل قائما بينهما خمسة وعشرين قرناً من الزمان لم ينته بأن يصرع أحدهما الآخر ؟ وهل خمسة وعشرون قرناً غير كافية لان تنتهى المعركة وتنصر فريقاً ؟

الحقيقة أن الصراع ليس قائما بين العلم والدين . والحقيقة أن الدين والعلم كل منهما يستمد من ناحية من نواحى التكوين الفكرى فى الانسان . لهذا ظل الدين باقياً وظل العلم ثابتاً . لان كلا منهما مظهر من مظاهر الفكر الانسانى . ولكن اذا اعتقدنا هذا ، فبأى شىء نعلل ذلك التاريخ الطويل الذى حاول فيه رؤساء الدين أن يخفتوا صوت العلم وبأى شىء سوف نعلل ذلك الصراع الذى سيحاول فيه رجال العلم أن يخفتوا صوت الدين فى المستقبل ؟

اذا اعتقدنا ان الصراع لم يقم بين الدين على اعتبار انه شىء مستمد من طبيعة الانسان وبين العلم على اعتبار أنه شىء مستمد من القوة العاقلة التى خص بها الحيوان الناطق ، واعتقدنا أن الصراع قام فى الواقع بين اللاهوت المذهبى وبين العلم ، استطعنا أن نعالل حوادث التاريخ بل استطعنا ان نظهر على شىء مما سوف يقع فى المستقبل .

* * *

٢ — الجمود ضرورى للاجتماع مفيد للحضارة

الجماعات تشعر ولا تفكر . بل قيل بان رقى الجماعات من حيث الشعور والتفكير يقاس فى الحقيقة بنسبة أضعف فرد من أفرادها تفكيراً وأهوجها شعوراً مضروباً فى عدد الجماعة . ولكن الناظرين فى حالات الاجتماع نسوا أن يذكروا بجانب هذا أن الجماعات جامدة صرفة كما هى شاعرة صرفة ، وأن جمودها هذا ضرورى للاحتفاظ بتوازن خطاها التى تخطوها نحو الارتقاء فى كل ضروبه وعلى اختلاف ألوانه

مر على الناظرين فى حالات الاجتماع عقود من السنين وهم يقولون بما قال جوستاف لوبون . ولم يمر بهم خاطر أن الجماعات كائنات جامدة بطيئة القبول لحالات التغير والنشوء . وانى لاثبت هنا أن أول من عثرت له على قول فى هذا الموضوع الخطير هو العلامة كارل بيرسون الانجليزى اذ يقول :

« ان مانجد فى مباحث داروين من نفوذ البصيرة وقوة الادراك وما عقبها من مؤلفات سبنسر تلك المؤلفات التى هى على قوتها وبالغ أثرها سوف تكون أقل ثباتا وأسرع زوالا من مؤلفات داروين ، وما زودتنا به مبادئ النشوء فى الحياة الفردية والاجتماعية ، قد اضطرتنا الى تعديل أفكارنا القديمة وتقويمها ، وأخذت تقوى من دعائم مثلنا الادبية وتوسع من ميدانها ، ولكن ببطء تدرجى . ولا يجب أن يحزننا هذ البطء ولا أن ييئسنا ، لان من أقوى المؤثرات التى تحفظ الثبات الاجتماعى وتحول دون تخاخله ، تلك الصفة التى نبغضها ، صفة الجمود على القديم . لابل نقول بان العداء الصارخ الذى تقابل به الجماعات

الانسانية كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات . وان هذه الصفات هي بمثابة الكور المتاظية نيرانه ، والذى بدونه لانستطيع أن نفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الزائفة ؛ وهي التي تحمي الجسم الاجتماعي من أن يترك معرضا لتغيرات تجريبية جنائية ، قد تكون غير مفيدة آنا ، أو بالغة أقصى الضرر آنا آخر

والظاهر أن بين بناء العالم المادى وبين تكوين الجماعات الانسانية أوجها من التشابه تمثلها عناصر لازمة لحفظ النظام في كليهما . ففي الجوهر الفرد كهارب ايجابية وأخرى سابية ، وفي الدقائق المادية قوتا جذب ودفع . وفي الاجتماع تقدم وجمود ، وفي الحياة موت هو لزام لوجودها . وعلى هذ النمط نجد أن الصفات السابية التي نبغضها في المجتمع هي في الوقع أشياء لازمة للمحافظة على كيانه باعتباره اجتماعا انسانيا تنعكس على صفحته صور الصفات الفردية والاجتماعية .

خذ بين يديك قطعة من المادة اللينة واضغطها فانها تأخذ شكلا ما ، ثم اضغطها ثانية فانها تتبدل من شكلها الاول شكلا آخر وهكذا فان كل ضغطة تصورها في صورة جديدة . وتمثل بعد هذا أن المجتمع الانساني فيه من صفات الليونة مافي هذه المادة ، وانه فقد كل صفات الجمود والمحافظة على القديم ، ألست ترى أن ذلك يكون منتجا لفوضى عظيمة في نظام الاشياء الانسانية ، وأن تقبل كل جديد ليهدم ماقبله وليهدمه مابعده ؛ يكون في هذه الحالة افساد البناء المجتمع وتحطيما للمعاهد التي تقوم عليها المدنية ؟

عدد من مذاهب الفاسفة العملية ماشئت أن تعدد ، وارجع الى

مذهب سقراط ثم الكلبيين ثم السيرينيين ثم الى مذهب الايقوريين ثم الى الرواقيين، واعدل عن هذا الى تضارب جهات الفكر والمعتقد وتصور بعد هذا أن المجتمع الانسانى كان فيه من الصفات ما تحتمل تقبل كل هذا ثم رفضه على تتالى الاجيال وعلى تقارب الفترات التى كانت تظهر فيها المذاهب والآراء الفلسفية واحدا تلو الآخر، فهل كنت تجد فى بناء المجتمع ما تجد فيه الآن من الثبات؟ وهل كنت تجد أن للحق ما له الآن من صفات البقاء والخلود ؛

وكذلك تجد الحال فى السياسة والدين واللغة وفى كل ما تقوم عليه الحضارة من الصفات الاجتماعية . وعلى هذا تجد أن التقدم والارتقاء قوة ايجابية تعضدها ، وان كانت تقاومها ، قوة سلبية هى الجمود والمحافظة على القديم ، كما لو كان المجتمع الانسانى دقيقة من المادة تجذب جواهرها بعضها بعضا ، فى حين أنها تتدافع . وهذا لزام لبقائها دقيقة مادية خالدة كما أن الارتقاء والجمود صفتان لازمتان لبقاء المجتمع الانسانى مجتمعا مستكملا لصفات النشوء والارتقاء .

لهذا لا يجب أن تنظر الى الجامدين نظرة من يعتقد أنهم رجعيون ، لان الرجعى هو الذى ينكص الى الخطأ على الرغم من انه يعلم أنه سائر فى سبيل الحق والصواب . أما الجامدون فهم القوة السلبية التى تحفظ على الجماعات نصيبها من التوازن اللازم لثباتها ، وخطوها نحو الارتقاء فى خطأ متعادلة بطيئة ، ولكنها تدرجية .

* * *

٣ — مافوق العقل والعقل

بدأ الفليسوف هربرت سبنسر كتابه مبادىء علم النظام الاجتماعى ببحث فى تطور مابعد الآليات ، فقال بان التطور على ثلاثة أوضاع . الاول التطورغيرالعضوى ، وهو يتناول بناء السماوات والسيار الارضى ؛ والثانى التطور العضوى وهو يتناول الظاهرات الطبيعية التى نشاهدها حشو الطبيعة الحية وتراكيبها من نبات وحيوان على اختلاف درجاتها ومراتبها ، ثم الظاهرات الخاصة التى تعرف فى مباحث العلوم بالظاهرات النفسية — البسيكولوجيا — وهى التى تختص بها الصور الحية التى بلغت من الترقى حدا اصبح بطبيعة التطور مجالا لتلك الظاهرات . والثالث تطور مابعد الآليات أو ما بعد العضويات وهو فى الواقع بلوغ الحالة الاجتماعية واقتسام العمل بين افراد الجماعة .

فاذا أردنا أن ننظر فى هذا المبدأ نظرة تحليل تطبقها على موضوعنا هذا ، اعتقدنا أن تطور مابعد الآليات هى آخر الخطى النشوئية التى وصلت اليها جماعات الحيوان من الرقى . ولقد شاركها الانسان فى كل هذا وبلغ الى ارقى مايمكن أن يبلغ حيوان من تطور مابعد الآليات . فبماذا يمتاز على بقية الخلق ؟ يمتاز بانه يستمد مما بعد عقليته قوة يستعين بها على قوته العاقلة ليخضعها دائما لصالح الكل الاجتماعى

ان الفرد والجماعة لايتفقان، بل هما كائنان متضادان . ولكل منهما طبيعة تختلف عن طبيعة الآخر . يدلك على هذا أن العديد الاكبر من الافراد التى تعيش فى زمان ما ، لاتعير تطور الجماعة التى تلحق بها شيئا من الانتباه لمظاهرها ولاتحاول أن تصرفها الى طريق الخير والسلام .

فالفرد يتطور بتطور الجماعة ، خضوعا لروحها ، من غير ان يدرك من هذا التطور ، حين وقوعه ، شيئا . والجماعة ذاتها تساق الى التطور من غير ان تحس بشيء منه ، حتى يظهر الزمان فرقا بين حالة الجماعة فى زمانين مختلفين تدركه الاجيال المستقبلة .

وخضوع الفرد لشعور الجماعة يبعده عن عقليته المستقلة . فيجرفه تيار الشعور العام الى حيث يراد به ، الى الخطأ أو الى الصواب، الى الشر أو الى الخير ، حسب المتجه الذى يملك شعور الكل الاجتماعى . والشجار القائم بين شعور الجماعة وعقلية الافراد كون التاريخ الانسانى برمته . فما من حادث من حوادث الحروب ، أو مظهر من مظاهر الثورات الاجتماعيه ، أو قيام المدنيات المختلفة ، الا وتجد تلك الروح متجاية فيه تسوق امامها الانسانية سوقا الى حيث يريد بها مقدار ما أثر فيها شعور بكارثة قومية أو احساس بعزة النفس أو خيال الدفاع عن شيء اكثر ما كان موهوما لا واقعا بالفعل

ولكن باى شيء استطاع الانسان أن يحتفظ بخضوع عقلية الفرد لشعور الجماعة ؟ هنالك فى معتقداته الدينية وجد الانسان القوة التى استقوى بها على عقليته الفردية فاخضعها لقوة احساسه بالشريعة الادبية . اما وظيفة تلك المعتقدات فتجهيزها الفردية بقوة نفسية تسوقه الى الخضوع لمجموعة من آداب السلوك ومبادىء من الاخلاق تبقى عقليته واقعة تحت الاحساس بواجباته الادبية ، أى انها تخضع العقلية الانسانية لقوة مستمدة مما بعد العقلية . وتلك ظاهرة لازمت قيام المدنيات فى كل عصر من عصور التاريخ .

يقول الاستاذ بنيامين كيد صاحب كتاب التطور الاجتماعى المعروف:

« ان الروح الحربية التى تملكت زمام المدنية فى عصور الوثنية هى التى شكلت تاريخ الغرب برمته ، فخرجت الشعوب الغربية من تلك المعامع : معامع التدمير والتخريب ، بمدنية هى أغرب ما وصل اليه الانسان فى تاريخ الدنيا . وما من نتاج من ثمار هـذه المدنية ، وما من نظام من نظامتها الاجتماعية أو شكل من اشكالها ، الا وتجد للروح القديم أثراً فيه كبيرا . يرجع ذلك إلى اعتقاد ثابت راسخ فى روع الشعوب منـذ نشأتها لحمته أن حيازة القوة والانتفاع بثمراتها هو المبدأ الذى يجب أن تعمد اليه الامم اذا ماشاءت أنه تحتفظ بكيانها . غير أن هذا الكائن الناطق الذى خرج من جوف الازمان الاولى وبيده آلات الحرب والتخريب ، كان ذا عقيدة دينية . عقيدة تخالف فى أسسها ومبدئها الذى ترتكز عليه فى طبيعة الرغبات الانسانية . نزعته الى القوة من أية طريق أتاها وبأية من الوسائل التى تذرع اليها . وظلت نزعة الانسان الى القوة تحارب تلك العقيدة الموروثة حربا عوانا نشهرها على ذلك المعتقد نزعات الانسان وبواعث انفعالاته طوال القرون الاولى . ولا يزال الشجار قائما حتى الآن . وانك ان قلبت تاريخ الانسان لتجلى لك مقدار ماجالد ذلك الحيوان الناطق المفكر فى سبيل التخلص من قيود تلك الوراثة الدينية التى خرج بها من حياته الاولى مستعيناً بها على هدم ذلك المعتقد بكل ما اوتى من قوة الفلسفة والعقل ؛ فكم زجت تلك النزعة بالانسان فى غمرات حروب تهدم بها ما أقام السلم من صروح العمران ، وكم تمزق بها ما رأبت شريعة الآداب من صدوع الانسانية »

تلك روح خالدة فى الجماعات قد تتغير مظاهرها ، وجوهرها ثابت فى الزمان ، مرتكز على طبيعة الانسان المفكر المعتقد المدرك لحقيقة الشريعة الادبية ، المحكوم بوازع مما فوق عقليته يخضع عقله لحاجات الاجتماع . تلك الصفات التى ترتكز عليها أصول المدنية .

عبثاً ماحاول بعض الفلاسفة أن يقاوموا تلك الروح بمذهب فلسفى فى النفعية ، يستغوى الفرد ليخرج عن شعور الجماعة وروحها . كثر فى أوروبا من حاول ذلك فى أواخر القرن الفارط ، ونشر بعض المشتغلين بالآداب كتبا فى « دين الطبيعة » مالبثت أن قتلتها روح الجماعات ، شأنها فى كل شيء يصد طريقها الشعورى الصرف . حاول هؤلاء أن يجعلوا العقل حد الدين ، فوقع الانسان فى مأزق من مآزق البعد عن الشريعة الادبية كاد يتداعى معه أساس المدنية . ولا يزال بعض المفكرين يتابعون ذلك الرأى ، قائلين بأن دين المستقبل سوف يكون معتقداً بعيداً عما تبعثه فى أهل هذا العصر معتقدات مابعد العقلية البشرية . حاول هؤلاء أن يجدوا فى عقل الانسان وحده هاديا ومرشداً أمينا بصفته فرداً صالحا من مجموع انسانى ، يختط له خطة من السلوك والاخلاق جديرة بان تحفظ نظام الهيئة البشرية التى يجب أن تقوم على أساس من الاحساس الادبى أخفقوا سعيا وضلوا سبيلا . لان الطبيعة لم تحب الانسان بشيء من هذا . رجع الناس بعد ذلك مؤمنين بان وازع مابعد العقلية ، أول عنصر من عناصر المعتقد الدينى بل نواته ، وأنه الضابط الذى يضبط علاقة الفرد بالجماعة فى كل حالة من الحالات وتحت تأثير أى ظرف من الظروف

على أنك تجد أن فى النظام الاجتماعى قوتين متضادتين تتنازعان

بقاءه : قوة مفرقة ، وقوة مؤلفة . فالقوة المفرقة يمثلها عقل الفرد الانانى المحب لذاته . والقوة المؤلفة يمثلها معتقد دينى يستمد مما فوق عقلية الفرد. وتنحصر وظيفته فى أن يحتفظ فى تطور الجماعات باخضاع مصالح الافراد ومطامعهم لصالح الكل الاجتماعى . وأن الدين فى طبيعته ضرب من ضروب المعتقد يهىء الانسان بوازع مما فوق عقليته ، يضبط سلوكه نحو المجموع .

فاذا أيقنا بعد كل هذا ان الانسان كائن معتقد كما هو مجتمع ، وأن الدين من بين كل معتقداته هو الذى يهيئه بوازع مما فوق عقليته ، استطعنا أن ندرك كيف أن الخصومة الموهومة بين الدين والعلم مستحيلة ، والا فلو كان بين الدين والعلم خصومة وعداء، لتحطمت قواعد العلم قبل أن يهتز ركن واحد من أركان الدين .

الدين فى النفس الانسانية ثابت لا تتغير ماهيته وان تغيرت مظاهره. وهو فوق ذلك صفة غريزية تلازم طبيعة الانسان مادام قد تكون ليكون انسانا فيه من التكوين الطبيعى مايجعل للدين ركيزة أثبت فى نفسه من ركيزة العلم والفلسفة . وعلى هذا لا يمكن أن يكون بين الدين والعلم تجالد وصراع، لانهما على الرغم من الفوارق الطبيعية الكائنة بينهما والتى لا تجعل للصراع بينهما مجالا يستمدان من ناحيتين متباعدتين من نواحى التكوين الانسانى

∴

٤ — الفرق بين العلم والفلسفة والدين

ضرورات الحالة الاجتماعية كثيرة متباينة ، وهى على كثرتها وتباينها بل وان شئت فقل تناظرها ، انما تستمد من طبيعة الكائن المجتمع

وليس من هذه الضرورات ماينزل عن حد الضرورة ليكون أكثر ضرورة أو أقل ضرورة من غيره وليس منها ما هو أقرب الى الكماليات من الحاجيات ، فان هذه الضرورات كلها تنزل منزلة واحدة من حاجة المجتمع اليها .

وهى فوق ذلك مستمدة من صفات غريزية فى الكائن المجتمع تتشكل فى صور مختلفة بمقتضى اجتماعه ليكون كلا اجتماعيا . أو كائنا اجتماعيا كما يقول سبنسر . ومن أول هذه الضرورات أن يكون فى الانسان صفات نفسية وأخرى عقلية . وهذه الصفات ، بصرف النظر عن مظاهرها الخارجية وباعتبار أنها أشياء كائنة فى تضاعيف الفطرة ، لايمكن أن يكون بين ماتنتج تضارب وتجالد ، أو عداء وصراع . قد يكون بين بعض ماتنتج من الحالات الاجتماعية جمود يناظره فى أخرى نزعة الى التقدم والارتقاء . وقد يكون فى ناحية منها حركة فى حين أن ناحية أخرى تتطلب الهوادة والسكون النسبي لتتعادل الكفة ويحدث الثبات الاجتماعى الذى هو أول صفة من الصفات المطلوبة فى جماعة انسانية يصح أن يقال فيها انها متحضرة وأنها تقيم عمرانا .

فالعلم مثلا صفة عقلية أصبحت الآن ضرورة من ضرورات المجتمع الحديث وان كان العقل وهو نبعها الفياض ، صفة من الصفات الاصيلة فى حياة الانسان الاجتماعية ، بل وفى غيره من كثير من الحيوانات الاخرى. وكذلك الدين فهو صفة تستمد مما فوق العقلية البشرية ليسد فراغا فى الاجتماع لا يسده العلم . وبين العلم والدين فجوة لا تسدها الا الفلسفة . فهذه الدرجات الثلاث أو هذه الصفات الثلاث :

صفة أن الانسان يعلم ، وصفة أنه يتدين ، وصفة أنه يتفلسف ليوفق بين طرفى العقل وما بعد العقل ، صفات فطرية فى الانسان أصبحت بطبيعته ضرورات اجتماعية ولا يمكن أن يكون بين شيء منها عداء وصراع ، وإلا أصبح الانسان عبارة عن مجموعة صفات متناقضة وهيكل من الفوضى المتحركة . هى فى الواقع متناسقة متكاملة كالقضية المنطقية التى تتكون من طرفين ووسط ، موضوع ومحمول وحد وسط . وهى فوق ذلك لا تنتج انتاجا صحيحاً الا اذا صحت مقدماتها ..هذا مثل الانسان فى العلم والفلسفة والدين . وكلها ضرورات لا بد منها ، وان استمدت من نواح مختلفة من نواحى الفطرة الانسانية . هى ضرورات اجتماعية من ناحية أن الانسان مجتمع ، وضرورات فطرية من ناحية أن الانسان كون على ما فيه غير مخير هواه.

على أننا لا نترك الموضوع عند هذا الحد فلا بد من أن نظهر أن هذه المنتجات لا تتخالط مطلقا .وبذلك لا تتعادى ولا تتصارع

يقال إن العلم ذو صفات ثلاث ، يقال انه تام، ايجابى ، موضوعى . وأن الفرق بينه وبين صور الفكر الاخرى أن هذه غير تامة مبهمة ذاتية . ان العلم يؤدى للعقل نواتجه أو فكراته فى اصطلاحات محدودة بالتعريف ، مباشرة المعنى ، بينما تجد أن هنالك عالما فى الادب والنواتج العقلية غير محدود بالتعاريف ، رمزى فى قوامه ، غير مباشر المعنى والتعبير . إن العلم يسلم بأن ليس له من دعامة الا دعامة المعرفة ، على أن تكون بينة جلية تامة الوضع . لهذا تجده مناظرا فى طبيعته لنواحى الفكر الاخرى المرتكزة على الآراء والاعتقاد والايمان ولا يغيب عنا

أن هذه المصطلحات اما أن تشير الى الاسلوب الذى ينتحى فى البحث ، واما أن تشير الى موضوع البحث ذاته . أما العلم فيفخر بان له أسلوبا ثابتا لا يحتمل الجدل ولا يسع التورط فى المسائل الخلافية النظرية . أما بقية فروع الفكر فاما أن تستعير أساليبها من الاسلوب العلمى ، وإما أن تطبق أساليب متغايرة لم يجمع عليها الاجماع كله ، وأما أن تأبى الخضوع لاسلوب ما على وجه عام (١) فالعام يتناول كل الاشياء أو الموضوعات التى تطرأ على اذهان السواد الاعظم من النـاس أو تمس مصالحهم ، وهى موضوعات قد يبلغ الى الاحاطة بها كثير من الناس ولهذا يفخر العلم دائما بان مشاهداته واستنتاجاته خاضعة دائما للتحقيق والبحث آنا بعد آن . لذلك تجد أن شـطراً عظيما من المشاهدات والاستنتاجات العلمية قد تؤخذ فى أكثر الاحيان على أنها حقائق تامة أجمع على صحتها وثباتها ، فيمضى الذين لا يأنسون من أنفسهم القدرة على تمحيصها وبحثها ، أو الذين تقعد بهم الهمة دون فحص براهينها ، قانعين بأنها أشياء بديهية ثابتة لا مبدل لها . غير أن هنالك أشياء كثيرة تقوم فى عقل كل فرد من الافراد ، شخصية فى طبيعتها ذاتية فى مبعثها ولهذه الاشياء فى أنفسنا من الشأن والخطر ما يعدها من مطالب الحياة وحاجاتها . وأن هذه الاشياء هى المادة الحقيقية التى يتركب منها الفكر الخارج عن ميدان العلم . وهى فى جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم اليقينى . وفى هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته أن يقوم بعمل ينتفع به الكثيرون على نفس الطريقة التى تحتذى فى العلم . فالاخذ بالبرهان

---

(١) راجع الاستاذ جون تيودور مرتز فى تاريخ الفكر الاوربى فى القرن التاسع عشر

فى ذلك الشطر مستحيل ؛ والاجماع على شىء فيه لا يضم تحت لوائه الا عدداً قليلا من الناس . فالاقوال والنظريات لا يمكن أن تؤخذ فى هذا الشطر على أنها حقائق ضرورية لا تحتمل الجدل كما هى الحال فى العلم بل أن كل شخص لا بد من أن يجتاز فيها السبيل الذى اجتازه الذين تقدموه ، قبل أن يأنس فى نفسه القدرة على قبول ما اتى اليه والانتفاع بثمراته

ان الصفة الوحيدة التى تلازم هذا الشطر فى الفكر أنه فردى ذاتى فى حين أن العلم مهما كانت صبغته ومهما كان أصله عام موضوعى ، أى أنه غير ذاتى . يرجع الى الموضوع . لا الى الذات التى تفكر فى الموضوع وتفحص عنه . فاذا مثلت للفكر بشىء ذى طرفين متناظرين ألفيت أن العلم الرياضى فى أحد طرفى الفكر وان الدين فى الطرف الاخر . وأنك لتجد أن الاتفاق فى الطرف الاول صفة ملازمة ، كالاختلاف والتنابذ فى الطرف الثانى . تلحظ ان وحدة الفكر صفة ثابتة فى الطرف الاول فى حين انك لن تقع لها على ظل فى الطرف الثانى . انها لم تعرف فى الدين ولن تعرف . وانك اذا أردت أن تعبر عن ذلك بالكلام الدارج استطعت ان تقول ان المعرفة والتحقيق لزام الاول وان الايمان والاعتقاد لزام الثانى . على انك فيما بين الطرفين تقع على فراغ كبير يفصل بينهما . ان هذا الفراغ ينشىء فى الفكر صوراً تصل بين الطرفين فتبرز حينا فى هيكل من المعرفة ، وآخر فى مثال من الايمان ، فيختلط فيها قليل من الاشياء المحققة بكثير من الايمان والاعتقاد المبهم . تلك المسافة الكبيرة ، وهذه المفازة المترامية الاطراف ، والتى تتوارد عليها صور

التغيير والاختلاف سريعة متعاقبة هي سكن الفلسفة الحقيقي ومنبتها الاصلي. الفلسفة التي تتناول الحقائق ولا تأنف من الايمان، الفلسفة أصل المعرفة، ومصدر الاعتقاد واليقين. الفلسفة حلقة الوصل الواقعة بين الطرفين: طرف العلم وطرف الدين. (١)

بعد هذا التحليل الدقيق نتساءل: هل يمكن للانسان ان يكون بلا عقل ليكون بلا علم؟ وهل يمكن أن يكون بلا وازع من فوق عقليته ليكون بلا دين؟ وهل يمكن أن يكون بلا تأمل في الناحيتين ليكون بلا فلسفة؟ هذا مستحيل. مستحيل على الانسان أن يلغي عقله، أو يلغي وازع مافوق عقليته، أو يلغي تأمله في حقائق الاشياء.

ثم نتساءل ثانية هل يمكن أن يقوم بين هذه الضرورات العقلية والنفسية صراع وتجالد، بحيث يمكن أن يقوم بجانب هذا الصراع الشديد حياة اجتماعية، لا تجرى فيها الدماء، ولا يعبث فيها بأخص الصفات الانسانية؟ أما دليلنا الملموس على أن الصراع بين الدين والعلم شيء موهوم فبقاء بناء الاجتماع الانساني بما فيه من مختلف الصور الناتجة عن العقل والشعور، وثباته وبعده عن التناقض والانشعاب.

٥ — الصراع بين اللاهوت والعلم لا بين الدين والعلم

اذا صح لدينا أن لا نزاع بين الدين والعلم فما هو السبب. اذن في تلك الفجائع التي يرويها التاريخ خلال القرون الوسطى، بل وفي الازمان القديمة. وما هو الباعث على تلك الحروب التي قامت بين العلماء

(١) راجع كتاب نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر

والفلاسفة من ناحية، وبين من نسميهم رؤساء الدين من ناحية أخرى؟

اذا كانت حقائق التحليل النفسى والعقلى تدلنا على أنه لا يمكن أن يقوم صراع بين الدين والعلم ، لان هذا مستحيل فطرة واجماعا، وقفنا أمام وقائع التاريخ ، وعلى الاخص ، تاريخ النشوء العقلى والفكرى نتلمس أسبابا نعزو اليها البواعث التى كونت تلك العناصر التى انطوت عليها صفحات الماضى وكانت سببا فى تكوين محاكم التفتيش فى القرون الوسطى لتحرق وتقتل تحت عنوان الهرطقة والخروج على الدين كل من نزع الى جديد فى العلم وكل من كشف عن حقيقة من حقائق الطبيعة

لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت فى القرون الوسطى وبين أحضان النصرانية . فانك لا تعثر فى تاريخ الاديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصرانى فى قيامها فى فى وجه العلم أزمانا طوالا ، بل قرونا متعاقبة . والسبب فى هذا أنه قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة فى أن العلم لا يجب مطلقا أن يبشر بشىء فيه أقل مخالفة لظاهر ما جاءت به الاسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين . ولست تعلم لماذا يكون هذا لزاما على العلماء والفلاسفة مع أن طبيعة الدين لا تسع هذا ولا تدعو اليه . فان وظيفة الدين فى الواقع اجتماعية ارشادية، لا تعليمية. ولكن شاءت عقول اللاهوتيين أن تكون وظيفته تعليمية . لهذا نشأ ما يسمونه الخصومة بين الدين والعلم ، وما هى فى الواقع الا خصومة بين اللاهوت والعلم. وكم من لاهوتى ظهر خلال القرون الوسطى وحاول ان يثبت ان

الدين لا شأن له بالعلم وان وظيفته تنحصر فى أن يعرف الناس طريقة الخلاص فى الآخرة ، لا حركات الاجرام السماوية أو تكوين الارض كيف يكون !! ولكن المذاهب الشائعة فى اللاهوت ومن ورائها محاكم التفتيش ، لم تكن تترك لامثال هؤلاء مجالا . وزاد الطين بلة ان اللاهوتيين ومن ورائهم الكنيسة ، وعلى راسها البابوات المعصومون عن الخطأ كانت قد زكت المذهب اللاهوتية التى ذاعت فى تفسير الانجيل والتوراة باجازتها حينا بعد حين ، فأصبحت تلك التفاسير فى الواقع مقدسة كاصل المتون نفسها . لهذا كانت ثورة اللاهوت فى القرون الوسطى حامية ونارها محرقة تلظى.

***

٦ — هل بين الدين والعلم عداء حقيقى أو مجازى

يخيل الى الذين يقولون بأن بين الدين والعلم عداء ، وانه بينهما صراعاً وجلاداً يقوم على شيء فى طبيعة الدين يعاند طبيعة العلم ، أو أن فى طبيعة العلم شيئاً يعاند طبيعة الدين ، أن الانسان عبارة عن كائن كل مافيه عقل صرف وتفكير محض فى حين أن ما كشف عنه علم الاجتماع الانسانى مؤيداً بمباحث العلماء الاعلام فى فروع علم البسيكولوجيا قد أثبت بما لاسبيل الى ادحاضه أن الانسان عبارة عن مجموعة مشاعر حادة قوية تزكيها نزعة غريزية مما فوق العقل تحكم رابطته بما نسميه الجماعة ، أو المجتمع البشرى.

يقول ديكارت « أنا أفكر انا اذن كائن » . والحقيقة أن الوجود والحياة أولى الحالات التى يقوم عليها أساس الجماعات . فلنفكر قليلا فى

حالة الحياة ذاتها وعلى الاخص فى الانسان المفكر المجتمع لنرى إن كان حبنا للحياة ذاتها شيء يقودنا اليه العقل أو الشعور والخضوع لما بعد العقلية

اذا وازن إنسان بين ماينعم به فى هذه الحياة من سعادة وبين ماينزل به من ملمات فادحات، فلا شك فى أن كفة آلامه ترجح كفة سعادته على حسب مايصور له عقله اضعافا. فان مطاليب الحياة والسعي الجاد وراء ماتطلب من ضرورات لا تترك للفرد مجالا للمتعة بمايصور له عقله أنه متعة حقيقية. واذا نظر فيما يحيط به من الحالات الطبيعية الفى ان الطبيعة التى تحيط به والتى يعيش بين احضانها خاضعاً لقواسرها انما تناهزه اشد العداء ويقابلها بأشد المقاومة. فهو فى الواقع فى حرب مستعرة مع العناصر التى تؤلف كيانه. فالجراثيم القاتلة والوحوش الضارية وتقابات الطقس وتأثيرات المناخ والتناحر على الحياة والانتخاب الطبيعى وابقاء الاصلح بل وكل ماتتطلب نظامات الطبيعة من جهود يبذلها الانسان ليعيش ويحيا حياة طبيعية، هى بذاتها متاعب لاتجعل للحياة من قيمة حقيقية اذا نظر الانسان فيها بعين العقل وحده وجرد نفسه من نوازع مافوق عقايته. ثم فكر قليلا بعد هذا فى هذه الحياة وسائل نفسك لماذا وجدت، ولاى غرض خلقت وما هو القصد من هذه الحياة التى احياها، ومن ذاك الموت الذى انا بالغه يوما من الايام؟ وانظر بعد ذاك هل ترضى عن هذه الحياة وهل يكون وجودك فيها ممكناً ان تركت نزعات العقل تحتكم فيك وحدها، أو ان لجأت اليها تلتمس هدايتها للخروج من هذه الظلمات

ان العقل يوحى اليك بأن تفارق هذه الحياة فلا فائدة منها وانت فوق ذلك عاجز عن ان تعرف سر وجودك فيها! انها عبث فى عبث

وبدء ونهاية لاخلود وراءها، ولا حياة أخرى تثاب فيها على طيباتك او تعاقب فيها على سيئاتك. يهمس العقل فى روعك دائما بان هذه الحياة التى تحياها وتلك المتاعب التى تتحملها والمشاق التى تذللها انما تعمل فيها لغيرك لالنفسك وتتحمل كدورتها للاجيال المستقبلة التى ليس لك من علاقة بها ولا تعرف ان كانت تستحق منك ماتضحى به من صحة وعافية .

اليس هذا وحى العقل ؟ اليست هذه الاشياء هى اول مايوحى اليك به العقل الصرف المجرد عن المشاعر وقواسر مافوق العقلية! اذن نستطيع ان نقول ان بين العقل والوجود كله صراعا بحكم اننا كائنات لانعرف لماذا وجدنا ولا نفقه لوجودنا غرضاً يختفى وراء مظاهر هذه الحياة .

ثم ارجع بعد هذا الى نظام الزوجية ، وجرد نفسك من المشاعر برهة واحدة لتحكم العقل فى هذا النظام الذى لولاه لما كان للاجتماع الانسانى على ما نراه اليوم من اثر

لماذا يقسر الرجل المرأة على ان تكون له وحده ولماذا تغار المرأة على الرجل ان هو جرى وراء اخرى ؟ ولاى شىء يحتمل الرجل والمرأة كلاهما تلك الواجبات ولماذا يلزمان تلك الحدود التى وضعتها الشرائع والقوانين وفى فناء الاباحة ماهو أرخى لعنانها وأقرب لما يرضى نزعتهما العقلية . يسعى الرجل ويكد كل كد ليعول امرأة اراد ، ولا يعرف لماذا ، ان يختص بها وتختص به ، وان يقوم حفيظا عليها زعيما بمطالبها فى الحياة . يحتمل مرارة العيش ويواجه مصاعب الحياة بلذاذة وصبر

فى سبيلها وفى سبيل شىء لايعرفه . سائل نفسك لماذاانت تخضع لنظام الزوجية ، ولماذا تجد فيه من السعادة مع مرارة السعى ؛ ما لا تجد مع راحة العقل واطمئنانه الى حياة خلو من المسئوليات والواجبات ، وانت لاتعرف ان كنت تعيش فى نظام اساسه العقل الصرف ام فى نظام لا تعرف فى الواقع لماذا تخضع له ان حكمت فيه العقل واردت ان تستوحيه ليهديك فى ظلمات ما أنت فيه من نظام ؟

ثم ارجع الى المرأة وحدها وتصور لهفة بنت حواء اذ نبذتها الطبيعة فى صحراء العقم وتركتها بلا عقب . وانظر كيف انها تغضب على الطبيعة وعلى الحياة وعلى الاحياء، لان القدر شاء لها ان تكون عاقرا غير ولود .

وصور بجانب هذه الصفة المثالية متاعب المرأة فى تربية اولادها والقيام عليهم ، وما تعرض له حياتها من المخاطر فى الحمل والوضع ، وتصور كيف انها تنسى كل آلامها وتغيب عن عقلها كل متاعبها بمجرد ان تضم طفلها الى صدرها ضمة تفيض معها كل معانى الحياة لا كل حقائقها فتغمرها فى بحر لجى من المشاعر يموت معه العقل ويحيا الوجدان

ثم انظر فى حياة المرأة فى مفصلاتها . فانك تجد انها انما تعيش للمستقبل الصرف الذى لايغشاه من التطلع الى الحاضر غاشية . كل مافيها من مشاعر ؛ وكل ماتاتيه من اعمال ، وكل ماتحتمله من متاعب فى هذه الحياة انما تتوجه به شطر المستقبل والاجيال التى سوف يتمخض عنها القدر فى الايام الآتية . هذه هى اكبر فضائل المرأة الغريزية . تعيش لغيرها لا لنفسها . تعيش لرجلها ولاولادها وتضحى فى سبيلهم كل شىء

تملكه او لاتملكه الا مجازا ، لتضع للمستقبل عمادا يقوم عليه . واساسا يرتفع من فوقه بناؤه المشمخر .

جرد المرأة من هذه المشاعر ، وخاص تفسيتها من قواسر مافوق العقلية التى تقوم عليها كل هذه الصفات . وحكم العقل فيها وحده . او اجعلها تحكم العقل فى كل ماتعمل اوتأتى من افعال . وانظر بعد ذلك كيف يكون المجتمع اذا سادت فيه نزعات المرأة العقلية . وكيف يتهدم الحب وتموت الشفقة . وتنتفى الرحمة . وكيف تندك الشرائع السماوية . وتتبدد سلطة القوانين الوضعية ؟ وماذا يبقى بعد كل هذا؟ هل يبقى من المجتمع الانسانى عين او اثر

وهنا أيضاً نستطيع أن نقول بأن بين العقل وبين نظام الزوجية وتضحية المرأة نزاعاً وصراعاً وان بينهما جلاداً يجب أن تخضع فيه المشاعر لحكم العقل وحده ، كما تقول بأن بين الدين والعلم قتالا ، يجب أن يتغلب فيه العلم وليد العقل ، على الدين وليد المشاعر ونزعات ما فوق العقلية فى الانسان

تأمل فى نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التى تربطك بالمجتمع الذى تعيش فيه ، والسلاسل والاغلال التى تثقل جيدك وتنقض ظهرك ، من واجبات نحو الاسرة والأب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشروف والعرض وما الى ذلك ، واستسلم الى العقل وحده وانزل على حكمه فى تلك الامور عامتها ، وجرد نفسك من المشاعر ان استطعت برهة واحدة ، فانك لا تلبث أن تجد عقلك وقد أخذ يجر خطاك الى التخلص من هذه

القيود التي لن تجد من عقلك ما يسوغها أو ينزلها على حكم النفع المباشر . لماذا تعيش في أسرة وتحمل نفسك من الاعباء ما تطيق وما لا تطيق ؟ ولماذا تحب أباك وتحترم واجبات الأمومة وتعطف عليها ، ولماذا تخضع لعيشة الزوجية وفي مقدورك ان تستعيض عنها بعيش ارغد في نظر العقل واقرب الى مطالب الحياة الحرة المطلقة من قيود الواجبات الأدبية ؟ ولماذا تحتمل تربية اولادك وتحمل من اجلهم امر مذاقات الحياة باصطبار وسعادة ؟ ولماذا تحب وطنك وتضحي في سبيله نفسك ومالك ، وتريق من اجله دمك وارض الله واسعة الفضاء ؟ ولماذا تقيد نفسك بدين تخضع له وفي متسع الاباحة ما هو ارضى لعقلك وارخى لعنانك واوجب في رضائك بالحياة؟

هذه أسئلة يجيبك عليها الشعور جواباً لا يرضاه العقل ، ولا تسكن اليه موحيات الانانية الرسيسة في طبيعتك . انما الطبيعة قد خصت الانسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله. شيء آت مما فوق عقليته ينزل تلك المعاني من نفسه منزلة يخضع لها العقل قسراً عنه ، شيء يقال له الفكرة الدينية ؛ فيها من المشروعية المكتسبة بحكم الاجماع العام ما يخضع الفرد المجتمع بحكم المشاعر وتحد من شهوات الفرد المستقل الخاضع لحكم العقل .تلك هي وظيفة الدين الكبرى في الاجتماع الانساني (١)

* * *

هذه أمثال مقتضبة مما في هذه الحياة من بواعث ما فوق العقلية

(١) راجع كتاب ملتى السبيل الفصل السادس

لو اننا مضينا نضرب فيها الامثال اذن لملأنا صدر مجلد ضخم حتى نبلغ منها حداً يرضى نزعة البحث الصحيح . وما أتينا بهذه الامثال الا لنظهر انه كما أن العلم لم يصارع بقية ما فى الحياة من بواعث ما فوق العقلية الانسانية صراعاً واجهها فيه بالذات ، كذلك هو لا يصارع الدين وهو أخص ما فى هذه الحياة من الالهامات العلوية التى تحكم فى ما فوق العقل، لا فى العقل نفسه .

انما يصارع العلم صور اللاهوت المذهبى. لان هذه الصور انما تريد أن تنزل بالدين الى أفق العلم . تريد أن تجعله ديناً وتجعله علماً وهنالك يقع الصراع بطبيعة الحال

لم يشرف القرن التاسع عشر على الختام حتى ودعه العلماء بعدة مستكشفات خطيرة فى الفوسيقى والكيمياء والتاريخ الطبيعى . غير ان أعظم استكشاف وصل اليه العقل البشرى خلال القرن التاسع عشر على معتقدى، تيقن أهل العلم بأن للعلم حداً يقف عنده ، هنالك ترك العلم ادعاءه بحق التفرد بالوجود والتسلط وحده على كفايات العقل البشرى اذ بان لاهله أن وظيفة العلم تنحصر فى وصف حقائق الاشياء . هنالك نامت عاصفة العلم وانتصرت الطبيعة على نزعات الوهم السائدة فيها ، وهنالك تحددت المعارف الانسانية بحسب كفايات العقل الانسانى فترك الدين سلطانه وحدد العلم حيزه

٧ — وظيفة الدين ارشادية لا تعليمية

لقد أبنا فى سياق هذا البحث أن العداء لا يمكن ان يقع بين الدين والعلم بصورة مباشرة ، وأثبتنا فوق ذلك أن العداء لا يقع الا بين

صور اللاهوت المذهبي والعلم. لاسباب هى فى الواقع ذاتية اكثر منها موضوعية . فان رجال اللاهوت عند ما أرادوا أن يفسروا نصوص الكتب المقدسة ويطبقوا هذه النصوص على الحقائق الكونية جنحوا فى الواقع الى فكرة أساسية كانت السبب الكلى فيما ترى من نتائج ذلك الصراع الذى قام بين معاهد الدين ورجال العلم . وكان أول ما ذهبوا اليه وأدى الى هذه النتائج الخطيرة قولهم بأن نصوص الكتب المقدسة لا تقبل التأويل وانها انما تزودنا بمعارف الدنيا كما تؤدى بنا الى الخلاص فى الآخرة . وكان لهم فى ذلك مذاهب كثيرة أخصها مذاهبهم المعروفة فى علم الفلك والجغرافية والخلق وما الى ذلك

على ان جهلهم بحقائق التاريخ كان فى الواقع من اكبر الاسباب التى حدت بهم الى الاستمساك بمثل هذه الآراء والوقوف فى مثل تلك المواقف الحرجة التى كان من شأنها أن تذيع فى بعض العصور مذاهب بلغت من التطرف فى الالحاد أقصى الحدود . فانهم لم يعرفوا مثلا أن اكثر ما جاءت به الكتب المقدسة واكثر التفاسير التى فسرت بها تلك الكتب انما استمدت من أساطير وخرافات ذاعت بين أمم العالم القديم ،فى مصر والهند واشورية وبابل والكلدان ، وأن هذه التصورات الفرضية قد نماها الزمان وانتقلت بالالقاح من جيل الى جيل ومن أمة الى أمة حتى أسلمت بها تطورات الاجتماع الى العصور الحديثة محيكة فى صورة كتب مقدسة هى فى الواقع ليست بالدين ، ولكنها مظهر من مظاهره

لهذا لا نريد أن نتابع الكلام فى وظيفة الدين باطناب . لان

مجال الـكلام فى هذا واسع كبير . وجل ما نرمى اليـه من هذه العجالة يتلخص فى شيء واحد هو الاعتقاد بان وظيفة الدين ارشادية لا تعليمية. لان القول بان وظيفته تعليميـة قد يجر الى البحث فى أصل الاديان ومنشئها ومقارنة بعضها ببعض . وهذا بلا شك يؤدى حتما الى القضاء على المهمة الأصلية التى من أجلها وجدت الاديان ، مهمة الارشاد والتأثير من طريق الوازع فى سلوك الافراد .

على اننا ان قدمنا اليوم الى القراء كتاب «تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم من العصور الوسطى » فانما تقدمه لطبقة من الطبقات المستنيرة فى انحاء الشرق العربى مرنت على مواجهة الحقائق وسكنت اليها وعرفت أن أفضل ما يتصف به الانسان فى هذه الحياة من خلق هو البحث وراء الحقائق لذاتها والسكون اليها مهما كان فيها من المنافاة لما نشأ عليه المرء من التقاليد .

ولا ينبغى أن تمر بى هـذه الفرصة دون أن أنبه على ان الاديان ذاتها انما كانت لتعرفنا الحقيقـة من طريق ما . فألواح الوصايا العشر التى نزلت على موسى وجرت عليها بقية الاديان وشرعتها للناس ، قد نزلت على قلب الانسان من قبل عهـد موسى ومضى المشرعون والمصلحون يتبعون مبادئهـا قرونا قبل أن يعرف الانسان ما هو التنزيل . فانك تجد مثلا فى « كتاب الموتى » عنـد قدماء المصريين ألواحا كهذه الالواح عددها عشرة تماما . وتجـد ما يماثلها فى دين زرادشت ومانى وبوذا وكونفوشيوس .

وعلى هذا فانى أعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك باننا اذا أردنا بعزم صادق أن نؤيد الاديان وان يكون لنا فى هذه الحياة عقائد صالحة لان تكون دستوراً قويماً فى الحياة ، فلنبحث عن الحقائق ولنطرد الاوهام لتقوم الحياة الانسانية على أساس ثابت لا يدخله الوهم ولا تعمل فيه يد التقاليد

اسماعيل مظهر

الفصل الاول

علم الفلك

١ — النظرية الجيوسنترية

وهى النظرية القديمة المقدسة فى تكوين العالم

اعتقاد الكنيسة الاولى بأن علم الفلك لا فائدة منه — تكوين النظرية المقدسة ونشوئها — أوريقن — قوزماس — إزيدور — النظرية الجيوسنترية أو نظرية بطليموس — اصلها — قبول الكنيسة لها والعالم النصرانى بالتبعية لها — نشوء النظرية المقدسة الحديثة فى علم الفلك — بطرس لومبارد — توماس أكويناس ـ ترويجها من طريق دانتى ـ تفاصيلها ـ بقاؤها فى الاذهان حتى الاعصر الحديثة .

* * *

كان التنازع على العلاقات الواقعة بين السماوات المنظورة والسيار الارضى محور ،لسلسلة من الوقائع تصادم فيها اللاهوت والعلم صداماً ؛ والتحما التحاماً .

نظرت الكنيسة ، خلال العصور الأولى ، فى علم الفلك ؛ نظرة القانع بأنه من الاشياء البائرة ، اعتماداً على حكمة ظاهرة بشرت بها التوراة ، مؤداها أن الارض لابد من أن تزول سراعاً ، وأنه سوف

تـكون ـ « سماوات جديدة ، وأرض جديدة » [١] فلماذ إذن اعنات النفس فى درس السماوات القديمة والارض القديمة ، مادامتا سوف تبدلان سريعاً بشىء جديد ، لانهاية لأوجه تفضيله على القديم المنهار الاركان ، المتصدع البنيان ؟ ولقد يتجلى هذا الشعور باجلى صوره فى قول القديس أوغسطين — st Augustien — المشهور — « أى شأن لى فى أن أعرف اذا كانت السماوات كـكرة تتضمن الارض معلقة فى وسط الـكون ، ام أنها تشرف مرتـكزة عليها من كلا الجانبين » ؟.

أما الاجرام السماوية فلم يكن اللاهوتيون لينظروا فيها الا على اعتبار أنها اشباح مايؤدى النظر فيها الى شىء ، اللهم الا الى تأملات تبعث على الورع والتقوى — أما أزاء طبيعتها فان آباء الـكنيسة متقسمون . فان « أوريغن » — Origen — ولفيفاً من حوله ، كانوا يعتقدون بانها ذوات حية تقمصتها الارواح . ولقد بنى هذا الاعتقاد على الرؤيا المعروفـة فى التـوراة إذ تغنى نجوم السماء معاً ، وعلى ذلك الابتهال الجميل الذى يوجه الى « النجوم والضوء » فى أغنية الاطفال الثلاثة — البنيديسيت — Benedıcite — تلك الاغنية التى أحسن

(١) جاء فى الاصحاح الخامس والستين من سفر أشـعياء — « لأنى هأنذا خالق سموات جديدة وأرض جديدة ، فلا تذكر الاولى ولا تخطر على بال . بل افرحوا وابتهجوا الى الابد فى ما أنا خالق » — وجاء فى الاصحاح السادس والستين من هـذا السفرعينه — « قال الرب كما يحضر بنو اسرائيل تقدمة فى إناء طاهر الى بيت الرب . واتخذ أيضاً منهم كهنة ولاويين . قال الرب لأنه كما أن السموات الجديدة والارض الجديدة التى أنا صانع تثبت أمامى ، يقول الرب هكذا يثبت نسلـكم واسمكم » .

الجمهور الانقليكانى (١) بان حافظ عليها فى طقوسة الدينية .

وظن آباء آخرون بان الاجرام السماوية محلات تسكنها الملائكة ، وأن الملائكة تحركها . أما الادريون — Gnostics — فقالوا بأنها كائنات روحانية تحركها الملائكة ، وأنها كفت عن أن تدبر حوادث الارض ، ووكل بها أن تشير اليها لاغير

أما البناء السماوى عامة فقد كان معتقد الكنيسة فيه قائما على ما جاء فى التوراة من القول بانه قبة صلبة القوام ركبت فوق الارض ، وأن الاجرام السماوية اضواء معلقة فيها . وظل هذا المعتقد زمانا ما ثابتاً فى روع الناس ، حتى لقد أعلن القديس « فيلاسطوريوس » — st Philastrius — فى مقاله المعروف عن الهرطقة (٢) ، أن انكار القول بان الله يجاب الاجرام السماوية من خزائنه كل ليلة ليعلقها فى السماء هرطقة صريحة . بل زعم بان أى قول مضاد لهذا فيه « انكار للمعتقد الكاثوليكى » . كذلك عاش هذا الزعم فى تلك النظرية المقدسة التى قام « قوزماس » — Cosmas — بترويجها وتثبيت دعائمها فى القرن السادس ، فانه بعد أن أيد نظريته فى الكون بآيات كثيرة استمدها من التوراة والانجيل ، وبعد أن جعل العالم عبارة عن علية

(١) اتباع الكنيسة الكاثوليكية فى انجلترا الدين فضلوا سلطة الملك ومجلس الامة على السلطة البابوية ، ولفظة anglican بهذا المعنى من مصطلحات القرن السادس عشر . (٢) الهرطقة البدعة فى الدين والشيعة يونانيتها هرسيس ومعناها الأخذ والتمسك . وهى من مصطلحات النصارى . وربما قالوا اراتقة . (محيط المحيط م ٢ص ٢١٧٢)

مستطيلة الشكل ، عظيمة القدر ، مغطاة بتلك القبة الصلبة ، عمد الى التوراة يستمد من نصوصها ما يعلل به حركة الاجرام ، فكون نظرية أن الشمس والسيارات انما تتحرك ، وأن « نوافذ السماء » انما تفتح وتغلق لهذا الغرض ، بايدى ملائكة وكل اليهم تدبير هذا الامر كله .

أما ما كتب « القديس إزيدور » — st- Isidore أكبر رائد للفكر الاورثوذكسى فى القرن السابع فشديد الدلالة على مقدار ما ثبتت هذه المزاعم فى روع الناس . فقد مضى معتقداً بأنه منذ خطيئة الانسان الاولى ، وبناء على هذه الخطيئة ،قلت الاضواء التى كانت تنبعث من الشمس ومن القمر ثم حاول من بعد ذلك أن ينبت بنصوص استمدها من سفر « أشعياء » — Esaiah — أن الانسان متى خلص من أكدار هذه الخطيئة ، فان الشمس والقمر سوف تعود اليهما اضواؤهما التى فقداها بخطيئة الانسان ، وسوف يظهران كما كانا من قبل ، بكامل عظمتهما وجلالهما ، ورائع بهائهما . غير أنه على الرغم من أقوال هؤلاء الثقاة ، وما بشروا به من الغائيات اللاهونية ، فان نشوء الفكرة العلمية لم يعقه عائق ، ولم يصده صاد ، عن الانبعاث فى سبيله المحتوم ، وقد فرخت جراثيم تلك الفكرة حول « النظرية الجيوسنترية » Geocentric theory وهى النظرية القائلة بان الارض مركز النظام الكونى ، وأن الشمس وبقية السيارات انما يدرن من حولها .

ظلت هذه النظرية زماناً مديداً حائزة لاكبر قسط من الاحترام والمنزلة فى الصدور . فانها نشأت منذ أزمان موغلة فى القدم ، وظل

العقل الانسانى عاكفاً على تأييدها ، لانها اقرب النظريات انطباقا على حركات الاجرام السماوية الظاهرة للعين المجردة . وقد زادت تسميتها « بنظرية بطليموس » الى قيمتها ، وضاعف من خطرها . ومن أجل أنها ورثت عن العالم القديم ، ونقلت عنه الى العالم المسيحى ، مضى « القديس كليمانت » — st-Clement — الاسكندرى يعززها فقال بأن المذبح الذى يوضع عادة فى الهيكل اليهودى انما هو « رمز للارض ووجودها فى وسط الكون » . ولم يحتج إذ ذاك الى شىء أكثر من هذا لتصبح النظرية « الجيوسنترية » معتقداً مستفاداً من معتقدات الكنيسة ، لانها « تلائم ظاهر التوراة وتتمشى مع روحها »

على هذا الاساس نفسه قامت نظرية مقدسة أخرى فى حقيقة الكون خلال العصور الوسطى ، حتى لقد اعتبرت أثمن كنز تحويه خزائن الكنيسة العظمى. وزعم أنها آخر ما نزل به الوحى فى حقيقة العالم على أن هذه النظرية لم تقم فى الواقع الا على شتات من النظريات الكونية التي راج فى بلاد الكلدان القديمة سوقها ، ومن ثم بثت فى تضاعيف التوراة العبرية .

قام بترويج هذه النظرية ثلاثة من فحول الرجال . أولهم ذلك الرجل غير المعروف الذى كتب تلك المقالات التى تنسب عادة الى « ديونسيوس الاريوباغيطى » — Dionisius areopagite — وسرعان ماشاع الاعتقاد بان هذه المقالات من منتجات ذلك الآثينى [1] الذى آمن بتبشير « القديس بولص » — st paul — ومن ثم بأنها من عمل

(١) هو ديونسيوس الاريوباغيطى .

« القديس بولص » نفسه . على أن هذه المقالات على الرغم مما ظهر من البراهين الناصعة على أنها منتحلة مدسوسة على الذين نسبت اليهم ، فانها اعتبرت ، في عهد ذيوعها ، من كنوز الوحي والالهام ، حتى لقد أرسلها امبراطور شرقي الى امبراطور غربي ؛ كأثمن ما يهدى ، وأجل مايمنح . وفي القرن التاسع ذاعت تلك المقالات في غربي أوروبا ذيوعا كبيراً ، فاصبحت منبعاً فياضاً ينضح بصور الفكر ، وعلى الاخص في حقيقة النظام السماوي . وبهذا تضخمت الفكرات القديمة التي ذاعت في علم الفلك وانتفخت ، الى حد أن رتبت كوكبات السماء ، بل سميت ، على مقتضى الاشارات التي تناثرت بين دفتي الكتاب المقدس .

اما ثاني أولئك العظماء الذين أشرنا اليهم فهو « بطرس لومبارد » — « peter Lombard » — الذي كان استاذاً في جامعة باريس . فانه في أواسط القرن الثاني عشر اذاع مجموعته التي أسماها « الجمل » — Sentences جامعاً فيها أقوال آباء الكنيسة ، فظلت هذه المجموعة أثبت متن للاهوت حتى نهاية العصور الوسطى . وفيها عنى عناية خاصة بأمر تلك الفكرة اللاهوتية التي تكونت حول علاقة الانسان بالكون المحيط به فقضى بانه — « كما أن الانسان قد خلق من أجل الله ، أي من أجل أن يخدمه ويخضع له ؛ كذلك لم يخلق الكون الا من أجل الانسان ؛ أي من أجل أن يسخرله ويقوم بخدمته . وعلى هذا ينبغي أن يوضع الانسان في مركز الكون الاوسط ، حتى يستطيع أن يخدم الله ، وأن يسخر الكون لخدمة نفسه » .

اما مقدار ما كان في هذه النظرية من خطر ، وما احتوت من قوة ،

صارعت علم الفلك اليقيني ، فذلك ماسوف نعود الى الكلام فيه ، وعلى الاخص لدى الكلام فى عصر « غاليليو » — Galileos

أما آخر حلقة من ثالوث هؤلاء المفكرين فانتهت بالنابغة القديس « توماس اكونياس» — st Thomas Akiunas ، ذلك القديس اللاهوتى ، فخر الكنيسة فى العصور الوسطى والحكيم الانجيلى (١) ، الذى حاز أكبر عقل جادت به الطبيعة على انسان منذ عصر ارسطو طاليس حتى عصر « نيوتن » — Newton — هو ذلك الرجل الذى اعتقد أهل زمانه بان شبح المسيح مصلوبا قد تحدث اليه بكلمات عبر بها عن اعجابه بما خطت يراعته . كان كبير العقل ، صلب القناة ، حاد الطبع ، غير انه كان عادلا ، بل أكثر من عادل ، فى تقدير معارضيه ، واحترام مناظريه . أخرج فى النصف الاخير من القرن الثالث عشر موسوعته اللاهوتية — Summa Theologia — وفيها توسع فى شرح النظرية المقدسة فى الكون بما بلغ بها النهاية والتمام . ولقد استطاع بما أعطى من قوة العقل والقدرة على التعبير فى أبسط الاساليب ، أن يطبق تلك النظرية الكونية الفجة ، من الوجهتين المادية والروحية ، على العلاقات الواقعة بين الله والناس .

على هذه الصورة بنيت تلك النظرية الكبرى مصبوبة فى ذلك القالب الذى كونته عقول ثلاثة من رواد الفكر الانسانى فى العصور الوسطى . وعقب عليهم ذلك الرجل الفذ بل النابغة الاوحد ، الذى

(١) الطبيب الملكى — نسبة الى الملائكة — أو الحكيم الانجيلى ، نعتان للقديس توماس اكويناس .

استطاع أن يغذى دوحة ذلك المعتقد بما جعل جذورها القوية تمتد الى أبعد أغوار الفكر الاوروبى ، ذلك الشاعر الذى أمده الوحى القدسى بتأييد جعل به تلك النظرية جزء من حياة العالم الحاف به ، فالسماوات العايا — عليون — والاسماء المتراكزة — ذات المركز — والجنة والمطهر وجهنم ، قد صورتها عبقرية الشاعر « دانتى » — Dan'e — تصويراً جعل الناس يرونها بعين الخيال ، كأنهم يرونهـا بعين الحقيقة . تخيلوا الله فى توحيده الا الوثي مستوياً على عرشه فوق دائرة الفلك، كأن ذلك كان حقيقة واقعة ، كما يروا البابا مستوياً على عرش القديس « بطرس » ، وتخيلوا سيراف والكروبيم (١) والملائكة المزدوجة الاجنحة التى تمثل حملة عرش الله ، يحوطون الواحد القهار ، كما يروا الكرادلة من حول البابا فى أبهته وعظمته . وتصوروا الدرجات الثلاث التى تنزلها الملائكة فى السماء ، كما يروا الدرجات الثلاث التى ينقسم اليها رجال الكنيسة من أساقفة وقساوسة وشمامسة فوق الارض ، ورأوا فى مجموعة النظام الجرمى ، وفى دورة كل جرم من الاجرام فى دائرة فلك الجرم الذى يعلوه ، وفى دورة الكل من حول الارض ، مع خضوع ذلك النظام لارادة « المحرك الاول » primum mobile — كما يروا النظام الاقطاعى فى غربى أوروبا وفى خضوع كل ذوى الاقطاعات للامبراطور الاعظم .

---

(١) من الاصحاح السابع والثلاثين من سفر اشعياء — « وصلى حزقيا الى الرب قائلا — يا رب الجنود إله اسرائيل ، الجالس فوق الكروبيم ، انت هو الاله وحدك لكل ممالك الارض » .

ولننظر الآن فى ذلك الوهم الأكبر ، وهو أعظم ما كونت الفكرة اللاهوتية فى تاريخ الدنيا ، نظرة أدق وأعمق .

أن أول ما يلقى فى روعنا هو أن نظام الكون المقدس ليس سوى تفصيلا لما أضمرت ، وتصخيما لما صغرت ، تلك الفكرات اللاهوتية التى راجت فى الازمان الاولى . فلم تصبح الارض ذلك السهل المنبسط المحوط بأربعة جدران تعلوها قبة صلبة القوام ، كما اعتقد لاهوتيو القرون الاولى تحت تأثير « قوزماس » ، ولم تمس قرصاً منبسطاً تعلوه الشمس والقمر والنجوم لتمده بما يحتاج اليه من ضوء ، كما صورها فنانو الكاتدرائيات الاولى ، بل أضحت كرة كائنة فى وسط النظام الكونى ، يحيط بها عدة أفلاك كروية شفافة تديرها الملائكة حول محورها ومن حول الارض ، وكل منها يحوى جرماً أو اكثر من أجرام السماء . فالاقرب فلك الارض ويحمل القمر ، ومن بعده فلك عطارد ثم فلك الزهرة ثم فلك الشمس ، ثم الثلاثة التى تلى هذه وهى فلك المشترى وفلك المريخ وفلك زحل . والفلك الثامن يحوى النجوم الثوابت ، والتاسع هو فلك « المحرك الاول » — pr'mummobi'e — ويحوى الكل الفلك العاشرة ، أو فلك عليين ، وهذا غير متحرك ، وهو الحد الفاصل بين الخلق الكونى المنظور وبين الخلاء الخارجى اللامتناهى . وهنالك فى ضوء يخطف البصر ولا يستطيع أحد الدنو منه ، يستوى الله فى وحدته الثالوثية فوق العرش حيث ترتفع اليه « موسيقى الافلاك » اذ هي تتحرك . وعلى هذا

ترى أن الفكرة الوثنية فى حقيقة الافلاك قد انقلبت الى فكرة مسيحية ، منبثة فى تضاعيف الدين النصرانى .

ويقوم على خدمة « الجلالة القدسية » فوق عرشها العظيم ، جماعات من الملائكة وافرات العدد ، تنقسم فى ثلاث منازل أو درجات فالجماعة الاولى تقوم بالخدمة فى عليين ، والثانية فى السماوات ، أى بين عليين والارض . والثالثة فوق الارض نفسها .

وكل من هذه المنازل تنقسم الى ثلاث مراتب : الاولى تتضمن مراتب سيراف والكروبيم والملائكة المزدوجة الاجنحة التى تمثل حملة العرش . والمهمة التى يقوم بها هؤلاء هو الغناء المستمر وترتيل الحمد الدائم لله . اما حملة العرش فنوط بها حمل ارادة الله الى الدرجة الثانية التى يخدم أفرادها فى الافلاك المتحركة . وهذه الدرجة الثانية تتكون من ثلاث مراتب . الاولى مرتبة الدومنيون ، وهي التى تتلقى الاوامر الالهية . والثانية مرتبة القوات التى تحرك الافلاك كالشمس والقمر والسيارات والنجوم وتفتح نوافذ السماء وتغلقها ، وتدبر كل الظاهرات السماوية الاخرى . والثالثة مرتبة الحفاظ وغيرهم

أما الدرجة الثالثة ، وهى أسفل الدرجات الملائكية ، فتتكون من ثلاث مراتب أيضاً . الاولى مرتبة الرؤساء وفيها حفظة الامم والدول . وبعدها مرتبة رؤساء الملائكة . وهؤلاء يقومون على حفظ الدين ويحملون ابتهالات القديسين وصلواتهم الى أعتاب عرش الله ، والثالثة الملائكة العاديون وهؤلاء يوكل اليهم امر العناية بالاشياء الارضية عامة ، ويناط كل منهم بواحد من أبناء آدم ، ويناط آخرون

بالحرص على صفات النباتات وأنواعها ، ثم المعادن والاحجار وما شابه ذلك . وفى خلال هذا النظام كله ، من عرش الله الموحد الثالوث الى أحط مراتب الملائكة ، تجد اسطورة القوة والتأثير المنسوب الى « المثلث » ذلك الشكل الهندسى البسيط ، والى العدد « ثلاثة » . وهى بذاتها تلك الاسطورة التى أوحت بفكرة التثليث لواضعى اللاهوت الهندى القديم ، ومنها نشأ معتقد التثليث عند قدماء المصريين ومن ثم نقلت هذه الهبة اللاهوتية الى العالم المسيحى . وعلى الاخص من طريق « اتناسيوس » — Athnasius — المصرى

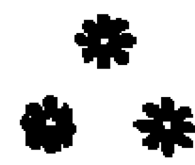
ومن تحت الارض تكون جهنم . وهى مثوى الملائكة الذين عصوا وثاروا تحت إمرة « إبليس » ، أمير سيراف ، وصفى الله من قبل . ولكن من بين أولئك العصاة فئة لاتزال ترود أفلاك السيارات وتسبب للملائكة المطيعين المنيبين ألما وعذابا . فى حين أن غيرهم يغشون جو الارض فيرسلون عليها الصواعق والزوابع والقحط والجليد . وغير أولاء وهؤلاء عصبة خصت باغراء الجماعات الارضية يدفعونها الى ارتكاب الرزائل والآثام . اما الاستاذ « بطرس لومبارد » والقديس « توماس اكويناس » فقدجهدا نفسيهما كل جهد ؛ لكى يثبتا أن عمل هذه العصبة الشيطانية إنما يقصد به تنظيم أعمال الانسان ، وتحديد العقوبات التى يستحقها العصاة تحديداً صحيحاً ، وعلى قسطاس مستقيم .

كل هذا النظام العظيم قد دس على المذهب البطليموسى باحكام كبير ، حيث استعان الآباء فى سبيل ذلك بالمتون الانجيلية وباسلوب التفكير اللاهوتى ؛ ولم يكن لذلك من نتيجة اللهم الا الاعتقاد بان نظام

الكون على هذه الصورة قد أصبح غير قابل للتعديل ولا التحوير ، وأنه غائى لاسبيل الى ادحاضه ، وأن القول بما يضاده أو تعمد نقده ، هرطقة صريحة وكفر بالله .

وظل هـذا النظام ثابت الدعائم قروناً عديدة . حتى أن كثيراً من جهابذة اللاهوتيين مثل «فنسنت بوفييه » —Vincent of Beauvais— والكردينال « دايلى » — cardinal d' Ailly — قد وقفا كل جهدهما ليظهرا أن هذا النظام تعززه نصوص الكتاب المقدس ، لا بل ليثبتا أنه يزكى التوراة والانجيل .

وعلى هذا ترى أن « النظرية الجيوسنترية » قد امتدت أصولها الى صميم النصرانية ، بل الى أعمق معتقداتها وآمالها ومخاوفها ، وظلت كذلك حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى .



١ — النظرية الهليوسنترية

نشوؤها فى العقل اليونانى — فيثاغورس —فيلولاوس—ارسطارخس — مصادرتها بحجة الكفر بالله والتجديف — احتجابها ستمائة سنة ، ثم الف أخرى — احياؤها من طريق نيقولاوس دى كوزا ونيقولا كوبر نيكوس — تسامح الكنيسة ازاءها باعتبارها نظرية فرضية — تحريمها بمجرد قيام غاليليو بتعليمها على أنها نظرية صحيحة — خوف الباحثين من بعد ذلك — اكوستا — آبيان — البروتستانت ليسوا باقل حماسة فى مقاومة النظرية من الكاثوليك — لوثر — ميلانكتون — كالفن — تريتان — شدة المعارضة فى انجلترا — هتشنسون — هورن — هورسلى — فوربس — أوين — وبزلى — التدخل فى حرية التدريس — جرأة جيوردانو برونو وخاتمته — منظار غاليليو يظهر الحق عياناً .

***

منذ عهد عهيد ، فرخت فى العقل الانسانى جراثيم « النظرية الهليوسنترية» Hel ocentric theoiy أى النظرية القائلة إن الشمس مركز النظام الكونى . ففى القرن السادس قبل الميلاد قال « فيثاغورس » — pythagoıas — ومن بعده « فيلولاوس » — philolaus — بنظرية أن الارض والسيارات انما تدور من حول « نار مركزية » . ومن بعد ذلك بثلاثة قرون عمد « أرسطارخس» — aristarchus — الى تقرير هذه الحقيقة بكثير من دقة التدليل وقوة البرهان . وفى ذلك حجة ناهضة على أن تنازع البقاء بين الاسلوبيين ، اللاهوتى والعلمى ، غير قاصر على النصرانية . فان ماقرره « أرسطارخس » من حقائق العلم كان سببا

فى أن يرمى بتهمة الزندقة والكفران، فغشيت سماء العلم غمامة كثيفة من الحقد والكراهية حجبت أنواره ستة قرون أخرى . ولم تلمع شمس هذه الحقيقة مرة ثانية فى سماء الفكر الا فى القرن الخامس من التاريخ الميلادى، حيث ظهرت فى تأملات «مارتيانوس كابيلا» Martianus capella غير أن أضواءها حجبت ثانية وظلت محجوبة ألفاً من السنين، حتى أشرقت ثانية فى غضون القرن الخامس عشر، ولكن واهنة ضعيفة، فى عقل الكردينال «نيقولاوس ده كوزا» Nicolas de cusa منبثة فى تضاعيف ما ألف من أسفار .

غير أن ذلك النظام الكبير الذى أنبتته عقول عظماء اللاهوتيين ؛ وعضدته تلك الصيحات العالية التى انبعثت من قلب «دانتى» ؛ قد أثرت فى نشر هذه الفكرات الصحيحة تأثيراً أعاقها عن أن تنمو، وأن تؤتى أكلها .

ولقد أخذت عناصر العقل الانسانى تزداد خصباً، وفراغه يزداد امتلاء . فان الاساليب التى اعتمدت عليها الرياضيات كانت قد مضت فى التهذب والارتقاء، وأخذ النظر يمتد من خلال العدسات الزجاجية الى الاجرام السماوية . وما بلغ العقل الانسانى هذا المبلغ ؛ حتى ظهر فى منقطع العمران الاوروبى وعلى حدود «بولاندا» طالب من طلاب العلم واسع النظر طيب القلب، أمكنه بما وهب من كفاءات أن يبشر للعالم الحديث بالحقيقة الناصعة — تلك الحقيقة التى نراها اليوم ضرورة أولية وكانت اذ ذاك من المدهشات الخارقة للقياس — حقيقة أن الشمس لاتدور من حول الارض ؛ بل ان الارض وبقية السيارات هن اللائى

يدرن من حول الشمس . ذلك الطالب هو « نيقولا كوبرنيكوس »
N colas copernicus

كان « كوبرنيكوس » استاذا فى « روما » وقد أعلن نظريته هذه هنالك منذ سنة ١٥٠٠ ، ولكن بطريقة تشعر بأنها غريبة من غرائب العلم ، أو أنها قول من الاقوال التى يناقض ظاهرها الحقائق الواقعة ، كما كان شأن الكردينال « ده كوزا » لدى الكلام فيها من قبل ، فلم يروجها بين الناس على اعتبار أنها مذهب علمى يعبر أصح تعبير عن حقيقة من حقائق الطبيعة العظمى . وبعد ذلك بثلاثين عاما قام « ودمانستاد » ـ wedmanstadt ـ احد تلاميذ « كوبرنيكوس » يشرح هذه النظرية للبابا « كليمان السابع » . ولكنها ظلت حتى ذلك العهد عبارة عما لا يخرج عن حيز الظن والتخمين ، وسرعان مانسيت هذه النظرية وأسدلت عليها أستار كثيفة من نزعات ذلك العصر . غير أن « كوبرنيكوس » لم ينسها ، وظل يدرسها درساً عميقاً ، فكان كلما استعمق فى درسها أخذت أنوار الحقيقة تشع فى عقله شيئاً فشيئاً ، حتى تصور أن حمل هذه الحقيقة الكبرى فى طيات عقله وبين نياط قلبه ، لا يتفق مع ما يطلب من الأمن والسلام فى جو « روما » المفعم بالتعصب ، المملوء باستبداد التقاليد . ولعله أيقن بأن اعلان هذه الحقيقة على انها نظرية تخمينية أو على أنها زعم يناقض ظاهرها الحقائق الواقعة ، قد يمكن أن يكون شيئاً يلهو به رجال البلاط البابوى . أما اعلانه إياها على أنها حقيقة ، بل على أنها الحقيقة ، فأمر يخالف الاول مخالفة تامة . لهذا تراه يعود أدراجه الى قريته الصغيرة من أطراف « بولاندا » تارة أخرى .

وكان على يقين من أنه نشر فكرته هذه كما تكونت فى عقله اذ ذاك ، أمر لا يخلو من خطر ماحق ، حتى فى قريته المنعزلة عن عمران العالم الاوروبى . لذلك ظلت هذه الفكرة ثلاثين سنة أخرى ؛ جاثمة فى خلايا عقله الكبير وفى عقول أولاء من أصحابه الاخصاء ، الذين أفضى اليهم سراً بما كان يوحى اليه به ذهنه من آيات الحق الثابت .

وكانت النتيجة أنه أتم كتابه الكبير « حركات الاجرام السماوية» Revola'iono of the Hevenly Bodıs وأهداه الى البابا نفسه . وفكر من بعد ذلك فى مكن يستطيع أن ينشر فيه كتابه . فلم يجرأ أن يرسله الى روما وهنالك تجمع عصابة من رءوس الكنيسة القديمة مرتقبون لمصادرته . ولم يستطع أن يرسل به الى « ويتنبرج » — Wıttenburg — وهنالك رءوس البروتستانت . وما كانوا فى ذلك الزمان بأقل عداء لحقائق العلم من زعماء الكثلكة . لهذا عهد بالكتاب الى رجل يدعى «أوسباندر» — Osıander — فى نورمبرج .

غير أن شجاعة « أوسياندر » خانته . ولم يستطع أن ينشر الفكرة الجديدة بما يحتاج اليه ذلك العمل من إقدام وبسالة . فكتب مقدمة دنيئة حاول أن يعتذر فيها عن « كوبرنيكوس » تلقاء فكرته هذه ، بل اختلق عليه من الفكرات ما خيل اليه أن يكون عذراً مقبولا ، فقال بان « كوبرنيكوس » لم يحاول نشر هذا المذهب على أنه الحقيقة ؛ بل على أنه مجرد نظرية تخيلية لاغير ؛ معلنا أنه مما لا يخرج عن طوق القانون أن يهيم فلكى مع موحيات خياله وتصوره ؛ وأن

مثل « كوپرنيكوس » فى كتابه لا يخرج عن هذا

وعلى هذا ترى أن أعظم الحقائق العلمية شأناً ، بل أكبر ما كشف العقل الانساني من نظام الطبيعة خطراً وجلالا ، تلك الحقيقة العظمى التى تسمو بالدين بقدر ما تسمو بالعلم ، لم تخترق طريقها الى عالم المعرفة الانسانية الا متسللة خفية ، دابة دبيب الزواحف بين عقبات من العقائد الزائفة ، وأشواك من التقاليد

فى الرابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٥٤٣ ، وصلت أول نسخة من الكتاب مطبوعاً الى حيث كان يقيم « كوپرنيكوس » ولما أن وضعت النسخة بين يديه كان الجهبذ الكبير محتضراً على فراش الموت . وبعد بضع ساعات كان بعيداً عن هذا العالم ـ بل بعيداً عن أن تصل اليه أيدى أولئك الاتقياء الذين ربما كانوا قد هدموا مجده هدماً ، واذاقوه الموت ألواناً ، لو لم تعجل به الى العالم الثانى خطاه

غير أنه لم يكن بعيداً عن أن تناله الايدى الفاجرة بأثمها . فان الموت نفسه لم يكف لان يكون حجاباً يحجب عنه الاذى والكفران. والظاهر أنهم خافوا أن ينزلوا العقاب المادى بالجثة الهامدة ، فاكتفوا بان لا يذكر على شاهد قبره شيئاً عن جهوده العظيمة التى بذلها فى حياته ، ولا أن يشار بحرف واحد الى استكشافه العظيم ، وأن ينحت على قبره دعاء قال فيه واضعه — « اللهم انى لا أسألك غفرانا كما غفرت لبولص ، ولا احسانا كما أحسنت الى بطرس ، ولكن اسألك ان تنعم على كما انعمت على اللص وهو معلق فوق صليب الاعدام » . ومضى

على ذلك ثلاثون عاماً ، تجرأ بعدها صديق من اصدقائه ، ان يحفر على قبره تذكاراً يشير الى استكشافه العظيم .

ان المقدمة التى وضعها « أوسياندر » والتى ادعى فيها أن « كوبر نيكوس » قد أذاع ماأذاع على أنه نظرية تخيلية ، لاعلى أنه حقيقة يؤمن بها ، قد أدت الى كل ماخيل اليه أنها سوف تؤدى اليه . فقد قطع رءوس الكنيسة من الزمان حقبة لايقل مداها عن السبعين عاما وهم يفضلون أن لايثيروا من حول الكتاب عجاجة ؛ حتى لقد استطاع أساتذة من أمثال « كالجانينى » – Calganini – أن يلقنوا المذهب الجديد على أنه نظرية فرضية . وعلى الرغم من أن اللغط كان كثيراً مايرتفع من حول هذا الاستكشاف فى الدوائر اللاهوتية بين حين وحين ، فان الرجل لم ينفجر الا فى حدود سنة ١٦١٦ . ذلك لان المذهب كان قد تركز فى عقل « غاليليو » العظيم ، فاعتقد أنه حق ، وأن لاحق غيره ، وأخذ يذيعه ويدفع عنه ، بل مضى يبرهن على أنه حق مستعيناً بالتلسكوب ، فصادرت الكنيسة الرومانية الكتاب ، على اعتبار ان كل ما قرره كوبرنيكوس فى كتابه لا ينال رضاها ، او يصحح بما يوافق مشتهياتها . ولم يكن ذلك التصحيح عندئذ الا الرجوع عن الحق الثابت الى تلك الخيالات الوهمية التى كانت تدعى ظلما بنظرية « بطليموس »

ولا ينقصك على انهم لم يقصدوا بالتصحيح سوى هذا النكوص من دليل ، فلديك الادلة ناطقة فيما اتوا من فعل فى ذلك العام الذى منع فيه « غاليليو » عن ان يلقن علم الفلك او يناقش فيه مستعينا بقواعد

« كوبرنيكوس » ، وعند ما حظروا ذيوع كل كتاب يبشر بدوران الارض . وعلى هذا أصبحت قراءة كتاب « كوبرنيكوس » إثم لا يوازيه من عقاب سوى اللعنة الابدية ، وقبل الناس أن يعضوا لهذا القرار خاضعين مطرقين مقنعي رؤوسهم

لهذا خضعت أكبر العقول وأرشد الاحلام . فانهم وان لم تطاوعهم موحيات عقولهم على أن يؤمنوا بالنظام القديم ، فلا أقل من أن يتظاهروا بأنهم به مؤمنون . ولقد حدث هذا حتى بعد أن فتح الطواف حول الارض للعيون منفذا تنفذ منه الى الحق ، وفرجة ترى منها سبيل الرشاد . ومهما يكن من أمر فان مثل المبشر اليسوعي « يوسف أكوستا » — Jo eph c.sta — لمثل رائع . فان كتابه (تاريخ جزر الهند طبيعياً وأدبياً) ، الذى نشر فى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، قد هدم كثيراً من القواعد التى كان يرتكز عليها عديد وافر من الاخطاء الفلكية والجغرافية . ففى ذلك الزمان الذى قنع فيه العقل بالنقل ، ومضى مسبتاً لتقاليد ، أوحى ذلك المبشر لاهل الارض بحقائق من العلم أمعن فى التبشير بها الى أبعد حد ذهبت اليه شجاعته ، وانتهت بسالته ، غير أنه ارتد ازاء حركة الاجرام السماوية محافظاً محضاً ، اذ أعان فى غير رهبة ولا خجل انه ـ (رأى بعيني رأسه القطبين اللذين تدور عليهما السماوات كما تدور الرحى على قطبيها » .

عاش فى أوروبا فى ذلك العهد رجل واحد هو (بطرس آبيان) — Peter apian ـ كان فى مستطاعه انه يخدم قضية العلم ، وان يصد تيار

تلك الفكرات البعيدة عن حكم العقل ، النازلة على حكم الهوى والتقليد ، والتى كان من شأنها ، ان ظلت متدافقة ، ان تذهب بكثير من عظماء الرجال من ميدان التفكير العلمى الصرف ، كما تكتسح كثيرين من أحضان النصرانية . كان « آبيان » رياضياً عظيماً ، وفلكيا ثبتاء فى عصره . ولقد اهلت به مواهبه وكفاياته ، لان يصبح معلما فى الفلك للامبراطور « شارل الخامس ». Charles V ـ وكان مؤلفه فى الجغرافية سبباً فى أن يذيع صيته ، ويرتفع ذكره ، كما كان مؤلفه فى الفلك طريقا تنسم منه مراتب الشرف . أما ما أدخل على الرياضيات من الاساليب المستجدة ، وما اخترع فى خدمة علم الفلك من آلات ، فقد نال به ثناء « كبلر » ، كما تبوأ به مكانة فى تاريخ العلم لا يمحو ذكرها كر الدهور ، وتلاحق العصور . ولقد أتيحت له فرصة كان من الواجب أن ينتهزها لكى يؤدى بها للانسانية خدمة لم يؤدها . فانه لما ظهر كتاب « كوبرنيكوس » كان « آبيان » فى أوج العظمة والقوة . وان دفاعا يكتبه « آبيان » فى هدوئه وصادق يقينه ، حتى لو كان المقصود به معروف يسدى ، أو ظلم يمنع ، لمن المحقق أن يثمر وأن ينتج نتاجا . وكان من الواجب على تلميذه الصادق الود له ، شارل الخامس ، وهو على عرش المانيا واسبانيا معا ، أن يصغى لقولة يقولها ، وان يصيخ لدفاع يتحرك به قلمه غير أنه لسوء الحظ كان استاذاً فى معهد خاضع لاقسى التقاليد الكنسية . ذلك المعهد هو جامعة « أنجولستاد » ـ Engolstadt ـ وكان من أول واجباته أن يلقن مبادىء العلم « السلمى » ويقصد بذلك عدم الخروج بالعلم عن نطاق ما ينص عليه الكتاب

المقدس كما فسره اساتذة اللاهوت . فاضاع بذلك « آبيان » فرصة كان من الواجب ينتهزها ليدفع عن حقائق العلم ظلم الجهالة والعتو . ومضى هذا العلامة يلقن مبادىء علم الفلك على حسب نظرية «بطليموس» وحسب موحيات« الاسترولوغيا » . وظل أزاء نظرية «كوبرنيكوس» محايداً ، لا مؤيداً ولا منكراً ، بل ظل صامتاً . أما الاسباب التى أدت الى صمته العميق وقبوعه فى قاعة محاضراته ساكتاً ، فلن تنسى ، ولن يغفل عنها باحث فى تاريخ العلم ، طالما ادعت أية من الكنائس أن من حقها أن تتحكم فى برامج التعليم فى الجامعات .

وما من شك فى أن الكثيرين من الجائز أن ينحوا على الكنيسة الرومانية باللوم من أجل هذا . ولكن الحق أن البروتستانت لم يكونوا بأقل تحمساً فى العمل ضد مبادىء العلم الحديث مما كان اضدادهم . فكل فروع الكنيسة البروتستانية ، لوثريون ، وكلفينيون ، وانغليكانيون ؛ قد تكاتفوا على مقاومة المذهب « الكوبرنيكى » وهم معتقدون أنه مناقض لنصوص الكتاب المقدس . وأخيراً انضم اليهم البيوريتانيون ـ Puritans — سالكين مسلكهم متتبعين خطاهم

قال مارتن لوثر ـ « يصغى الناس الى منجم مأفون يحاول أن يثبت أن الأرض تدور ، وليس كذلك السماوات والافلاك والشمس والقمر . ولا جرم أن كل من يريد أن يحوز شهرة اللباقة والنهى ؛ يحاول أن يبث مذهباً جديداً زاعماً انه أصح المذاهب وأصدق الحقائق . غير أن هذا الممسوس يريد اليوم أن يقلب قواعد علم الفلك رأساً على عقب

فى حين أن نصوص الكتاب المقدس تدل على أن « يوشع » قد أمر الشمس أن تقف ، ولكنه لم يأمر الارض »

أما« ميلانكوتون » ـ Melanckoton ـ فان وداعته قد حالت دون أن يقتفى خطوات« لوثر » فى أن يرمى « كوپرنيكوس » بالكفر بل قال فى مقالته المعروفة بعنوان عناصر الفوسيقى ـ Tle Elements of physics ـ والتى طبعت بعد موت « كوبرنيكوس» بستة أعوام مانصه·

«إن أبصارنا تشاهد السماوات تدور فى مدى أربع وعشرين ساعة · غير أن أناساً دفع بهم حب التبشير بالجديد ، أو حب الشهرة ، قد أذاعوا أن الارض تتحرك ، وأنه ليس كذلك الفلك الثامن ولا الشمس . أما إذاعة مثل هذه المبادىء علناً ، وبثها فى الناس عياناً ، فليس من سمو الهمة ولا من الامانة فى شىء ، لان ذلك يعطى الناس مثلا خطراً مبغوض النتائج . والواجب على الرجل الذى يطلب الخير ، أن لا يحيد عن الحق كما أنزله الله فى كتابه وأن يخلد له » .

ومضى« ميلانكوتون » بعد ذلك ذاكراً مقطوعات من المزامير والمتون الكنسية ، رأى أنها تؤيد بجلاء وصراحة مذهب ان الارض ثابتة تماماً وأن الشمس تدور من حولها ، مضيفاً الى ذلك ثمانية براهين أخرى أيد بها زعمه ، مستخلصاً منها ـ « ان الارض لا يمكن أن تكون فى مكان ما لم تكن فى وسط الكون » . ولقد أمعن ذلك الرجل ، وهو فى نظرنا من أودع المصلحين ، فى القول بان من الواجب أن نفرض عقوبات شديدة تصد الذين يريدون أن يبشروا للناس بتعاليم « كوبرنيكوس » عن تبشيرهم ، ونزجرهم عن غيهم .

وبينما ترى أنصار المذهب « اللوثرى » قائمين يناوئون مذهب دوران الارض ، بل ويرمون كل مؤيد له بالكفر والهرطقة ، اذا بك ترى شعباً أخرى من شعب الكنيسة للبروتستانتية يتسابقون فى تلك الحلبة متناهيين . وتبوأ كالفن بكتابه «تعليقات على سفر التكوين » مكان زعامتهم ؛ إذ أعلن كفران كل من يقول بأن الارض ليست فى مركز النظام الكونى . وبدأ القول بالاشارة الى أول مقطوعة من المزمور التاسع والثلاثين ثم تساءل ـ« من من الناس يجرأ على ان يضع سلطة« كوپرنيكوس » فوق سلطة الروح القدس » . أما « تريتان » ـ Territin ـ خليفة « كالفن » المعروف ، فانه أذاع ، حتى بعد أن مكن « كبلر » و «نيوتن » لنظرية «كوپرنيكوس » و« غاليلو» وأتماها ووضعا لها قواعدها الثابتة ، مختصره اللاهوتى ، محاولا أن يثبت مستعيناً بكثير من نصوص الكتاب المقدس ، أن السماوات والشمس والقمر إنما يدرن من حول الارض ، التى هى ثابتة فى مركز النظام الكونى .

وانك لتقع فى انجلترا على مثل من ذلك الجهد اللاهوتى ، حتى بعد أن اثبتت التجاريب أنها جهود بائرة لا نتيجة لها. فان«هتشنستون» ـ Hutchinson ـ فى كتابه «مبادىء موسى » ودكتور «صموئيل بيك» ـ Dr Samuel pike ـ فى كتابه«الفلسفة المقدسة» و «هورن » Horn ـ والاسقف«هورسلى» ـ Horsely ـ والرئيس فوربس ـ President Forbes فى كتاباتهم الكثيرة ، قد قاوموا مبادىء نيوتن كل مقاومة ، بل هاجموها مستعينين على نقضها بنصوص الكتاب المقدس ، وكذلك

دكتور « جون اوين » John owen ـ وهو علم من أعلام المذهب البيورتيانى Puritanism فانه اعلن ان نظام « كوپرنيكوس » ليس بأكثر من خيال وفرض ، مناقض لنصوص التنزيل ». ولم تعد تلك القاعدة « جون ويسلى » John Wesley فانه اعلن ان الآراء الفلكية الجديدة ـ « انما تسوق الى الكفر والالحاد .

ولم يكن عوام البرتستانت بأقل من الكاثوليك حظًا فى اتباع مثل هذه التعاليم . فان أهل مدينة « البنج » — Elbing — قد اعتادوا أن يلهوا بمشاهدة رواية هزلية جعل فيها « كوپرنيكوس » موضع السخرية والاستهزاء . وكذلك سكان « نورمبرج » — Nuremburg — وهى من قلاع البروتستانت الحصينة . فقد صنعوا مدالية كتبت عليها عبارات خص فيها الفيلسوف ونظريته بأشد عبارات التهكم والازدراء .

اما السبب الذى حدى بالناس لأن يقفوا ذلك الموقف من « كوپرنيكوس » وتعاليمه ، فيتضح لنا جليًا اذا نحن عرفنا موقف حفظة العلم وخزنة المعرفة ، بروتستانت وكاثوليك ، فى ذلك العهد . فان موقفهم اذ ذاك يفسر لنا شيئًا من أصل تلك الدعوى العريضة التى يصيح بها محدثو اللاهوتيين زاعمين أن من حقهم أن يمضوا قوامين على التعليم العام ، وأن يظلوا قابضين على زمام الخطا التى يخطوها العلم فى نشوئه وارتقائه ، واختلاف متجهاته . ولقد كان لهم اهتمام كبير بما كانوا يسمونه « بالتعاليم السليم » من طريق « العلم السلمى » ، حتى إنك لتجد فى كثير من الجامعات ، حتى أواخر القرن السابع عشر ، اساتذة قروا على أن

يقسموا بأنهم لن يؤمنوا بالفكرة «الفيثاغورية» أى الكوبرنيكية — الخصيصة بحركات الاجرام السماوية . ولما أن اشتد أوار المعركة وتاظت نيرانها ، منع الاساتذة من أن ياقنوا تلاميذهم شيئاً مما كان يكشف عنه التلسكوب . وكانت تصدر الاوامر بذلك من السلطات الكنيسة إلى الجامعات فى «بيزا» «وانسبروك» ، ولوفان» «ودوى» — Douay . وسلامانكا وغيرها . وقدنرى أن رؤوس تلك الجامعات قدمضوا فخورين اجيالا متعاقبة بأن جامعاتهم ظلت بريئة من تلك الفكرات المضادة للوحى ، وأنها لم تلقى لطلابها . على أنه ليس فى سماعك أن هذه الأقوال كانت من مفاخر العلماء فى ذلك العهد من الغرابة ، بقدر مافى سماعك أن بعض السلطات القائمة على العناية بأمر التعليم فى اكبر الجامعات الحديثة تفخر بانها لاتشجع طلبتها على قراءة كتب« ميل » Mill « وسبنسر » . Spencer « وداروين » Darwin ولم تقتصر الجهود على أن يحتفظ بالمعاهد الكاثوليكية الرومانية سليمة من أن تغزوها هذه التعاليم لاغير ، بل انك لتعجب ، ويحق لك أن تعجب ؛ إذ تعرف أن الحقائق التى بثها« كوبرنيكوس » فى مذهبه، لم يعن معهد بأن تظل بعيدة عنه بقدر ماعنى معهد «ويتنبرج» — Wittenburg — جامعة «لوثر» و« ميلا نكوتون » .

فى أواسط القرن السادس عشر عاش فى «ويتنبرج» ، مركز الدعاية البروتستانتية ، فاسكيان كلاهما حاز شهرة واسعة وصيتاً بعيداً ، هما « ريتيكوس » ـ Rheticus ـ « ورينولد » ـ Reinhold ـ وكلاهما درس مذهب « كوبرنيكوس » واعتقد بأنه حق ، ولكن لم

يسمح لهما بأن يلقنا ذلك الحق الثابت لطلابهما . فلم يستطع «ريتيكوس» لا في محاضراته ولا في مؤلفاته التي نشرها ، أن يذيع المذهب الجديد . ولما ضاق بذلك ذرعاً ، ترك منصب الاستاذية في «ويتنبرج» حتى يتاح له أن يبحث حراً وراء الحقيقة ، وأن يذيعها . ولم يك «رنيولد» باسعد من زميله حظاً . فانه فضلا عن اقتناعه وإيمانه بصحة المذهب الجديد كان مقسوراً على ان يدافع عن القديم الفاسد ، وان يلقنه لطلابه، وكان مجبراً على ان لا يذكر الفكرات «الكوبرنيكية » الا لينصر عليها فكرات بطليموس . على انه لم يكن بذلك في مأمن من ان يناله الاذى . فقد عهد بتدريس علم الفلك في تلك الجامعة بدلا عنه الى استاذ غيره يدعى « بيوسر » peucer — سنة ١٥٧١ . وقد اعان حينذاك ان في هذا الاستاذ الجديد من حسن التقدير ، ورجاحة العقل قدراً ، حمله على ان يرفض نظرية كوبرنيكوس ، معلناً في محاضراته انها مناقضة لبديهة العقل وغير جديرة بأن تلقن في معاهد العلم .

ومن أجل أن تصبح تلك الفكرات « اللاعلمية » أكثر استقراراً في التعاليم التي كان يذيعها البروتستانت في المانيا ، وضع الكاهن «هنسل» — Hensel — مختصراً يدرس في دور العلم عنوانه « الرجوع الى النظام الموسوى في أصل الكون » أظهر فيه أن مبادىء «كوبرنيكوس» الفلكية مناقضة لنصوص الكتاب المقدس .

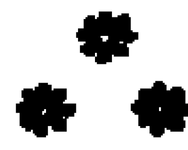
ولا شبهة في أن هذه الحملة الكبيرة كان لها أثر بعيد . غير أن صداها مازال يتجاوب في حقب الزمان حتى انتهى الى البروتستانتية الحديثة حيث رن ثانية في طرد السلطات المشيخية p esbyterian Authorities

— لدكتور وودرو — Woodrow — فى كارولينا الجنوبية ، وفى طرد السلطات الاسقفية الميثودية Methodist epi.copal Autharities للاستاذ « ونشل » — winchell — فى« تنيسى » — Tennessee — وفى طرد « السلطات العمادية » — Baptists — للاستاذ« توى » — Towy — فى كنتكى —Kentukey— وفى طرد الاساتذة من جامعة بيروت تحت تأثير السلطات البروتستانتية الاميركية . كل هذا لان هؤلاء الاساتذة الكبار ، لم يلغوا عقولهم ، وظلوا مستمسكين بما أوحت به تعاليم العلم الحديث . وعامة ذا وقع فى بضع السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر .

غير أن آيات الحق لم يكن من المستطاع اخفاؤها ، ولم يكن من الهين أن يهزأ بها أو تقتلع أصولها . فان كثيراً من كبار أصحاب العقول كانوا قد قبلوها ومضوا بمبادئها قانعين . الا أنه لم يكن فى أركان الدنيا الاربعة من استطاع أن يتفوه بها على مسمع من المقام البابوى سوى رجل واحد. كان هـذا المحارب الجديد ، ذلك الخالد الفانى « جيوردانو برونو » — Bruno — ومازالت الاقدار تشيل به من أرض وتهبط به فى أخرى ، حتى أعيي ؛ فلم يرجع الى الذين تعقبوه واصطهدوه الا وبيده وثائق مهلكة من التنديد والطعن المقذع رماهم بها كآخر سهم فى كنانته .لهذا حوصر فى مدينة البندقية وقبض عليه والقى فى أعمق سجون محكمة التفتيش فى روما ستة أعوام طوال ثم أحرق حياً ، وذريت مع الريح بقاياه الترابية.ومع هذا فان الحق لم يمت ، بل ظل حياً . ولم تمض

عشرة أعوام على استشهاد « برونو » في سبيل العلم ، حتى أثبت « غاليليو » بمنظاره ، ما في نظرية « كوپرنيكوس » كلها من حق ثابت .

على أنه في انتصار « غاليليو » لتحقيقا لنبوءة أخاذة بالالباب . فقد قيل لكوپرنيكوس قبل أن يموت بأعوام — « اذا كانت نظريتك صحيحة فان الزهرة لابد من أن ترينا من أوجهها ماير ينا القمر » — فاجابهم — « إنكم على حق . ولست أدرى ماذا أقول . ولكن الله رحيم . ولابد من أن يوحى اليكم يوما بما يمكن به الاجابة على ماتسألون ». على أن الله الرحيم زود المتسائلين بالجواب سنة ١٦١١ عند ما أظهر منظار « غاليليو » على ما كان فيه من نقص ، أوجه الزهرة لاعين الناظرين .



٣ — الحملة ضد غاليليو

تكشف القوى المحاربة حول البطل الجديد ـ الحملة الأولى ـ حملات جديدة ـ دالسى ـ بوساوس ـ كاكشينى ـ لورينى ـ بيلارمين ـ استخدام الالقاب ـ محاولات للاحاطة بغاليليو ـ متوله امام محكمة التفتيش في روما ـ امر غاليليو بالصمت وتحريم نظرية دوران الارض في سنة ١٦١٦ ـ وضع كتب كوبرنيكوس في الفهرست ـ انقطاع غاليليو عن الناس ـ تجدد الحملات ضد غاليليو ـ إنخوفر ـ فروماندس

حول البطل الجديد ، غاليليو ، اجتمعت كل القوات وتناصرت معانة عليه حرباً ضروساً . فان مستكشفاته قد خرجت بنظرية « كوبرنيكوس » من حيز الفروض والتخمينات الى حيث وضعت امام العالم كحقيقة عظمى . ولهذا ترى أن الحرب ضده كانت طويلة ممضة . فان انصار ما كان يدعى « بالتعليم السامى » قد أعانوا أن مستكشفاته لم تكن الا خداعاً ، وان تعاليمه تجديف وكفر بالله . ولقد عاضد الكنيسة اساتذة ، جل ما كان فيهم الدعوى والغرور ،هاجموا « غاليليو» بآراء آثمة دعوها « مبادىء العلم » . أما المبشرون فاستندوا فى حملتهم الى نصوص الكتاب المقدس ، كما هاجمه اللاهوتيون ورؤساء محكمة التفتيش ، ومجامع الكرادلة ، وأخيراً بابوان على التعاقب ، حتى ظن خطأ ان صوت « غاليليو » قد خفت ، وان تعاليمه قد زالت من عالم المعرفة الانسانية .

ولسوف أسوق الكلام فى هذه المعارك مطنباً ، لاننى لم اجد ، فى كل ما بحثت من الكتب التى نشرت فى اللغة الانجليزية ، تلخيصاً

جامعاً لمفصلاتها ، ولان تاريخ هذه المعارك لم يشع عليه من نور التاريخ شعاع صادق الا بعد ان اذيعت حقائق كثيرة ، ونشرت وثائق ذات خطر ، عن محاكمة « غاليليو » وكانت قد ظلت مطوية بين جدران الفاتيكان ، حتى طبعت لأول مرة بعناية « ليبنوا » — L'Epinoi سنة ١٨٦٧ ، ومن بعد بعناية « جابر » Gilbet و « برتي » Berti و « فافارو » Favarou — وغيرهم

قامت أول حملة ضد « غاليليو » سنة ١٦١٠ عندما أعان أزمنظاره استطاع أن يكشف للعين عن اقمار السيار «جوبيتر » أى المشترى .فان اعداءه قد رأوا أن هذا الاسكشاف قد خرج بنظرية « كوبرنيكوس » عن حيز الفرض والتخمين إلى حيز الحقائق؛ فلم يمهلوه ، بل ناصبوه العداء سراعاً ، معانين أن طريقته والنتائج التى تترتب عليها منافية للبديهة ، كما أنها مدعاة للكفر والالحاد . أما ازاء أسلوبه ، فان الاساتذة الذين تربوا في احضان «العلم السلمى » ومن ورائهم الكنيسة ، قد أعلنوا أن الطريق القويم الذى رسمه الدين لكى يكون وسيلة لوصول الى الحقائق المتعلقة بعلم الفلك ، هو طريق التفكير اللاهوتى المدعم على أساس النصوص المنزلة فى التوراة والانجيل . وعلى هذه المقدمة بنوا نتائج عديدة منها أن «أرسطوطاليس » لم يكن يعرف شيئاً من الوحى الجديد، وأن الانجيل قد أظهر بكل الاساليب التطبيقية المعروفة ، أنه لا يمكن أن يوجد أكثر من سيارات سبع ، وبرهاننا على ذلك وجود تلك المنابر السبع التى ذكرت فى سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى— The Apocalypse [1]

(١) جاء في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى فى الاصحاح الأول ما يأتى :

ـ ثم المنائر السبع ذوات الشعب التي في هيكل سليمان ؛ وكنائس آسيا السبع . أما مذهب «غاليليو» فيترتب عليه ، بمقتضى القياس المنطقي ، أن تنهدم الحقائق الكنيسية وتزول . لهذا ترى أن الاساقفة والقساوسه ، قد حذروا قطعانهم أن يؤخذوا بآراء «غاليليو» الجديدة ، كما أهاب كثير من أهل اليقين بمحكمة التفتيش أن تمد يدها الى الأمر ، وان تتناول الهرطوق سريعاً بعدلها ، وبلا مرحمة .

وعبثا حاول «غاليليو» ان يبرهن على وجود الاقمار من حول المشترى بأن يريها للمشككين من خلال منظاره . فانهم كانوا لا ينظرون فيه على اعتقاد ان النظر من خلاله كفر ، وإذا نظروا ورأوا الاقمار بالفعل ، انكروها ، على اعتبار انها خيالات يصورها الشيطان فيجتنبونها ،

« فالتفت لانظر الصوت الذى تكلم معى ، ولما التفت رأيت سبع منائر من ذهب وفي وسط السبع المنائر شبه ابن انسان متسربلا بثوب إلى الرجلين ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب . وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار ، ورجلاه شبه النحاس النقى كأنهما محميتان في أتون ، وصوته كصوت مياه كثيرة ، ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب ، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه ووجه كالشمس وهي تضيء في قوتها . فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت ، فوضع يده اليمنى على قائلا (لى) لا تخف أنا هو الأول والآخر والحى ، وكنت ميتاً ، وها أنا حى إلى أبد الآبدين (آمين) ولى مفاتيح الهاوية والموت . فاكتب مارأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون بعد هذا . سر السبعة الكواكب التى رأيت على يمينى والسبع المناير الذهبية . السبعة الكواكب هي ملائكة السبع الكنائس ، والمناير السبع (التى رأيتها) هي السبع الكنائس » .

حتى لقد اعلن الأب « كلافياس » clavins انه لكى ترى اقمار المشترى، صنع الناس آلات تخلق الاقمار من حوله وهما. وعبثاً حاول «غاليليو» مرة اخرى ان يحمى ذمار الحق الذى كشف له عنه بكتابات وجه بها الى «كاستلى» castelli البنديكتى ، والى الغراندوقة « كريستين » christine اظهر فيها ان تفسير الآيات المقدسة تفسيراً حرفياً ، لا يجب ان يطبق على حقائق العلم. فلم يفز من ذلك بجواب ، اللهم الا بفكرة ان مثل البراهين التى بثها فى كتبه تلك الا تزيده الا مقتاً واقتناعاً بهرطقته وانه اشد افساداً من « لوثر » ومن « كالفن » معاً.

ان الحرب ضد « النظرية الكوبرنيكية » بعد أن ظلت حتى ظهور «غاليليو » فى همود ، قد اشتعلت نيرانها وتاظت بعد ظهوره. ولقد أعلن رجال الكنيسة أن أعظم برهان على فسادها وقوف الشمس ليوشع. وزاد الى ذلك اللاهوتيون فقالوا ــ « إن دعائم الارض مثبتة تثبيتا بحيث أنها لن تتحرك أو تتحول عن مكانها . وأن الشمس تجرى كل يوم من احد طرفى السماء الى الطرف الآخر ».

غير أنه على الرغم من ذلك كان منظار «غاليليو» يجوب أنحاء السماء ، ولم يلبث غير قليل حتى أوحى للناس بآية أخرى ، تلك هى جبال القمر ووديانه فكان من ذلك حملة أخرى وحرب جديدة.

هنالك أعلن رؤوس الكنيسة أن فى القول بجبال القمر ووديانه وبانه يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس على سطحه ، مناقضة صريحة لما جاء فى سفر التكوين من أن القمر عبارة عن ضوء عظيم. ومما زاد الطين بلة أن احد الفنانين قد خط على وجه القمر فى صورة دينية رسمها صورة جبال

ووديان ، بعد أن وضعه فى مكانه العادى ، تحت قدمى العذراء ولم يكن لذلك من نتيجة سوى أن يذاع أن ذلك الفعل انتهاك لحرمة شيء مقدس ، وأن الفنان هرطوق كافر بالله .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فان الحرب اشتد أوارها ، وحمى وطيسها ، عند ما كشف المنظار عن بقع الشمس - أو كلفها - وعند مااستنتج من حركة تلك البقع وتنقلها فوق سطحها أن الشمس تدور حول محورها . فان المونسنيور « إلسي » — Elci — من جامعة « بيزا » — pisa — قد حظر على « كاستلي » — castelli — الفلكى أن يذكر بقع الشمس لتلاميذه . وكذلك الاب « بوساوس » — Busaeus — فى جامعة انسبروك — Inspruck — فانه منع الفلكى « شينر » scheiner — عن أن يذكر بقع الشمس ، وان كان قدرآها وفرض لها تعليلا « سلميا » على رأى الكنيسة ، وأن لايعلن الاستكشاف بين جدران الجامعة . أمافى كلية « دوى » — Douay — وجامعة « لوفان » — Luvain فان هذا الاشتكشاف قد لعن وجرح ، فأصبح لعنه قاعدة اتبعتها كل الجامعات فى أوروبا ، ومنالا حذت عليه الكليات . على أن الامر لم يقف عند هذا الحد فى اسبانيا ، فان هذه المستكشفات وأمثالها قد باغت هنالك من المقت حداً كبيراً ، حتى لقد حظر التبشير بها حظراً شديداً فى جامعة « سلامانكا » أشهر جامعات اسبانيا وأبعدها صيتا ، ولم يرفع ذلك النير العقلى الا منذ عهد قريب .

على مثال هذا تكون النتائج دائما ، كلما عهد بالقوامة على متخرج عقول الالباء من ثمار الى أولئك الذين لايرون فى الدنيا لشيء من خطر

بقدر مايرون فى خلاص الارواح ، دون خلاص العقول . وما من شيء هو أكثر من هذا تلاؤما مع تلك الفكرة التى وضعها حديثا فئات مختلفات من رجال الكنيسة ، كاثوليك وبروتستانت ، والتى يزعمون فيها أن من حق الكنيسة ان تسيطر على نشر الحقائق العلمية وان تدبر شؤون المعاهد العلمية والجامعات .

ان رؤية الكلف الشمسية لم يقتصر اعلانها على « غاليليو » فى ايطاليا ، بل أعلن رؤيتها الاستاذ « فابرشياس » — Fabricius فى هولاندا . وهنالك عمد الاب « شينر » — scheiner — الى التأويل محاولا التوفيق بين اللاهوت والعلم ، وبشر بنظرية علمية زائفة لم تنتج إلا أمر الثمر ، ولم تنل إلا السخرية والازدراء .

على أن الحرب لم تنم عاصفتها ، بل ان نزعات الفكر زادتها احتداما . فان الاب « كاكشيني » — caccini — قد عمد فى احدى خطبه الى نصوص من الكتاب المقدس مستنداً الى النص القائل - « ايها الرجال الجاليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء » - لم يلبث أن يذيعها حتى شحذت المدى مسددة الى قلب الفلكى الكبير . فان « كاكشيني » لم يكد ينتهى من خطابه حتى خلص بنتيجة محصلها - « أن علم الهندسة رجس من عمل الشيطان » . وأن الرياضيين يجب أن يبعدوا نفياً ، على اعتبار أنهم النبع الذى يفيض بصور الهرطقة . ولهذا ترى أن السلطات الكنسية قد خلعت على « كاكشيني » حلل الشرف بأن رفعت منزلته وحبته برضوانها

اما الاب « لوريني » - Lorini - فلم يبرهن فقط على أن تعاليم

« غاليليو » مدعاة للهرطقة ، بل اثبت أن فيها إنكاراً لوجود الله ، وحرض محكمة التفتيش على التدخل فى الامر . وكذلك الاسقف « فيزول » ـ Fiesole ـ فانه كان شديد العداء لنظام « كوپرنيكوس » فسب « غاليليو » علناً ، وشكا أمره الى الغراندوق . وعلى هذا خيل الى رئيس اساقفة « بيزا » أن أقوم سبيل يتبع هو أن يحوط «غاليليو» سراً وان يرسله مقبوضاً عليه الى محكمة التفتيش فى روما . وعلى الضد منه كان رئيس أساقفة « فلورنسا » فانه اكتفى بأن يعلن أن المذهب الحديد مناقض للكتاب المقدس . أما البابا « بولص الخامس » ففضلا عما كان يتظاهر به من الود لغاليليو ، داعيا أياه اكبر فلكيي الارض ، مهيباً به أن يزور روما ، فانه أوحى سراً الى رئيس أساقفة « بيزا » أن يستجمع الادلة التى تؤدى الى إدانته

فى هذه الآونة ظهر على مرسح الحوادث الكردينال «بيلارمين» — Bellarmin ـ اكبر مدافع عن الدين . وهو رجل من اعظم من اقلت الارض من اللاهوتيين . كان معتدلا ، مخلص السريرة ، واسع العلم ولكنه كان شديد الاقتناع بوجوب ان يوافق العلم نصوص الكتاب المقدس. أما الاسلحة التى تزود بها رجال من طابع «بيلارمين» وطينته ، فاسلحة لاهوتية صرفة . وقفوا امام العالم مظهرين ما يترتب على النتائج السوآى التى تؤثر فى اللاهوت النصرانى ، اذا ما ثبت بالبرهان ان اجرام السماوات انما تدور حول الشمس ولا تدور من حول الارض. وكان اعظم ما استندوا عليه من المعتقدات الدينية قولهم بأن ما يدعى « غاليليو » من صحة استكشافه يهدم كل ما تستند اليه النصرانية من فكرة

الخلاص» وقرر الاب « ليكازر » — Lecazre — « ان المذهب يغشى معتقد تجسد الاقنوم الثانى [1] بتشكوك ممضة » ، وقال آخرون — « إنه يقلب أساس اللاهوت رأساً على عقب ، فاذا كانت الارض سياراً ، وليست أكثر من سيار بين سيارات عديدة تجوب الفضاء ، إذن فلا يتفق أن يكون قد سخرت لها كل تلك الاشياء الكونية ، مما يعتبر من دعامات المعتقد النصرانى ، واذا كان هناك سيارات أخرى وكانت حكمة الله تقتضي أن لا يخلق من شيء عبثاً ، ترتب على هذا أن تكون تلك السيارات مأهولة . وهنا نتساءل كيف يمكن أن يكون أهلها قد تنسلوا عن آدم ؟ وكيف يمكن أن يرجعوا بأصلهم الذين هم مدينون بوجودهم له الى سفينة نوح ؟ وكيف نعتقد بان المسيح منقذ النوع الانسانى ، قد كفر عنهم ؟ » ولم يك هذا الاسلوب قاصراً على لاهوتيي الكنيسة الرومانية . فان « ميلانكوتون » وهو بروتستانتي ، قد اتبعه فى حملته على « كوپرنيكوس » ومدرسته

والى هذه الكتلة اللاهوتية العظيمة تضاف قوة أخرى ، ظلت ترسل على المذهب الجديد ناراً تلظيها المتون اللاهوتية ، والنصوص المنزلة .

غير أن نيران الحرب ما زالت تزداد تسعراً واحتداماً ، بعد ان اتخذ فيها من الاسلحة بعض ضروب تستحق أن نخصها بالعناية . تلك أساحة من الهين أن نبحثها وأن نحيط بها علماً : لانك تراها انما وليت

(١) اي المسيح عليه السلام

وجهك فى ميدان حرب صورع فيه العلم . ولكنها فى ميداننا هذا قد استخدمت بطريقة جعلتها ارهف حداً وأمضى نصلا ، منها فى كل ميدان آخر . وما هذا السلاح المحدود الغراب سوى كلمتين : أولاهما كلمة « ملحد » ، والاخرى كلمة « كافر بالله». كلمتان طالما وجهتا لكل انسان حاول مرة فى تاريخ الدنيا أن ينفع بنى آدم من أية طريق وبأية وسيلة . أما الجدول الذى يحوى أسماء هؤلاء الكفرة الملحدين ، فتنطوى دفتاه على أسماء أعظم من سارت به قدم من رجال العلم والمنقطعين للدرس والمستكشفين والعاملين على هناء الانسانية . سدد ذلك السلاح القوى الى صدور أمثال اسحق نيوتن وبسكال ولوك وملتون ، وحتى الى صدر فينيلون وهووارد

لم يبق من البراهين التى أقامها الباحثون على وجود الله من برهان نقل فى منازل البقاء ليصل الى رجال الاعصر الحديثة ، سوى ما أقام « ديكارت » — Descartes — مستمكناً من نفوسهم وعقولهم ومع كل هذا فقد حاول لاهوتيو البروتستانت فى هولاندا أن يوقعوه تحت آلات العذاب ، وأن يلقموه الموت لقمة سائغة ، بتهمة أنه كافر بالله . وعلى هذا السنن سار لاهوتيو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى فرنسا،فإنهم خيبوا له كل أمل فى الحياة ، ولم يغفلوا عن أن يحرموه من كل ما كان يستحق من تشريف وتمجيد بعد موته .

لم تعد هذه « النعوت » لتتخذ سلاحاً فى عصر التمدين الحديث(١)

---

(١) لقد رأينا انه كثيراً ما تتخذ سلاحاً في مصر وفى القرن العشرين يتسلح بها نواب وفقهاء (مترجم)

فانها سهام مسممة ، بل كرات متفجرة طالما أشعلت فى الجماهير نار الكراهية والحقد ، وكم انتشر حولها من دخان اعاق العيون عن أن تنظر الى حقائق الاشياء كما هى . بل كم من مثل فى التاريخ يدلنا على أنها أحرقت نفس الأيدى التى أشعلتها . تلك سهام تقطع نياط الامهات المشفقات ، وتختطف أرواح الابناء وهم فى حجور الآباء ، وقد تصيب صميم القلب الخافت والجسم جثة هامدة ، لانها لا تترك من ورائها سوى جروحاً مسمومة فى قلوب أولئك الذين هم كانوا لهم أكثر حباً وعليهم أشد اشفاقاً ، حذر أن يفوتهم الخلاص الاخروى ، أو أن ينصب عليهم الغضب القدسى . ولا مرية فى أن هذا السلاح ، خلال ذلك الزمان ، ولو أنه كثيراً ما بلغ من الحدة مبلغاً اقض مضاجع الآباء المشفقين وأفزع الامهات المشفقات ، كان فيه بعض الضعف والانحلال . لانه كثيراً ما كان يصيب المعتدين بضربات أقوى من تلك التى كانت تصيب المعتدى عليهم . على أن الحال لم تكن على هذه الصورة فى أيام « غاليليو » . فان هذا السلاح كان فى عهده على أشد ما ظهر حدة وتسمما للقلوب والأفكار

على أن رئيس أساقفة « بيزا » لم يستنكف أن يتخذ من عدد الحرب ما هو أحط من ذلك وأدنى . فان هذا الرجل ، الذى لم تكسب كاتدرائيته من الشهرة ما سوف يبقى ذكرها الى آخر الدهور ، الا باستكشاف « غاليليو » لسنة من سنن الطبيعة الكبرى وصل اليها من مرآى قنديلها يهتز الى الجانبين أمام مذبحها ، لم يكن من اولئك الاساقفة الذين جبلوا من طينة « بوروميو » — Borromeo — أو

« فينيلون » — Fènèlon — أو « شفيروس » — Cheverus — فان من سوء حظ الكنيسة ، بل ومن سوء حظ الانسانية كلها ، أن يكون رئيس أساقفة « بيزا » فى ذلك العصر رجل متعصب دساس ، دبر باحكام طريقة الاحاطة بالفلكى الكبير والقبض عليه .

كتب « غاليليو » بعد أن حرمت الكنيسة مستكشفاته ، الى صديقه « كاستللي » والى الغراندوقة « كريستين » كتابين أراد أن يظهر فيهما أن ما وصل اليه من الحقائق الكونية من المستطاع جعلها توافق ظاهر التنزيل . ولقد حاول رئيس أساقفة « بيزا » باشارة من محكمة التفتيش فى روما ، أنه يحصل على الكتابين ، وأن يظهرهما عند الحاجة ، برهاناً على أن « غاليليو » قد نفث سموم الهرطقة فى تضاعيف اللاهوت ، وفى تضاعيف المتون المنزلة ، وبذلك يقع بين براثن محكمة التفتيش . لهذا مت رئيس الاساقفة الى « كاستللى » أن يريه الخطاب الاصلى المكتوب بخط « غاليليو » نفسه . ولكن « كاستللي » رفض . وهنا تظاهر كبير الاساقفة « لكاستللى » إفكاً وزوراً بما يحمل فى نفسه من كبير الاحترام لنبوغ « غاليليو » وأنه مشوق لانه يعرف أكثر مما عرف عن مستكشفاته ، على الضد مما كان يكتب به الى رئاسة محكمة التفتيش من الطعن والتحريض ضد « غاليليو » . تلك حقيقة كشفتها البحوث الحديثة منذ عهد قريب . ولما أن أخفق فى حيلته هذه ، خلع قناع الرياء ، وأعلن الحرب صراحاً

ان رواية الوقعة التى دارت من حول « غاليليو » ، جانب

لتحطيمه ، وجانب لنصرته ، لشيء يلذ سماعه ، لو لم يكن فيها من الامثال أسوؤها ، ومن الرذائل أشنعها . كانت دسائس من جانب يقوم من الجانب الآخر ما يفسدها ، وكانت مؤامرات فى ناحية يدبر فى ناحية أخرى ما يحبطها ، وكان كذب وكان تجسس ، ومن وراء كل هذه الدنايات جماهير غفيرة من قساوسة وأساقفة ورؤساء أساقفة وكرادلة ، وبابوان هما بولص الخامس paul v واربان الثامن Urpan VIII تغلى مراجل صدورهم ، متجادلين متشاحنين ، مولولين منادين بالويل والثبور ، وعظائم الامور .

غير أن القوات المتناحرة كانت شديدة المرة . ففى سنة ١٦١٥ دعى « غاليليو » ليقف امام محكمة التفتيش فى روما ، وبذلك تهيأت تلك الحفرة العميقة التى طالما عمل العاملون على حفرها تحت قدميه . وعهد الى فئات منوعة من لاهوتيي محكمة التفتيش أن يبحثوا قضيتين استمدتا مما كتب « غاليليو » فى كلف الشمس ، فظلوا يبحثون شهراً من الزمان ، ثم أصدروا قرارهم فقالوا بأن : —

« القضية الاولى » قضية أن الشمس ثابتة فى مركز النظام الكونى وأنها لا تدور حول الارض ، تجديف مضاد للبديهة ومناقض لقضايا اللاهوت ، وأنها هرطقة لمعارضتها تصريحا لنصوص الكتاب المقدس . واما القضية الثانية ، قضية أن الأرض ليست فى مركز النظام الكونى ، ولكنها تدور من حول الشمس ، فأمر مناقض للبديهة منقوض فى الفلسفة ، وفيه من وجهة النظر اللاهوتى منافاة للمعتقد الصحيح »

هنا تدخل البابا بولص الخامس بنفسه فى الأمر مرة ثانية ، وأمر أن يقف « غاليلو » أمام محكمة التفتيش ليجيب على التهم الموجهة اليه ، فوقف أعظم عالم أقلته الارض فى زمانه ، أمام أعظم لاهوتى أظلتـه السماء فى القرن السابع عشر . وقف « غاليليو » أمام « بيلارمين » . وشرح « بيلارمين » لغاليليو خطـأ رأيه ، وأمره أن يقلع عنه . أما « ده لودا » — De I ouda — فقد زود من البابا بخطاب حمله الى محكمة التفتيش يأمر فيه بان يلقى الفلـكى العظيم فى أعماق سجون التفتيش ، ما لم يقلع عن رأيه ، ويعلن عن فساده . وهنا أمر « بيلارمين » « غاليليو » أن يذعن :

« باسم قداسة البابا ، وباسم كل المجامع التابعـة للبلاط المقدس ، بقلعا عن الاعتقاد بالرأى القائل بأن الشمس مركز النظام الـكونى وانها ثابتة ، وان الارض تتحرك ، وان لا يلقن هذا الرأى لاحد او يدافع عنه او ينشره بأية وسيلة شفويا او تحريراً »

فاستسلم « غاليليو » لقضاء القوة ، وأذعن لهذه الارادة ، وتعهد بان يظل مطيعا لها ، امينا عليها وفيا بعهدها

حدث هـذا فى سنة ١٦١٦ . وبعد ذلك بأسبوعين تحرك « مجمع الفهرست » ، كما تثبت ذلك الخطابات والمستندات التى ظهرت حديثا ، تحت تأثير البابا بولص الخامس ، مصدراً بلاغا جاء فيه—« ان المذهب القائل بحركة الارض المزدوجة ، حول نفسها ومن حول الشمس فاسد ، فضلا عن انه مناقض تماما لنصوص الـكتاب المقدس » . وان هـذه الفـكرة محظور تلقينها للناس او الدفاع عنها . وفى هـذا البلاغ نفسه

حرمت ولعنت كل كتابات « كوبرنكوس » — « وكل الكتابات التى تثبت حركة الارض » . وكذلك حرم على الناس قراءة كتاب « كوبرنيكوس » القيم ، حتى يحور بما يلائم ما ترى محكمة التفتيش من رأى فى نظام الكون ؛ وكذلك كتابات « غاليليو » و « كبلر » قد شملها البلاغ بتحريمه كل الكتب التى تثبت دوران الارض ، وان لم تذكر باعلامها .

ولقد اثبتت هذه النواهى فى الفهرست [1] . اما المقام البابوى نفسه ، مقام القاضى المعصوم من الخطأ المبرء عن الزلل ، بل المعلم الذى يوحى لأهل الدنيا بما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فوقع على صدر الفهرست بالخاتم البابوى المعروف ، مباركا تلك النصائح بتصديقه اقتدى عليها وإجازته لها

وظل « غاليليو » بعد صدور هذا الحكم زمانا فى روما. ومن الظاهر انه لم يمكث بها الا ليجد لنفسه مخرجا من المصاعب التى احاطت به ، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى تحرجت به الحال لما كان يعاينه من اضطهاد السلطات الكنسية له ، فعاد الى « فلورنسا » اذ دعى اليها ، وظل قابعا فى صومعته بالقرب من المدينة لا يحراء ساكنا ، مكبا على عمله كل اكباب ، من غير انه يذمر شيئا ، اللهم الا خطابات كان يبعث بها سراً بين حين وآخر الى أصدقائه فى اطراف أوروبا

(١) فهرست او جدول الكتب المحظور قراءتها على المؤمنين

غير انه لم يلبث على ذلك غير قليل حتى تبـدلت الحال . فان الـكردينال « بربريني » — Berberini — وكان يتظاهر بحرية الرأى والاخلاص لغاليليو ، اصبح بابا متخذاً لنفسه اسم « اوربان الثامن » فتجددت الآمال فى صدر « غاليليو » ، وأخـذ يعلن أنه لا يزال حريصاً على معتقده فى صحة مذهب «كوپرنيكوس » . وهنـاك تجددت الحوادث القديمة ، إذ طلب الى « غاليليو » أن يعود الى روما ثانية ، واجتهد البابا « إربان الثامن » أن يخدعه عن مذهبه ، آخذاً على نفسه مؤونة التعب لـكى يظهر للفلـكى الـكبير خطأ ما يذهب اليـه بالدليل والبرهان . ولـكن كثيراً من المعارضين لم يجدوا فى أنفسهم من سعة الصدر ما وجد البابا ، إذ ظهرت كتب عديدة تهاجم هذا المذهب. كتب لم يراع واضعوها أبسط ما تتطلب الرجولة من صفـات ، لأنهم وهم ينشرون مؤلفاتهم ، كانوا يعلمون علم اليقين بان « غاليليو » كان ممنوعاً بالقوة من ان يدافع من نفسه . ومن أجل أن تقيم الكنيسة برهاناً جديداً على ضعفها وعجزها عن أن تمضى قوامة على بث التعاليم العليا ، قطعت عن « غاليليو » راتبه كاستاذ فى جامعة « بيزا » ، ومن ثم كثر اللغط من حوله والجدال . بل بدأت المعـاول تحفر من تحت قدميه هوة جديدة . فـكما أن رئيس أساقفـة « بيزا » قد حاول من قبل أن يخدعه بكلمات حلوة ، ليستجمع ضده دلائل يسلمه بهـا الى محكمة التفتيش ، كذلك فعل من بعد الأب « غراسى » — Grassi — وبعد أن أخفق فى عدة محاولات أراد بها أن يخرجه من الصمت الى الـكلام بالتمليق طوراً ، وبالوعـد طوراً آخر ، فاجأه بان أعلن أن

آراءه—» تسوق الى إنكار الوجود الحقيقى لسر الاوخارستيا » ، أى تناول القربان المقدس

فى الهجوم الاخير على « غاليليو » تناصرت قوات عظمى لتصب عليه ناراً حامية . تلك نار قد ترى فى كل الميادين التى يكون فيها العلم طرف قتال . وما هى فى الحقيقة الا طريقة الاتهام العام. ففى سنة ١٦٣١ قام الأب « ملشوار انخوفر — melchoir Enchofer — المنتمى الى اليسوعيين ، واستجمع من حوله كل ما استطاع من قوة ، لينحي بها على كاهل « غاليليو » معلناً « أن القول بحركة الارض أسف كل ضروب الهرطقة واكبرها إثما ، وأشدها فى الدين قدحاً ، واقذعها قذفاً ، وان ثبات الارض معتقد مقدس ثلاثاً ، وان البرهنة على فناء النفس الانسانية وعدم خلودها وانكار وجود الله ، وامتناع التجسد، أشياء يمكن أن يتسامح فيها ، قبل أن يتسامح فى البرهنة على ان الارض تتحرك »

أما فى الجانب الآخر من أوروبا فقد ارتفع صوت تجاوبت من حوله اصداء قوية ، اذ أخرج اللاهوتى « فروماندوس » — Fromandus — من بين جدران كاتدرائية « أنفرس » مقالته التى سماها « ضد ارسطارخس » — anti-Aristarchus — ونشرها فى الناس . وبدأ أول صفحة منها بلعنة « كوبرنيكوس » مثبتاً أن الوحى العلمى الجديد لم يكن سوى توسع فى شرح نظرية وضعها من قبل فلكى من الوثنيين . وأعلن — « ان التنزيل يقاوم « كوبرنيكوس وأنصاره » . ومن أجل ان يثبت أن

الشمس تدور من حول الارض رجع الى المزامير التى تتكلم فى الشمس وفى إشرافها — « كما تخرج العروس من خدرها » . ولكى يبرهن على ثبات الارض رجع الى سفر الجامعة — Ecclesiastes — مستنداً الى نص يقول بان الارض ثابتة الى ما لانهاية (١) — ومن أجل أن يظهر فساد نظرية « كوبرنيكوس » من طريق المشاهدة تراه يقول بان هذه النظرية لوكانت صحيحة فلا بد من أن يستمر الهواء هابّاً من جهة الشرق على الدوام ، وان البنايات المشيدة فوق الارض ، بل الارض نفسها ،كان ينبغى أن تطير هائمة فى الفضاء بقوة اندفاع عظيمة تستلزم أن يتهيأ الناس بمخالب كمخالب القطط ، حتى يستطيعوا أن يبقوا فوق

(١) كلام الجامعة ابن داوود الملك في اورشليم . قال الجامعة «باطل الاباطيل الكل باطل . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس . دور يمضي ودور يجيء والارض قائمة الى الابد . والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب الى الجنوب وتدور الى الشمال . تذهب دائرة دوراناً والى مداراتها ترجع الريح . كل الانهار تجري الى البحر والبحر ليس بملآن . الى المكان الذي جرت منه الانهار الى هناك تذهب راجعة . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الانسان ان يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو ما يكون والذي صنع فهو الذي يصنع وليس تحت الشمس جديد . ان وجد شيء يقال عنه انظر : هذا جديد . فهو منذ زمان كان من الدهور التي كانت قبلنا . ليس ذكر للاولين . والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون له ذكر عند الذين يكونون بعدهم » . عن سفر الجامعة الاصحاح الاول

ظهرها بأن يثبتوا مخالبهم فيما تصل اليه من الاجسام . ولم يلبث عند هذا . بل عمد الى « أرسطوطاليس » والى القديس « توماس أكويناس » مستعيناً باللاهوت والعلم معاً ، لكي يبرهن على أن الارض يجب أن تثبت فى المركز ، وأن الشمس يجب أن تدور من حولها.

على ان مقاومة نظرية « كوبرنيكوس » لم تقتصر على المتعصبين من أهل الدين . فان رجالا عظام القدر كبار الخطو مثل « جان بودن » — Jean Bodin — فى فرنسا وسير « توماس برون » — sir Thomas Browne — فى انجلترا ، قد أعاز كلاهما ، أن مذهب « كوبرنيكوس » مناف لنصوص التوراة والانجيل.

* * *

٤ — انتصار الكنيسة على غاليليو

نشر كتاب المحاورات لغاليليو سنة ١٦٣٢ — عداء البابا إربان الثامن — محاكمة غاليليو مرة ثانية أمام محكمة التفتيش — قسمه وتعهده — اضطهاد غاليليو من بعد ذلك — الاساليب التى اتبعت لتحطيم نظرية كوپرنيكوس — تشويه ذكرى غاليليو — عداء البروتستانتيه لعلم الفلك الحديث والمدافعون عنها .



بينما كانت أخبار الانتصار على « غاليليو » وعلى الحق الثابت كشف له عنه ، تنهال من كل ناحية وتتجاوب بأصدائها نواحي أوروبا، كان الفلكي الكبير مكباً على كتابة مقالة قصيرة ، وضعها فى صورة محاورة أورد فيها كل البراهين التى تؤيد نظريتى « كوپرنيكوس » و« بطليموس » وكذلك البراهين التى تنقضهما ، معلناً خضوعه لكل مايمكن أن تفرض محاكم الكنيسة من الاوامر ، اذا سمح له بطبعها ونشرها . وفى النهاية، وبعد مناقشات طويلة استغرقت ثمانية أعوام ، رضى رؤساء الدين أن تطبع تلك المقالة ، وعلق طبعها على شرط مزرٍ ، هو أن يكتب الاب « ريشياردينى » — Ricciardini — رئيس البلاط المقدس، مقدمة تتفق وما يرى فى الامر من رأى ؛ وأن يوقعها « غاليليو » ، وفيها استعرضت نظرية « كوپرنيكوس » على زعم أنها أضغاث أحلام ، ونزعات خيال ، وليست بشىء جدى ينافى مذهب « بطليموس » الذى حققت محاكم التفتيش صحته بعناية البابا « بولص الخامس سنة » ١٦١٦ .

ظهرت رسالة «غاليليو» الجديدة التى سماها «المحاورة» Il Dialogo

سنة ١٦٣٢ . وصادفت نجاحا باهراً ، لأنها هيأت مؤيدى مذهب « كوبرنيكوس » بأسلحة جديدة ، مرهفة النصال ، محدودة الغراب ، أما للقدمة فلم يبق فى أوروبا موضع قدم لم تحدجها فيه العيون بنظرات السخرية ، أو ترسل اليها الثغور فيه بسمات الازدراء ، على الرغم مما كان فيها من روح الورع والتقوى . وكان هذا سبباً فى أن يثير انفعال أعدائه. وهنالك هب اليسوعيون والدمنيكيون ، بل والاغلبية العظمى من رجال الدين من مراقدهم ، وعادوا الى النار القديمة ينفخون فى رمادها ، فيوقظون لهبها ، ويسعرون ضرامها ، لتبلغ ألسنتها إلى حد لم تبلغ اليه من قبل . وفى مركز حلقتهم وقف البابا « إربان الثامن » ليشرف بهامة الجبار على مايترامى حواليه من لهيب الفتنة الذى اضطرم ، بعد أن كاد يكون رماداً ، لتزكيه بما يبعث به قلبه من وقود الحقد والكراهية . وهذه القوات العظيمة ناءت بجماعها على كاهل « غاليليو » .

مست هذه النار « غاليليو » فى موضعين . الاول — مقامه العالى وعزة نفسه ، جزاء له على أن يضع براهين البابا التى فاه بها لدى محاولة اقناعه بفساد مذهبه فى فم شخص من أشخاص المحاورة ، وجعله البراهين التى تنقضها فى فم شخص غيره . والثانى — شعوره الدينى . ولقد كان ما مسه من الضر فى الثانية ، أبلغ مما مسه فى الاولى . ولطالما كرر ذو القداسة المعصوم لكل من وقعت عليه عينه من الناس ما فى الكتاب المقدس من نصوص التنزيل التى تثبت اثباتاً قاطعاً وبلا شبهة من تأويل ، أن الشمس والسيارات انما يدرن من حول الارض ، وأن انكار ذلك إنكار للوحى نفسه. ولا شبهة فى أنه لو صح أن يقال بأن رجلا من رجال

الدين كان فى ذلك العصر أبعد من غيره عن التأثر بروح الحق واليقين، فان « إربان الثامن » كان أبعد الناس جميعاً عن تلك الروح تلقاء هذا الامر كله .

من حول « إربان الثامن » تراكمت أعظم كتلة كونها سوء الحظ وأربتها التعاسة التى أحاطت بالكنيسة القديمة فى كل عصورها . فلو أنه كان واسع العقل متسامحاً مثل « بنيدكت الرابع عشر Benedict XIV » أو لو أنه فقه كيف تكون الاستقامة والاعتدال مثل « بيوس السابع Pius VII » ، أو لو أنه حاز شيئاً من صفات العلم والاستعماق فى الدرس مثل « ليو الثالث عشر Leo XIII » ، لما ناءت الكنيسة تحت أحمال تلك الفضائح التى حوطت قضية « غاليليو » ، ولاصبح فى مستطاع المدافعين عنها أن يفخروا أنها فتحت بلا خوف ولا رهبة ، باب عصر جديد ينعم بخيراته أبناء آدم ، بدل أن يلجؤا الى تلك الضروب المختلفة من المواربة والخداع ، ليلقوا عن أكتافها مسؤولية تلك الاضرار العظمى التى أصابت الانسانية .

ولكن الامر لم يكن كذلك . فان « اربان الثامن » لم يكن بابا لاغير . بل كان أميراً من بيت « بر بريني Berberni » فاخذته العزة بالاثم ومضى مغضباً ، كيف أن براهينه تناقش بين الناس علناً وبلا حجاب !!

أثمرت أول الدسائس التى دبرها أعداء « غاليليو » ثمرة مباشرة الاثر ، اذ حرم بيع كتابه ولكنهم سرعان ما رأوا أن هذه الوسيلة غير مجدية نفعاً ، لان الطبعة الاولى من الكتاب كانت قد انتشرت فى كل بقاع أوروبا . وهنا تضاعف سخط « اربان الثامن » وزاد غيظه ،

ولم يكن لديه من سبيل يتبعه الا أن يضع « غاليليو » ومؤلفه بين يدى محكمة التفتيش . وعبثاً حاول « كاستللي » البنيديكتى أن يقنع غيره بأن « غاليليو » يحترم الكنيسة ، ولا يهزأ بمبادئها . بل سدى ضاعت كل جهوده فى سبيل أن يثبت لرجال الكنيسة « أنه مامن شىء يمكن عمله الآن ، من شأنه أن يمنع الارض عن الدوران » . ولكنه طرد مغضوباً عليه مقصياً به عن الكنيسة ، وقسر « غاليليو » على أن يقف أمام تلك المحكمة المهيبة المخيفة واحداً فرداً بلامدافع أو نصير .

وهناك عذب مراراً عديدة بأمر البابا « اربان الثامن » . وهذه حقيقة طالما خفى على العالم أمرها ، ولكنها عرفت الآن وفضح سرها .

وكذلك اتضح من المستندات التى حفظت حتى اليوم عن محاكمته ، أنه حمل على أن ينكر مشايعته لمذهب « كوبرنيكوس » تحت تأثير التهديد والوعيد ، وأنه سجن بأمر البابا . بيد أن رؤوس محكمة التفتيش يرجعون فى كل هذا الى السلطة البابوية . وكل تلك الجهود العظيمة التى بذلت فى سبيل أن تخفى الكنيسة الاجراآت قد ذهبت سدى . وكل العالم اليوم انما يعلم علم اليقين بأن « غاليليو » قد أهينت كرامته ، وسجن ، وهدد تهديداً هو العذاب الجسمانى بعينه ، وأنه قسر أخيراً على أن يعلن جاثياً على ركبتيه ، الاعتراف الآتى :

« أنا غاليليو ، وفى السبعين من عمرى ، سجين جاث على ركبتى ، وبحضور فخامتك ، وأمامى الكتاب المقدس الذى ألمسه الآن بيدى ، أعلن أنى لا أشايع ، بل ألعن وأحتقر ، خطأ القول ، وهرطقة الاعتقاد

بان الارض تدور » (١)

انه ولا شك قد غلب على أمره ، لانه قسر على أن يظهر أمام كل الاجيال القادمة بمظهر الحانث فى قسمه بعد مغلظ الايمان . ومن أجل أن يتم انتصارهم عليه ، وأن يثلموا مابقى له من شرف النفس ، اضطر على رغم منه أن يقسم بان يبلغ الى محكمة التفتيش أمر كل رجل من رجال العلم يمكن أن يعرف عنه أنه يؤيد هرطقة القول بدوران الارض

ولقد أثار قسم « غاليليو » هذا عجب الكثير من الناس ، حتى أن ذلك كان سبباً فى أن ينكر عليه بعض أبناء عصره لقب « الشهيد » . غير أن هؤلاء الرامين عن قوس الشعور بما يقولون ، لم يقدروا ظروف الرجل قدرها . فقد كان شيخا كبيراً ، عمر الى السبعين من السنين المثقلة بالهموم والاحزان ، وقد حطمته آمال الدنيا ومخاوفها ، وهدمته متاعبها وواجباتها ، وكم سعى متلهفا من « فلورنسا » الى « روما » مكبا على وجهه ، ونصب عينيه تهديدات البابا بانه اذا تأخر عن القدوم «أخذ فى الاغلال » . وكان فوق ذلك مريض الجسم والعقل ، سلم الى أعدائه بيد الغراندوقة التى كان من الواجب أن تحميه وأن تحيطه بعنايتها ، ولم يكد يبلغ روما حتى احتوته غرف التعذيب وانصبت عليه الآلام ألوانا . ولقد كان يعرف جيداً ماهى محكمة التفتيش . وكان يلوح له شبح « جيوردانو برونو » بين اللهيب ماثلا أمامه كأنما ذلك كان بالامس الفارط ، وفى نفس تلك المدنية ، ومن أجل « هرطقة »

(١) يروي أن غاليليو بعد أن أعيد بعد اعترافه الى السجن ضرب الارض بقدمه قائلا ــ ولكنها تدور (م)

العلم والفلسفة . وكان يتذكر أنه من قبل ثمانية أعوام أحيط برئيس أساقفة « سبالاترو » — Spalatro — « ده دومينيس » — De Dominis — وسلم الى محكمة التفتيش متهماً « بهرطقة العلم » وبقى بين براثنها حتى مات فى جوف السجن ، وأنه احرق بعد موته مع ما كتب على مرأى من المؤمنين .

ولقد استمر اضطهاد « غاليليو » كل أيام حياته . كلا . بل بعد مماته . لقد بقى فى المنفى بعيداً عن أسرته ، بعيداً عن أصدقائه ، مقصياً به عن صناعته النبيلة ؛ وقسر على أن يظل خاضعاً لعهده بأن لا يتكلم فى نظريته . ولما أن توسل الى أعدائه ، وهو بعد يعانى أشد آلام المرض وأعظم تباريح السقام ، مقرونة بأقسى الآلام النفسية التى سببتها الكوارث التى نزلت بأسرته ، طالباً ان يمنح من الحرية قدراً ضئيلا ، كان التهديد بالقائه فى غيابات السجن على ملتمسه الصغير جواباً ولما أن قررت لجنة خاصة عينتها السلطات الدينية بأنه أصبح أعمى لا يبصر ، وانه ذهب ضحية المرض والحزن ، منح بعض الحرية ، ولكن بحدود جعلت تلك الحرية استعباداً . ولقد أجبر على أن يواجه هجمات أعدائه على نفسه وعلى نظريته . هجمات الازدراء والسخرية والتضليل ، من غير أن ينبس ببنت شفة أو يحرك بالرد لساناً . ورأى الذين تعهدوه بالصداقة والحب والاحترام ، ينزل بهم العذاب الصارم ، والظلم الفادح . فنفى « كاستالى » . ورأى « ريشياردى » رئيس البلاط المقدس ؛ و « شيامبولى » — Ciampoli — سكرتير البابا . يبعدهما « إربان الثامن » عن وظيفتيهما محقرين ؛ ورأى عضو محكمة التفتيش

فى « فلورنسا » بوبخ اقذع توبيخ لانه أمر بطبع كتابه . وعاش ليرى الحقائق التى استكشفها تكتسح من كل الكليات الكنسية ومن كل جامعات أوروبا ، بل ليرى عضو محكمة التفتيش يأمر بأن يستبدل كل نعت طيب يرد به ذكره فى أى كتاب يراد طبعه ، بأخبث النعوت وأحط الذكريات .

ولقد أخذ رجال الكنيسة يعدون العدة بعد ذلك ليتموا تحطيم نظرية « كوبرنيكوس » ، وان يهدموا البراهين التى اقامها « غاليليو » على صحتها . ففى ١٣ يونية سنة ١٦١٣ أمر المجمع المقدس ، بعد موافقة البابا الذى كان قائماً إذ ذاك ، أن يرسل الحكم الصادر ضد « غاليليو » وكذلك إقراره الى كل « قاصد رسولى » — Nuncio — فى أوروبا بأجمعها ، والى كل رؤساء الاساقفة والاساقفة وأعضاء محاكم التفتيش فى ايطاليا . وفى هذا المستند التاريخى صدرت الاوامر مشددة بان يعلن الحكم والقسم معاً — « الى كل القساوسة ، وأن يحيط به فضلا عنكم كل أساتذة الفلسفة والرياضيات ، حتى يعرفوا لماذا حاكمنا « غاليليو » وأن يحيطوا علما بمقدار ما فى هذه الخطيئة من خطر فيجتنبوها ، وليبتعدوا جهد مستطاعهم عن انواع العقاب التى لا بد من ان تنزل بهم اذا ما وقعوا فى حالة تشبه حالة غاليليو »

وكان من نتيجة هذا ان اجتمع كل أساتذة الفلسفة والرياضيات والفلك فى مختلف الجامعات فى انحاء أوروبا وقرىء عليهم هذا الصك . ولقد كان هذا العمل برداً وسلاماً على قلوب اللاهوتيين جميعا . فكتب

عميد جامعة « دوى » — Dorey — ذاكراً رأى « غاليليو » الى القاصد الرسولى فى بروكسيل يقول —

«لقد ظل أساتذة جامعتنا على معاداتهم لتلك الفكرة التعصبية عاكفين ، حتى انهم لم يتركوا فرصة تمر دون أن يعبروا عن رأيهم فى أنه من الأوفق ان تزول تماما . ففى جامعتنا الانجليزية « بدوى » لم نوافق مرة على ترويج هذه المتناقضات ، وان نوافق على ترويجها فى المستقبل » .

ثم تقدم رجال الكنيسة خطوة أخرى . فقد صدرت الاوامر لاعضاء محكمة التفتيش ، وفى ايطاليا على الاخص ، بان لا يسمحوا باعادة طبع شيء من كتب « غاليليو » أو مايشابهها من الكتب . وكذلك طلب الى اللاهوتيين ، بعد ان سكت « كوبرنيكوس وغاليليو وكبلر » ان يدحضوا براهينهم وينقضوا أقوالهم بالقلم واللسان . وهنالك فاضت الكنيسة على أوروبا بسيل عرم من البراهين الناقضة لمذهب « كوبرنيكوس »

ومن أجل ان يصبح العمل تاما كاملا ، ثبت فى الفهرست الكنسى امر يحرم — « كل الكتابات التى تثبت دوران الارض » . وأمضى البابا امراً ، على اعتبار انه المعصوم عن الخطأ وانه المعلم الملهم قدسيا ، والقائم حفيظا على الدين والآداب والمعتقد ، مقيداً بتلك الدينونة ضمير كل شخص اظله العالم النصرانى

من بين الكتب التى ظهرت بارشاد الكنيسة بعد إدانة «غاليليو» رامية الى اقتلاع جذور النظرية الكوبرنيكية من عقول الناس ، نخار

كتابين اثنين ، نتخذهما مثالا وعظة ، الاول كتاب خطته براعة «سبيو شيارمونتي» — Scip o (hiaramonti — وأهدى إلى الكردينال « بربريني » ، ومن بين البراهين التي أقامها ضد دوران الارض نذكر البرهان الآتي :

«للحيوانات التي تتحرك أطراف وعضلات . . أما الارض فليس لها أطراف ولا عضلات . . فهي على ذلك لاتتحرك . انها الملائكة التي تحرك زحل والمريخ والشمس وغيرها في دورتها . فاذا كانت الارض تدور ، فينبغي أن يكون لها ملاك في مركزها يدفعها الى الحركة . ولكن لايأوى في مركز الارض الا الشياطين . فلابد من أن يكون شيطانا ، ذلك الذي يعطي قوة الحركة للارض . »

« إن السيارات والشمس والاجرام الثوابت انما تتضمنها فصيلة واحدة ، هي فصيلة النجوم . وظاهر أنه من الخطأ الفاحش ، أن توضع الارض ، وهي مباءة القاذورات ، بين تلك الاجرام السماوية . التي هي أشياء قدسية نقية صافية »

أما الكتاب الثاني الذي اخترناه من بين ركام تلك الكتب المتشابهة . فكتاب « بولاكو » — Polacco — المسمى « الكاثوليكي ضد كوبرنيكوس » — Anti-copernicus Catholicus — وقد عمد فيه كاتبه أن يوجه لهرطقة « غاليليو » » سهما مسددا . وفيه يقول .

« ينص الكتاب المقدس دائما على أن الارض ساكنة . وأن الشمس والقمر ماضيان في حركتهما . ولكن إذا رأينا يوما أنهما ماثلان

لايتحركان ، فان الكتاب المقدس ينص على أن ذلك انما يكون لمعجزة كبرى » .

« إن هذه الكتابات يجب أن تحظر حظراً باتا . لانها تبشر بمبادىء فى موقع الكرة الارضية ودورتها تناقض نصوص الكتاب المقدس ، وتنافى التفسير الكاثوليكى لتلك النصوص ، وتزعم بأن هذه المبادىء حقائق، لامجرد فروض تخيلية » .

ولما تناول كتاب « غاليليو » قال فيه إنه « مستمد من روح كوبرنيكوس» — وأنه — « عند ماتضح هذا لاعضاء محكمة التفتيش زج «بغاليليو » فى السجن وقسر على أن يعلن عدم مشايعته لهذه الطريقة الخاطئة وأن يعلن عن فسادها »

أما سلطة الكرادلة فى إصدار قرارهم فقد تناولها « بولا كو » بالكلام مبرهناً على انهم ما داموا « موضع استشارة البابا » وانهم « اخوته » فان عملهم يكون واحداً ، فى حين أن البابا لا يفترق عنهم الا بكونه مصطفى وأنه محبو بعلم لادنى قدسى

وبعد أن أظهر أن كل ما فى الكتاب المقدس من الاسانيد الوثيقة ، وكل الفكرات التى فاض بها البابا والكرادلة ، تناقض نظريات الفلك الحديثة ، حاول أن ينقض النظرية بدليل مقتطع من المشاهدات الطبيعية فقال — « اذا سلمنا بان الارض تتحرك ، لما امكننا أن نعلل السبب فى أن سهماً يطلق رأسيا فى الهواء يعود الى الهبوط فى نفس المكان ، بينما تكون الارض وكل ما عليها حسب التعاليم الجديدة ، مندفعة فى الوقت نفسه بسرعة فائقة ، متحركة نحو

الشرق . ومن ذا الذى لا يرى أن فوضى عظيمة فى نظام الاشياء من اللازم أن تترتب على مثل هذه الحركة؟ »

ثم عمد الى الغيبيات الفلسفية مقتطعا منها بعض البراهين فقال — « ان حركة الارض حسب نظرية « كوبرنيكوس » أمر مخالف لطبيعة الارض ذاتها . لانها ليست فقط متبردة صابة ، بل إنها تحوى فى عناصرها طبيعة البرودة أيضا . ولاخفاء أن البرودة تقاوم الحركة ، بل انها تفنيها بتة ، كما هو الظاهر فى الحيوانات،فانها تعجز عن الحركة إذا بردت »

ولم ينس بعد كل هذا أن يلجأ الى أساوب التفكير اللاهوتى كآخر سهم فى كنانته فيقول : « مادام فى مكنتنا ان نثبت من نصوص التنزيل ان السماوات تتحرك من فوق الارض ، وما دامت الحركة الدائرية تستلزم وجود شىء ثابت من حوله تحصل الدورة ، إذن فالارض ثابتة فى وسط النظام الكونى »

على اننا لا نستطيع أن نأتى بصورة حقة تبين لنا طبيعة الجلاد الذى قام بين العلم واللاهوت،من غير أن نعود فى ذلك إلماما الى مالقى « غاليليو » بعد موته من عنت أعدائه . فقد طلب الى رجال الكنيسة أن يدفن فى مقابر أسرته فى « سانتا كروتشى » — Santa Croce — فرفضوا . وأراد أصدقاؤه أن يقيموا فوق قبره أثراً تذكارياً فلم يسمح لهم . وقال البابا « إربان الثامن » « لنيكولينى » — Nicolini — وهو السفير الذى كلف بأن يعرض بعض المطالب الخاصة بغاليليو الميت عليه — « انه لاسوأ مثل يعطى للناس أن نسمح بتكريم رجل وقف من

قبل أمام محكمة التفتيش الرومانيــة لترويج فــكرة مثل فــكرته الملوءة بالخطاء والــكفران . ولم يقصرها على نفسه بل أقنع بها غيره فأحدث بذلك أعظم فضيحة عانت أمرها النصرانية » . وتنفذت ارادة البابا ورجال محكمة التفتيش ، فدفن « غاليليو » من غير تكريم بعيداً عن أسرته ، ومن غير خدمة دينية ، ومن غير أن يقام على قبره نصبا ، أو تاريخا يشير الى العظمــة المخبوءة فى ذلك الرمس الذى ضم رفاته . ومضى على ذلك أربعون عاما جرأ بعدها « بيبروزى » — Pierrozzi — أن ينقش على قبره تاريخا يشير الى حيث دفنت تلك العظام النبيــلة . وبعد مائة سنة استطاع « نيللى » — Nelli — أن ينقــل رفاته الى « سانتا كروتشى » ليضعها فى مكان لائق بها ، وأقام عليهــا نصبا . وكانت النار لا تزال متسعرة والعداء لا يزال مستحكما ، فقد طلب الى رجال محكمة التفتيش أن يحولوا دون هذا التــكريم « لرجل اتهم بمثل مااتهم به « غاليليو » من السيئات والخطيئات » . وعلى ذلك رفضت تلك السلطات الــكنسية أن يكتب على قبره أى تذكار من قبل ان يعرض نصه على هيئتهم المختصة بمراقبة المطبوعات ! ! !

على ان روح التعصب والبغضاء لم تكن قد خبت نارها حتى ذلك العهد ، وبعد موت « غاليليو » بمائة عام . ولم ير جيل من اجيال البشر جمعاء فئة من رجال الدين فيها مثل « مارينى » — Marini — و « ددبونالد » — De Bonald — ورالى — Rallaye — و « دد جابرياك » — Da Gabriac — اخذوا على عواتقهم ان يشوهوا الحقائق ، وان يختلقوا النظريات التى تسود ذكرى « غاليليو » زوراً ليسلم شرف الــكنيسة . ولــكن

الأغرب من هذا ان متونا تاريخية للتدريس كانت منتشرة بين طلاب العلم كل انتشار ، قد عمد كاتبوها ، خدمة للكنيسة ، ان يشوهوا ، بكل طريق مستطاع ، كل الحقائق التى كونها الزمان من حول « غاليليو » وانى لعلى يقين من ان الكنيسة لم يقم ضدها فى زمان من الازمان اعداء فكانوا اشد لدادة لها ، واعظم نيلا منها ، من اولئك الذين اختلقوا هذه الاشياء وروجوها بين الناس . فانهم بعملهم هذا قد مهدوا السبيل لكى يقتلعوا من العقول الكبيرة المفكرة كل عاطفة من الاحترام لتلك النظام الدينى الكبير ، والذى كان يظن خطأ بان هذه الكتابات تخدم اغراضه العليا

ولم تكن الكنيسة البروتستانتية باقل نشاطا وحذقا فى مقاومة المبادىء الجديدة فى علم الفلك من الكنيسة الرومانية . فان العلم المقدس الذى وضع اصوله اول المصلحين من اتباع « لوثر » قد انتقل الى الاجيال التالية كأقدس ميراث ، واثمن تراث ، ولم يزد فى القرن التالى الا قيمة وتقديسا ، وعلى الاخص تحت تأثير « كالوفياس » — Colovius — فان سعة علمه وصلابته المستمدة من الروح الكاثوليكية ، قد عقدت له لواء الزعامة على اللوثريين . غير انه رفض كل رفض ان ينزل على حكم العلم الصحيح والحقائق الثابتة فالجأ الى اللاهوت مستنداً الى القول الذائع فى رجوع الظل على مزولة الملك حزقيا [1] —

(١) « فى تلك الايام مرض حزقيا الملك للموت فجاء اليه اشعياء بن آموص النبى وقال له : هكذا يقول الرب : اوص بيتك لانك تموت ولا تعيش : فوجه حزقيا وجهه الى الحائط وصلى الى الرب وقال . آه يارب اذكر

—Ezekaiah— وفى وقوف الشمس ليوشع . منكراً دوران الارض نافياً كل ما ظهر من آيات العلم الحديث ، على اعتبار انها منافضة للتنزيل . وحتى اليوم — فى القرن العشرين ، قرن النور والمدنية — يردد الوثريون فى امريكا براهين « كالوفياس » ، وعلى الاخص من كل منهم ذا نزعة كاثوليكية فى ميوله الدينية

أما فى بقية فروع الكنيسة البروتستانتية وشعبها الكثيرة ، فقد رأينا أن الكلفينيين والانغليكانيين وعلى الجملة كل الشيع البروتستانتية، كانوا جميعاً فى موقف المعارضة لحقائق العلم الجديدة . ولقد وقع فى انجلترا أن أعلن دكتور « سميث » — Dr. Smith — وهو من أعظم اللاهوتيين ، أن « الجمعية الملكية » انما هى جمعية تعمل ضد الدين ، وأن أعضاءها ملحدون . وكان من بين « البيورتانيين » — Puritans — العلامة « جون أوين » — John Owen — الذى أذاع أن مستكشفات « نيوتن » « قد قامت على ظواهر غير ثابتة ، وأنها مبنية على فروض عقلية تعارض

كيف سرت امامك بالامانة وبقلب سليم وفعلت الحسن فى عينيك • وبكا حزقيا بكاء عظيما » •

« فصار قول الرب الى اشعياء، اذهب وقل لحزقيا ، هكذا يقول الرب اله داوود ابيك • قد سمعت صلاتك • قد رايت دموعك • هأنذا اضيف الى ايامك خمس عشرة سنة • ومن يد ملك اشور انقذك وهذه المدينة • واحامى عن هذه المدينة • وهذه لك العلامة من قبل الرب ، على ان الرب يفعل الامر الذى تكلم به • هأنذا ارجع ظل الدرجات الذى نزل فى درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء • فرجعت الشمس عشر درجات من الدرجات التى نزلتها » • عن الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر اشعياء •

النصوص الصريحة التي جاء بها الكتاب المقدس ». وانك لتعجب اذ تعرف أن الشاعر « ملتن » ـ Milton ـ الذائع الصيت قد وقف متراوحا بين الناحيتين . ففي أول كتابه الثامن من قصيدته المشهورة « الفردوس المفقود » ينطق بلسان آدم مكرراً ما اعترضه من صعاب في فهم النظام البطليموسي فيرسل اليه بملك يعيد على سمعه ما أجاب به رجال الكنيسة في تفسير ذلك النظام الكوني . ولكن الظاهر أن « ملتن » رجع بعد قليل الى النظر في نظرية « كوبرنيكوس » نظرة تقدو تحايل(١)

ان النزعة الانجليزية الى روح الكثلكة مازالت تبرهن على وجودها. ففي سنة ١٧٢٤ طبع « جون هتشنسون » ـ John Hutchinson ـ كتاب « مبادىء موسى » Moses' principia وفيه بث مذهباً فلسفياً حاول أن يقيم به فكرة في النظام الكوني يستمد أصولها من الانجيل . فحمل على مبادىء « نيوتن » معلناً أنها تؤدي الى انكار وجود الله ، وبذلك فتح للكنيسة باباً تندخل منه الى الطعن في العلم الحديث ، وجاراه في ذلك « هورن » - Horne - و « دنكان فوربس » - Duncan Forbes - و « جونس » ـ Jones ـ و « نيلاند » ـ Nayland ـ غير انه ظهر في الميدان رجل أعظم من هؤلاء جميعاً . فان « جون وزلي » ـ John Wesley ـ باجوئه الى تلك الطريقة التي تفرض على العقل أن يمضي عاكفاً على نصوص التنزيل لا يعدوها ، قد حمل على أن يعلن . « أن صناعة السحر اذا لم تكن حقيقة واقعة ، فلن يصح لدينا من شيء جاء به الانجيل ». بل انه مما يدلك على

(1) Or she from west her silent course advance,
With inoffensive pace, that spinning sleeps
On her soft axle, while she paces even
And bears thee soft with the smooth air along.

حقيقة تلك العقاية ، أن هذا الباحث بعد أن اقتادته خطواته الى القول بفساد نظرية بطليموس واقرار نظرية « كوبرنيكوس » على وجه عام ، انتاب أزاء مستكشفات « نيوتن » شاكا غير ثابت اليقين . ومن حسن الحظ أن كرامة محتدة ، ونبالة أرومه ، قد حالت بينه وبين أن يتردى في مهاوى الحقد ، أو أن يذهب صحية لروح العداء ، أو أن يغني متأثراً بشيء من موحيات التعصب المذهبي ؛ التي كان من شأنها أن تعوق خطى الذين يأتون من بعده عن بلوغ الحق واليقين .

في ظلمات ذلك الخطاء الذى أرخى بسدوله حول أسلوب التفكير اللاهوتى ، بدأت أنوار الحق تشع في جو انجلترا وأمريكا على السواء . فانه مما يستلفت النظر أن « كوتون ميذر » — Cotton Mather — على ما كان فيه من النزعة الاورثوذكسية في الاعتقاد بحقيقة السحر قد قبل سنة ١٧٢١ النظرية الحديثة في علم الفلك ، مع كل مايترتب عليها من النتائج

وفى العام التالى قامت دلائل قوية على أن الروح العلمية الحديثة قد أخذت تجد لها طريقا الى الجزر البريطانية . فان « توماس بارنت » — Thomas Burnet — على الرغم من أنه حاول أن يثبت فى الطبعة السادسة من كتابه « النظرية المقدسة فى أصل الارض » سنة ١٧٢٢ ما يذهب اليه الكتاب المقدس فى ثبات الارض فى وسط الكون ، فانه انذر قارئيه فى المقدمة انذاراً أخاذاً بالالباب ، اذ ذكر ذلك الخطاء الفاضح الذى جره القديس « أوغسطين » على الكنيسة تلقاء مذهب « الانتيبود » (١)

(١) لم نعثر على كلمة عربية تعبر عن اصطلاح — antipode — فعربناه : ومعناه الساكنون فى الجهة المقابلة للجهة التى نسكنها من الأرض .

- antipode - ثم قال «اذا أمكن البرهنة بالدليل القاطع خلال بضعة السنوات الآتية أو اثناء الجيل المقبل على أن الارض تتحرك بطريقة نافية لكل شك فان أولئك الذين قاموا فى وجه هذا المذهب متخذين من نصوص التنزيل أسلحة تقدموا بها فى ميدان المناقشة ، سوف يجدون من الاسباب التى تدعوهم الى طلب التوبة والغفران ؛ ما كان يجد القديس «أوغسطين» للتكفير عن خطئه لو كان اليوم حياً»

ومن حظ الانسانية أن البروتستانت لم يجدوا فى يدهم من مهيئات القوة التى يقاومون بها آراء «كوبرنيكوس» ما كان يجد رجال الكنيسة القديمة . ومع كل هذا فقد كان فى بعض الوسائل التى تذرعوا بها لمحاربة العلم مايتعذر عليهم الدفاع عنه . دفاع الكاثوليك عن وسائلهم . ففى سنة ١٧٧٢ سافر من انجلترا البعث المشهور تحت قيادة الكابتن «كوك» - Cap Cook - لتحقيق بعض أغراض علمية . وكان أعظم حجة من العلماء الذين انتخبوا ليرافقوه دكتور «بريستلى» - Dr Priestly - وكان قد انتدبه السير «يوسف بانكس» - sir Joseph Banks - لهذا الغرض . غير أن رجال الدين فى اكسفورد وكمبردج . تدخلوا فى الامر ، زاعمين أن «براستلى» لم يكن كامل اليقين فى حقيقة التثليث ، وان هذا ربما يؤثر على دراسته الفلكية فيفسدها . وعلى هذا رفض «بريستلى» وأعيق عن ان يرافق البعث ، فضاع بذلك كثير من الفوائد التى كانت تنتظر منه .

على أن وجهة النظر الكاثوليكية فى الفلك قد ظلت حية فى نواح أخرى من الكنيسة البروتستانتية. فانك تجد أن «ليبنتز» فى المانيا

قد هاجم نظرية « نيوتن » فى الجاذبية مستندا الى براهين لاهوتية ، ولو أنه وجد فى تلك النظرية شيئا من السلوى فى أنها ربما تؤيد مذهب « لوثر » فى اتحاد طبيعتين أو أكثر من طبيعة واحدة أو اصطلاح « تدامج النبائع » Con-consubstantiation

أما فى هولاندا فقد كانت الكنيسة « الكلفينية » شديدة العداء ، قوية المراس ، فى مقاومة المذهب الجديد . غير أن لدينا برهانا دبر اسخرية على أن المذهب « الكلفيني » كان عاجزاً على أن قاوم الوحى العلمي حتى فى مرابضه الاصلية . فان « بلاير » - Baer - قد طبع فى امستردام سنة ١٦٤٢ كتابه فى فائدة « الكرات » ، ومن أجل أن يجعل نفسه مع الفئة الناجية ، قد مرجزءاً من كتابه على شرح نظرية بطليموس والجزء الآخر على شرح نظرية « كوبرنيكوس » تاركا الباحث كل حرية فى أن يختار بين الناحيتين .

على ان الجهود التي بذلت في الكنيسة البروتستانتية لا تقدر [illegible] الحرب على العلم [illegible] قد خمدت حتى [illegible] قريب جدا . فقد [illegible] رجال الكنيسة فى انجلترا أن يطفئوا [illegible] سنة [illegible] نعرف « هرشل » — [illegible] — و [illegible] — [illegible] — [illegible] ودد موحن [illegible] ١٢ [illegible] الى نصرد [illegible] . فرجموا رجال الكنيسة فى مرضع لم يناهم فيه الا السخرية والازدراء . وكذلك [illegible] رجال الدين اللوثريين فى برلين سنة ١٨٦٨ [illegible] حركة [illegible] . وكفى بذلك امثالا . ولكن من حسن الحظ [illegible] إذ ذاك [illegible] بستور كنالك [illegible] فانه ذهب فى برهنته على فساد

نظرية « كوبرنيكوس » الى انها لا تلائم فى ناحية من نواحيها حقيقة الاعتقاد فى الانجيل . فكان ذلك سبباً فى ان يبدد شمل المجمع مشيعاً ببسمات الاحتقار ، ونظرات السخرية

لقد رفضت الكنيسة الكاثوليكية ، فى حركتها الحديثة التى قاومت بها علم الفلك الجديد ، وفى بعض البلاد التى بلغت من التمدن مبلغاً كبيراً ، أن تتعظ ببعض الاخطاء الكبرى التى وقعت فيها بعض شعب الكنيسة البروتستانتية ، وتردت فى حمأتها اسفافا وبلا تحفظ

وعلى الرغم من ان الكنيسة القديمة قد ارتكبت خطأ كبيراً فى السماح بنشر كتب ومتون عديدة لم يكن الغرض منها الا تشويه عصر « غاليليو » ببث كثير من الاضاليل ، وكان من وراء ذلك أن ضاعت الثقة بتعاليمها التى كانت تحاول ترويجها بين فئة من ناشئتها وصفت بحب العلم والاستعمال فى النظر والاستبصار ، فانها ظلت بعيدة عن معرة الاستمرار فى العكوف على جعل تعاليمها والايمان بنصوص الكتاب المقدس ، وقفاً على قبول النظرية البطليموسية فى نظام الكون

غير أن الأمر لم يكن كذلك فى المذهب « اللوثرى » بامريكا . فقد طبع سنة ١٨٧٣ بمدينة « سانت لويس » وبمطبعة المجمع اللوثرى فى مقاطعة « ميسورى » — Missou . — كتاب (١) ذاع أن مؤلفه كان رئيساً لمجمع المعلمين فى احدى الكليات اللوثرية

[illegible]

لم يظهر فى العصور الاخيرة من طعن فى نظام الفلك الحديث ، فكانه اقذع مما جاء فى هذا الكتاب ، أو اكثر تضايلا . ففى أول صفحة من المقدمة يتساءل مؤلفه ، بعد أن لخص مجمل النظريتين «أيهما الحق» ؟ ثم يقول — «ان من السهل على أن أقرر أيهما الحق ، لو كان الامر مقصوراً على انه استنتاج عقلى فيه العقل الانسانى حريته. ولكن الله الرحيم ، قد أوحى الينا بالحقيقة فى الانجيل . فان كل ما فى الكتاب المقدس دلائل وبراهين تقنعنا بان الارض هى الجرم الرئيسى فى نظام الكون » Hoap Kuiper ، وانها تقف غير متحركة . وان الشمس والقمر لم يوجدا الا ليمداها بما تحتاج اليه من ضوء »

ولقد مضى المؤلف بعد هذا مستنداً الى نصوص الكتاب المقدس ، لا ليظهر بطلان نظرية «كوبرنيكوس» ونواميس نيوتن وحدها ؛ بل ليظهر اخطاء الكثيرين ممن هم أعظم من انبت العصر الحديث من رجال الفلك . ثم يقول . «لا يستبين الى حدس أحد أنى ابحث عن الحق ؛ فى اية ناحية هو . اهو فى الانجيل ام فى اقوال رجال الفلك ، كلا . فانى أعلم ذلك حق العلم . لان ربى القادر لا يكذب أبداً . ولا يخطىء أبداً . ولا يخرج من فيه الا الحق . ولا حق سوى ما تكلم به فى حقيقة نظام الكون والارض والشمس والقمر والنجوم »

ثم يقول .

«ومن أجل أن ما جاء به الكتاب المقدس من حق منضو تحت هذا ، فاننى أرى أن السؤال المتقدم على جانب عظيم من الخطر .

فان رجال العلم وغيرهم يلجؤون الى فكرة مضللة ، محصلها ان الله إنما يعلمنا نظام الخلاص فى الآخرة ، لا نظام الكون فى هذه الدنيا »

ومما يلذ ملاحظته ، أن بقاء مثل هذا المعتقد القديم حياً قائماً على متون أصيلة من مراسيم العبادة ، لم يكن السبب فيه تعاليم بثها راهب من رهبان الكنيسة القديمة ملىء غيرة على الدين ، بل استمدت عناصر البقاء من عقل استاذ مشهور تابع لشعبة من شعب البروتستانتية ، لا تفخر بشيء ، فخرها بانها من ناشرات النور والعرفان

كذلك لم تدان الكنيسة القديمة تلك الحرب الشعواء على مؤسسى العلم الحديث بعد موتهم ، وحدها وبلا شريك

ففى العاشر من شهر مايو سنة ١٨٥٩ دفنت رفة « اسكندر فون همبولد» ـ Alex. Von Humboldt ـ أما مجهوداته فتعد من مفاخر القرن التاسع عشر . ولذلك كانت جنازته من أفخم ما وقعت عليه عين فى برلين . وكان من بين الذين انتهزوا فرصة الشرف بان يكونوا من المشيعين «الامير ولى العهد ، الذى صار فيما بعد الامبراطور غليوم الاول . ولكن مع كل هذا لم يكن بين المشيعين أحد من رجال الدين الابهم الا من خصص منهم للقيام بالخدمة الدينية ، وفئة كانت تعرف بابتعادها عن الروح الاورثوذكسية

***

٥ — نتائج الانتصار على غاليليو

فرح رجال الكنيسة بانتصارهم ـ إسكات ديكارت ـ اضطهاد كامبانيلا وكبلر ـ المقاومة وانتصار العلم ـ حيرة اللاهوتيين ـ المحاولات التي اتبعت لتأجيل تراجع الكنيسة

***

نرجع الآن الى الكلام فى النتائج التى ترتبت على قضية « غاليليو » .

بعد أن فاز رجال الكنيسة على « غاليليو » حياً وميتاً ، وبعد ان استغلوا هذا الانتصار فى اخضاع أساتذة علم الفلك فى كل أوروبا لآرائهم ، لم يسعهم الا أن يعلنوا ابتهاجهم ، ويعبروا عما يخامر قلوبهم من لذة الانتصار . وكثيراً ماعلت صيحتهم بانهم اقتلعوا جذور الهرطقة والالحاد والكفر بالله ، باقتلاعهم جذور المذهب القائل بأن الارض تدور دورة مزدوجة ، حول محورها ومن حول الشمس ، موجهين الى محكمة الكنيسة أخص عبارات الشكر والتبجيل باطاعتها وتنفيذها للارادات الشفوية التى أصدرها أحد البابوات ، والاوامر الكتابية التى وجهها اليها آخر . ولقد عرفنا من قبل أن تلك الكتب المرذولة التى تعلم الحق الجديد قد وضعت فى فهرست الكتب التى يحظر على النصارى قراءتها . وقد صدرت هذه الفهرست بأمر بابوى يلعن كل من يمس هذه الكتب من أصحاب المعتقد النصرانى ، مذيلى بتوقيع البابا التى كان متربعاً فى كرسى « القديس بولص » فى ذلك العهد

على ان الخسائر التى أصابت العلم من جراء انتصار النزعة اللاهوتية لأبلغ من أن يسبر الانسان غورها لدى أول نظرة يلقيها على الموضوع. ولنذكر فى هذا الصدد امراً واحداً . فلقد كان فى أوروبا فى ذلك العصر مفكر من أولئك المفكرين الذين قلما تجود بامثالهم بطون الامهات . كان فى أوروبا « رينيه ديكارت » . وعلى الرغم مما فى استنتاجاته من الخطأ الكبير، فان ثمار الحق التى احتوت عليها تلك الاستنتاجات كانت كثيرة منوعة الصور . وكان قد أنجز شيئاً كبيراً لخير الانسانية حتى ذلك العهد . فان وصفه للمذهب الدردورى — The theory of vortices — فى الطبيعة — وهو فرض وجود مادة متجانسة فى الفضاء تحكم حركتها النواميس الكونية كقاعدة لاصل النظام الطبيعى المنظور ، ولو لم يكن سوى نظرية فرضية ، فانه قضى كل قضاء على النظرية القديمة فى أصل الكون ، نظرية القبة الصلبة التى تظلل الارض ، وتحريك السيارات فى دورتها بأيدى الملائكة . تلك النظرية التى بلغت من التأثير فى العقول مبلغاً كبيراً ، حتى ان « كبلر » نفسه قد أفسح لها فى عقله مجالا . ولقد بعث المحاربون فى سبيل العلم فى ذلك النابغة روحاً ، فمضى عاملا للعلم ، جامعا فى ثنايا عقله الكبير كل البحوث العلمية التى ذاعت فى عهده . وكان لا بد من أن تحدث نتائج ابحاثه عصراً جديداً فى تاريخ الدنيا . وكان غرضه أن يجمع كل فروع المعرفة والفكر فى مقالة واحدة فى حقيقة العالم ، ومن أجل أن يصل الى ذلك ظل أحد عشر عاما طوالا مكبا على درس علم التشريح وحده . غير ان نهاية « غاليليو » قد أفقدته كل

أمل ، وانتزعت من قلبه كل تشجيع . وهنا خيل اليه انه فقد المعركة ، فترك تصميمه فارا من الميدان فرار من لا أمل فى أوبته

غير أنه لم يمض غير قليل حتى ظهر للعالم أجمع أن انتصار الكنيسة واستظهارها على أعدائها لم يكن فى الحقيقة الى هزيمة مروعة . فقد انهالت البراهين الناصعة من كل مكان على أن « كوبرنيكوس » و « غاليليو » كانا على حق . وعلى الرغم من أن البابا « إربان الثامن » وأعضاء محكمة التفتيش قد أبقوا « غاليليو » فى عزلة تامة بعيداً عن كل ما يحيط به ، ممنوعا حتى عن الكلام فى دورة الارض المزدوجة ، وعلى الرغم من اللعنة التى وجهت الى كل ، « الكتب التى تبرهن على دوران الارض » ، وتثبيتها فى الفهرست ، وعلى الرغم من أن الامر البابوى كان لا يزال معلقاً فيها ، مقيداً لضمائر المؤمنين الذين يحاولون فهم العلم الحديث ، وعلى الرغم من أن الكليات والجامعات التى كانت تحت حكم الكنيسة قد أجبرت على أن تعلم النظرية القديمة ، فقد استبان لكل ذوى الالباب من أهل ذلك العصر ، أينما كانوا وحيثما حلوا ، أن انتصار الكنيسة لم يكن فى الحقيقة الا كارثة مجتاحة ، حوطت نتائجها المنتصرين .

هنالك فتح الرواد لأنفسهم باباً جديداً . فان « كامبانيلا » — campanella — فضلا عما كان فى آرائه من الغموض ، كتب « دفاعا عن غاليليو » . وقد وقع تحت آلات التعذيب فريسة سبع مرات متتالية ، لارتكابه مثل هذه الهرطقة وغيرها ، فى موضوعات السياسة والدين .

ثم ظهر « كبلر » - Kepler - فقاد أنصار العلم الى ميادين جديدة حازوا فيها النصر والفخار . فان « كوبرنيكوس » على نبوغه وعبقريته

وسعة عقله ، لم يستطع أن يخلص أسلوب التفكير العلمى تخليصاً تاما من نزعات اللاهوت وقواعده . فان مذهب « ارسطوطاليس » ومذهب القديس « توما اكويناس » فى أن الدائرة وذلك الشكل الهندسى ، هو أتم كل الاشكال وأكمل الاوضاع الهندسية ، قدأفسدعليه بعض نواحي مذهبه ، وترك فيه ثغرات مفتوحه ، لم يتوان أعداء العلم فى أن يلجوها. غير أن « كبلر » قد رأى الخطأ ، فلم يلبث ان فاض على العالم ، بما خص به من نبوغ كبير وتفوق عظيم ، بثلاثة نواميس لا تزال تقترن باسمه الى اليوم ، وبذلك أتم بناء تلك القلعة العلمية التى لم يقتحمها أحد حتى الساعة. وكثيراً ما كان يتكلم ويفكر كرجل ماهم بما يقول . وكانت المواقع التى اخترق صفوفها ممضة أليمة . فقد أنذره المجمع الاكليروسى البروتستانتى فى « ستوتجارت » بان يقلع . « عن أن يقذف عالم المسيحية فى مهاوى الفوضى بما يبث من خيالات مسفة » . ومن ثم أمر فى حفلة رسمية . « بان يوفق بين نظريته فى الكون وبين نصوص الكتاب المقدس » . ولقد وبخ مرة واستهزىء به أخرى ، ثم سجن . ولقد ناءت عليه كل القوات الكنسية بكلاكلها . البروتستانت فى « ستيريا » ـ tyria ـ « وفورتمبرج » ـ Wurtemburg ـ والكاثوليك فى النمسا وبوهيميا . ولكن تبعه اذ ذاك « نيوتن » « وهالى » ـ Halley ـ و « برادلى » ـ Baradely ـ وغيرهم من كبار الفلكيين ، ولم يبق للعلم من كل هذا الا الفخر والانتصار .

غير أن هذا الجهاد كله لم ينه المعركة . فى خلال القرن السابع عشر كله ، وفى فرنسا ، وبعد كل البراهين الناصعة التى أتم بها « كبلر » علم

الفلك الحديث ، لم يجرأ أحد أن يعلم نظرية « كوبرنيكوس » أو يبث حقائقها علناً ، حتى أن « كاسينى » - cassini - الفلكى العظيم ، لم يستطع أن يعلن اقتناعه بها ودفاعه عنها. وفى سنة ١٦٧٢ عدد الأب « رتشيولى » - Riccioli - اليسوعى البراهين التى تؤيد نظرية « كوبرنيكوس » والبراهين التى تنقضها ، فوجد أن ستاً وأربعين برهاناً تؤيدها ، وسبعاً وسبعين تنقضها . وانك لنجد حتى بعد أن ولج العالم باب القرن الثامن عشر ، وبعد أن أثبت سير « اسحاق نيوتن » نظرياته بزمان طويل ، أن « بوسيه » - Bossuet - أسقف « مو » - Meaux - وأعظم لاهوتى انبتته فرنسا ، قد مضى معلناً ، أن النظرية الجديدة فى الفلك مناقضة للتنزيل .

ولم تظهر دلائل تدل على أن الجو سوف تنكشف غياماته سراعا خلال ذلك القرن. ففى انجلترا طبع « جون هتشنسون » كما رأينا من قبل كتابه « مبادىء موسى » - Moses' princ - سنة ١٧٢٤ ، ومضى موقنا بأن التوراة العبرية عبارة عن مذهب كامل فى الفلسفة الطبيعية ، وأنها مناقضة للمذهب « النيوتونى » فى الجاذبية . ولقد رأينا من قبل أن هذا اللاهوتى قد تبعه جيش عرمرم من رجال الكنيسة ينحون نحوه ، ويلفون لفه. وطبع اثنان من مشهورى الرياضيين فى فرنسا سنة ١٧٤٨ فى الفرنسوية كتاب « المبادىء » — Principia — الذى ألفه « نيوتن » . غير أنهما حذرا من أن يقعا فريسة فى براثن المراقبة الكنسية ، وضعا للكتاب مقدمة كانا يعتقدان أنها خطأ فاضح وتزوير لا مبرر له . وبعد ذلك بثلاثة أعوام فاه « بوسكوفتش » — Boscovich — الرياضى اليسوعى المشهور بهذه الكلمات :—

« أما أنا ، فمع شديد احترامى للكتاب المقدس ولقرارات محكمة التفتيش المقدسة ، اعتبر أن الارض ثابتة لاتتحرك ؛ ولكن مع ذلك لاأرى بأساً من أن ألجأ الى السهولة فى الشرح والتعبير ، فاعتبرها متحركة وأن أسوق براهينى فى هذه السبيل . لانه قد برهن أخيراً على أن كل الظواهر تؤيد هذا الفرض » .

أما فى المانيا فقد ظلت الحرب متاظية شعواء طوال النصف الاول من القرن الثامن عشر ، وعلى الاخص فى البقاع التى عمرها البروتستانت . فقد أغرق دكاترة اللاهوت اللوثريين المانيا فى فيضان محتاج من الكتب والمقالات ليبرهنوا على أن نظرية « كوبرنيكوس » لا يمكن أن يوفق بينها وبين نصوص التوراة . وكذلك نجد فى كثير من المعاهد اللاهوتية ، وفى كثير من الجامعات التى خضعت لسلطة الكنسية ، أن رجال الدين قد ذهبوا بكل طارف من العلم وتالد . ومع كل هذا فانا نقع فى أواسط القرن الثامن عشر على فئة من رجال الكنيسة المتنورين ، قد شعروا شعوراً تاماً بأنهم فقدوا الموقعة وباؤوا بالخسران .

ففى سنة ١٧٥٧ أخذ البابا « بنيدكت الرابع عشر » أنور البابوات جميعاً وأحدهم ذهناً وأغزرهم علما ، يبحث الامر بنفسه ، فقرر مجمع الفهرست - Congregation of the Index - سراً على إثر ذلك ، أن الكنيسة تسمح لمبادىء « كوبرنكوس » أن تذيع وأن يتناولها المؤمنون بالدرس . غير انك تجد بعد هذا أن الفلكى المعروف « لالاند » -Lalande- قد حاول عبثاً سنة ١٧٦٥ أن يحمل رجال الكنيسة فى روما على أن يخرجوا كتب « غاليليو » من الفهرست :

ناهيك بأن السلطات التى ظلت قوامة على المعاهد فى أوروبا الكاثوليكية ، وعلى الاخص فى اسبانيا ، قد حظرت ، حتى أواسط القرن التاسع عشر ، تدريس المذهب النيوتونى . ففى سنة ١٧٧١ رفض عمد جامعة « سلامانكا » أشهر كل الجامعات وأعرقهن قدما ، أن يدخلوا تدريس النيوسيتى فى برامج الجامعة قائلين — «إن « نيوتن » لا يعلم من شىء يمكن أن يخرج رجالا عظاماً فى المنطق أو الغيبيات وكذلك « غاسندى » - Gassendi - و «ديكارت» فإن كليهما لا يتفق والحقائق المنزلة ، كما يتفق ارسطوطاليس».

أما تهمة الانتقام من الموتى فقد بقيت حية ردحا طويلا من القرن التاسع عشر . ففى الخامس من شهر مايو سنة ١٨٢٩ اجتمع جمهور غفير فى مدينة « فارسوفيا » - Varsaw - ليجددوا ذكرى كوپرنيكوس تكريماً له ، وليدشنوا تمثاله الذى صنعه «ثورو الدسن» - Thorwaldsen - .

لقد عاش «كوپرنيكوس» عيشة مسيحيـة ملؤها الورع والتقوى. ولقد نال حب الناس واحترامهم لما جبل عليه من صفات الاشفاق والرحمة وحب التصدق لوجه الله . ولم يقف أحد على نظرة واحدة يصح أن تتخذ موضعا للطعن فى معتقده الدينى. وكان قسيسا فى كنيسة «فرونبرج» - Frauenburg - ونقشت على قبره أشد الجمل النصرانية مسا للقلوب ونيلا من الوجدان . فأصبح من الطبيعى أن ينتظر الناس فى احتفال «فارسوفيا» أن يقوم رجال الدين بخدمة دينية ، ومضى منظمو الاحتفال يضعون أنظمته على هذه الفكرة . وعلى هذا سارت تلك المظاهرة الـكبرى الى الكنيسة وانتظر الناس قيام رجال الدين بواجبهم . فمضت ساعة ولم يظهر

منهم أحد. بل لم ينشأ أحد منهم أن يظهر. ومن هذا تجد أن «كوبرنيكوس» الرحيم المتصدق الورع، ذلك الذى يجب أن يعتبر من أنبل الاشياء التى وهبها الله للعلم والدين معا، كان لايزال واقعا تحت سخط الكنيسة ورجالها. بل ظل كتابه بعد ذلك خمسة أعوام مدرجا فى الفهرست، معدوداً من الكتب التى تحظر الكنيسة قراءتها على المؤمنين.

وطبعت من الفهرست نسخة سنة ١٨١٩ وكانت كتب «غاليليو» و «كوبرنيكوس» لا تزال مدرجة فيها، كما كان شأن الطبعات التى سبقتها. ولكن وقعت سنة ١٨٢٠ أزمة شديدة، وحرج كبير. فان القس «سيتيل» ـ Settele ـ أستاذ علم الفلك فى جامعة روما، قد كتب متناً للتدريس أخذت فيه نظرية «كوبرنيكوس» على أنها من الحقائق التى لا يشك فيها. وهنالك رفض «انفوزى» ـ Anfossi — رئيس البلاط المقدس ومراقب المطبوعات أن يسمح بطبعه ما لم يراجع «سيتيل» كتابه ويذكر أن نظرية «كوبرنيكوس» ليست أكثر من فرض. وعلى هذا لجأ «سيتيل» الى البابا «بيوس السابع» فأمر بان يعرض الأمر على مجمع وزراء الفاتيكان المقدس. وفى ١٦ أغسطس سنة ١٨٢٠ صدر قرار المجمع بانه من المسموح «لسيتيل» أن يلقى نظرية «كوبرنيكوس» على انها حق ثابت، وعزز البابا هذا القرار. ولقد كان هذا القرار مثاراً لكثير من المناقشات. وبعد لأى اتفق كرادلة محكمة التفتيش المقدسة فى ١١ سبتمبر سنة ١٨٢٢ على ان نشر الكتب التى تؤيد حركة الارض وثبات الشمس، على ما يقول به كبار علماء الفلك فى العصر الحديث، أمر مسموح به فى روما. وصدق البابا

« بيوس السابع » على هذا القرار ، ولكن ظل الفهرست من غير أن يعاد طبعه ثلاثة عشر عاماً بعد هذا ، حتى طبع سنة ١٨٣٥ ، إذ رفعت منه أسماء الكتب التى كانت تبرهن على نظرية دوران الأرض وتدافع عنها

ولكن النزاع لم يكن قد انتهى بعد . فان كل حركة من حركتى الأرض قد قامت عليها براهين جديدة تثبتها لاعين الناظرين ، كما لو كانت كل البراهين القديمة غير كافية لاثباتها . فان اختلاف موقع النجوم الثوابت ؛ أى اختلاف الموقع الذى يشاهد فيه النجم من سطح الارض، عن الموقع الذى يجب أن يكون فيه فيما لو شاهدت من مركز الارض ، ذلك الناموس الذى استكشفه « بيسيل» ـ Bessel ـ وغيره من الفلكيين سنة ١٨٣٨ ، قد أثبت دروان الارض حول الشمس إثباتاً قاطماً ، كما أن تجربة « فوكول » ـ Foucalt ـ فى الرقاص — Pendulum — قد أظهرت للعين اظهاراً جلياً ان الارض تدور حول محورها . ومن أجل أن يعلن عن هذا الامر ويذيع حقيقته أجرى الاب « سكشى »ـ Secchi — الفلكى المعروف، وهو من اليسوعيين هذه التجربة عاناً فى احدى كنائس روما سنة ١٨٥٢ ، أى بعد مضى مائتين وعشرين عاماً على تلك الجهود التى بذلها اليسوعيون انفسهم فى سبيل أن تنصب لعنة الكنيسة على رأس « غاليليو » العظيم

* * *

٦ — تراجع الكنيسة بعد انتصارها على غاليليو

سهولة تراجع اللاهوتيين من البروتستانت ـ الصعوبات التى اعترضت الكنيسة القديمة ـ اتخاذ عصمة البابا سلاحاً ضد نظرية كوبرنيكوس ـ محاولات يراد بها اخفاء الحقيقة ـ المحاولة الاولى : فى ان غاليليو لم يتهم لاثباته دوران الارض ، بل لانه حاول اثبات هذه النظرية بنصوص التوراة ـ سهولة القضاء على هذه المحاولة ـ المحاولة الثانية : فى ان غاليليو لم يتهم من أجل الهرطقة ، بل لعدم احترامه البابا ـ فساد هذا الزعم ـ المحاولة الثالثة : فى ان الامر كله لم يخرج عن كونه جلاداً وقع بين الاساتذة الارسطوطاليسيين والاساتذة الذين اتبعوا الاسلوب التجريبى الحديث ـ المحاولة الرابعة : فى ان اتهام غاليليو كان موقوتاً ـ المحاولة الخامسة : فى ان غاليليو كان فريسة للبروتستانت والكاثوليك على السواء ـ الجهود التى بذلت لتسويد سمعة غاليليو من الوجهة الاخلاقية ـ الجهود التى بذلت لاخفاء مستندات محاكمة غاليليو ـ احباط هذه الجهود ـ المحاولة السادسة : في ان البابوات بصفتهم هذه لم يحرموا هذه النظرية مطلقاً ولم يلعنوها — نقض هذا الدليل بنفس كلام المدافعين عن الكنيسة — نقض امناء الكاثوليك لهذه المزاعم ـ مجهودات فى سبيل التوفيق ـ نيومان — ده بونالد ـ تأثير كل هذا على المفكرين من العلماء ـ ليس هذا الخطأ براجع الى الكاثوليك اكثر من رجوعه الى البروتسانت ـ ليس فى الدين بل فى اللاهوت

« * «

إن كل تاريخ يكتب فى انتصار علم الفلك على اللاهوت المذهبى ، لا محالة يكون ناقصا ، ما لم يحط فيه كاتبه بتلك الانهزامات المتتالية التى انتابت الكنيسة متراجعة عن كل مواقفها السابقة فى قضية « غاليليو »

إن تراجع أهل اللاهوت من البروتستانت لم يكن صعبا . فلقد كفاهم قليل من المهارة فى تأويل التوراة ، مع نزر يسير من الدقة فى تطبيق تلك الحكمة المعروفة التى تنسب الى الكردينال « بارونياس » — Baronius — حيث قال انه ليس من شأن الانجيل أن يعرف الناس حركات الاجرام السماوية كيف تسير ، بل من شأنه أن يعرفهم كيف يسيرون هم الى الملكوت السماوى ، مضافاً الى ذلك استعمال بضعة من تلك الجمل الخطابية التى تتفجر بالرياء ضد الذين اضطهدوا رجال العلم وطاردوهم

غير أن انهزام الكنيسة القديمة كان أشد مراساً وأصعب متناولا ، فان تراجع علماء اللاهوت الذين دافعوا عن الكنيسة مبررين أعمالها ، قد استغرق قرنين كاملين

وعلى الرغم من كل ما قال هؤلاء المدافعون ، لم يبق ظل من الشك فى أن عصمة البابا قد اتخذت فى كل الحالات، وبلا استثناء . سلاحاً مرهفاً ضد القول بحركة الارض المزدوجة . ولقد أظهرت المستندات التى حفظت فى قضية «غاليليو» والتى طبعت أخيراً أن « بولص الخامس » قد ساعد فى سنة ١٦١٦ بكل ما أوتى من قوة وجهد ، تلك الحركة التى رمت الى لعن « غاليليو » واتهامه ، ولعن كتب « كوبرنيكوس » وكل من يعلم مذهب دوران الارض حول محورها ومن حول الشمس ، وكذلك كان الحال فى اتهام « غاليليو » سنة ١٦٣٣ ، وفى كل الاجراءات التى أدت إلى ذلك الاتهام ، كان « إربان

الثامن » رجل الساعة وبطل الرواية . ولم يكن من المستطاع أن يحاكم « غاليليو » بغير اجازة منه .

حقيقة أن البابا لم يوقع القرار الذى صدر ضد نظرية «كوبرنيكوس» فى ذلك الوقت . ولكن ذلك حدث فيما بعد . وفى سنة ١٦٦٤ أضاف « الاسكندر السابع » الى الفهرست الذى يحرم على المؤمنين كتب « كوبرنيكوس » و « غاليليو» — « وكل الكتب التى تؤيد نظرية دوران الارض » — أمراً بابويا وقعه بنفسه يلزم قطيع الكنيسة الخضوع لما جاء فى ذلك الفهرست . ولقد أيد هذا الامر ، بعبارات جلية وبكل ماتحتمل الالفاظ من معانى الحزم والشدة والعصمة من الخطأ ، تحريم — «كل الكتب التى تبرهن على دوران الارض وثبات الشمس » .

بهذا وبكثير غيره أصبح موقف الكنيسة الرئيسية دقيقاً خطيراً وكانت أول حركة ذات بال لجأ اليها المدافعون عن الكنيسة قولهم ان « غاليليو » لم يامن ويتهم لانه أيقن بدوران الارض ، بل لانه أرادأن يؤيد هذا القول بنصوص من التوراة . وفى هذا القول قليل من عنصر الحق. فانه من المحقق أن كتب « غاليليو» التى أرسل بها الى«كاستللى» والى الغراندوقة « كريستين » والتى حاول أن يثبت فيها أن مذهبه الفلكى لايعارض التوراة ولا يناقضها ، قد أورى زناد التعصب الدينى فى قلوب رجال اللاهوت - ولقد أفادت هذه المراوغة زمانا ما فى تحقيق الاغراض التى رمت عليها . فان الثابت أن « ماليت دوبان » Mallet de Pan البروتستانتى ،قد جدد هذه النغمة بعد اتهام«غاليليو»

بمائة وخمسين عاما ، متخذا منها عضداً يستند اليه فى سبيل الوصول الى نظرة رجعى كان ينشدها من رجال الكنيسة القديمة .

على أنه ليس من شىء هو أبعد عن أحكام بديهة العقل الاولية من أن يلجأ كاتب فى هذا العصر الى مثل هذا اذا ماأراد أن يدافع عن الكنيسة ، بعد أن نشرت المستندات الاصلية التى حفظت فى قضية « غاليليو » بين جدران قصر الفاتيكان ، ولم تنشر الا منذ عهد قريب . فان خطابات « غاليليليو » الى « كاستللي »والى الغراندوقة « كريستين » لم تطبع الا بعد اتهامه . وعلى الرغم من أن رئيس أساقفة « بيزا » قد عمل جهده لكى تتخذ هذه الخطابات وثائق ضد «غاليليو » فانها لم تذكر سنة ١٦١٦ الا عرضا ، ولم تذكر البتة فى سنة ١٦٣٣ . أما الاشياء التى استند اليها رجال الجمع المقدس سنة ١٦١٦ الذى التأم بحضور البابا « بولص الخامس » فى اتهام « غاليليو » على اعتبار انها ـ « منافية للبديهة وخطأ فى اللاهوت وهرطقة صريحة ، لانها تناقض نصوص الكتاب المقدس » — فقضية « ان الشمس هى المركز الذى تدور الارض من حوله » . أما الذى اعتبر أنه ـ « مناف للبديهة وخطأ فى الفلسفة ، وأن أقل ما فيه من وجهة النظر اللاهوتى أنه مناقض للمعتقد الصحيح » ـ فقضية « أن الارض ليست مركز النظام الكونى وأنها متحركة ، وأن لها دورة يومية »

وكذلك اذا رجعت الى أمر البابا « إربان الثامن » الذى نفذه رجال المحكمة التفتيش سنة ١٦٣٣ . فانك تجد أن « غاليليو » قد أجبر

على أن يقسم متنصلا من «خطأ القول ، وهرطقة الاعتقاد ، بأن الارض تدور »

أما الشيء الذى حظرته الفهرست باجازة الأمر البابوى الذى أصدره « الاسكندر السابع » سنة ١٦٦٤ فكان — « كل الكتب التى تعلم دوران الارض وثبات الشمس » . وكذلك تجد أن ما احتوته الفهرست المصدر بالأمر البابوى والذى يقيد ما جاء به ضمائر المؤمنين . والذى ظل اكثر من مائتى عام ، مصبوبا عليه لعنة الكنيسة فكان — « كل الكتب التى تؤيد القول بدوران الارض »

وعلى هذا ترى أن « غاليليو » لم يتهم مرة لانه حاول — « أن يوفق بين آرائه ونصوص التوراة »

وبعد أن أخفقت الكنيسة فى هذا الميدان ، وعجزت عن أن تجد فيه ما يمكن أن يكون دفاعا معقولا عن تصرفاتها ، رجع المدافعون عنها الى الاستتار حول القول بان « غاليليو » لم يحاكم من أجل الهرطقة بل لعنادة وقلة احترامه للمقام البابوى .

وكذلك لقيت هذه الاضلولة الجديدة فرصة أخرى للبقاء زمانا ما. ومما لاشك فيه أن « إربان الثامن » وهو من أكثر من رأت روما من البابوات أنفة وتشامخا ، قد خدعه بعض أعداء « غاليليو » بحجة أنه لم يقم نحوه بكل ما يلزم من واجبات الاحترام الرسمية . أولا — لان « غاليليو » ظل أمينا على مذهبه متعلقا به حتى بعد إتهامه سنة ١٦١٦ وثانيا — لانه أشار فى كتابه « المحاورة » سنة ١٦٣٢ الى البراهين التى أقامها البابا لنقض مذهبه الفلكى

غير أنه مما لا يحتمل شكا أن الالتجاء الى التحول بان اصدار قرار خطير النتائج كذلك القرار الذى صدر ضد « غاليليو » كان راجعا الى نزعة شخصية قامت فى نفس حبر الكنيسة الاعظم ، لاالتجاء الى شيء ليس من شأنه أن يحوط مذهب العصمة البابوية بالكثير مما يتطلع اليه الراغبون فى بث هذا المعتقد فى قلوب الناس .

وفضلا عن هذا فان الالفاظ التى استعملت فى درج الجمل نفسها تدل على سخافة استدلال أولئك الذين حاولوا الدفاع عن الكنيسة . فان هذه الجمل قد تضمنت دائما كلمة « هرطقة » ولم تستعمل كلمة « احتقار » مطلقا . هذا فيما يختص بالمسألة الاولى أما المسألة الثانية ، فان ما تنطق به المستندات الرسمية لم يبق طريقا لمؤول ، ولا سبيلا لمفسر . فان هذه المستندات نفسها تظهر «غاليليو» دائما بمظهر الخاضع المنيب لقداسة البابا ، وانه تلقى براهين قداسته بصبر وطول أناة . ولا ريب فى انه قد فاض بكثير من عبارات الغضب والاحتقار فى وجه الذين حاولوا اهانته وتعمدوا القدح فيه . غير أن الاعتقاد بان ذلك كان السبب فى محاكمته ، لامر فيه من الاسفاف ما فيه . وهو فوق ذلك ينزل بالبابا « بولص الخامس » والبابا « اربان الثامن » و « بيلارمين » وغيره من اللاهوتيين ، وأعضاء محكمة التفتيش الى منازل الفجرة الآثمين ، لانهم تناقضوا تناقضا صريحا فى تعيين الاسباب التى تحملهم على أن يقفوا ذلك الموقف من « غاليليو » . وعلى هذا لم يجد المدافعون عن الكنيسة من هزيمة هى أشبه بالانتصار ، إلا بان يفروا من ذلك الميدان فراراً

أما الاضلولة الثانية فدارت رحاها حول القول بأن اضطهاد «غاليليو» ومحاكمته ، لم يكن السبب فيها الا ذلك الصراع الذى قام بين الاساتذة الارسطوطاليسيين من جهة ، الاساتذة المؤيدين للطريقة التجريبيه الحديثة من جهة أخرى . غير أنهم هوجموا فى موقفهم هذا وهزموا فيه بأيسر ما يتصور . فقد قيل لهم اذا كانت هداية الكنيسة وإرشادها أمور من المستطاع أن تنزل الى ميدان يتصارع فيه أساتذة الجامعات ، وأن تتخذ وسيلة يتذرع بها حزب من الاحزاب لتحريم الاعتقاد بحق قامت كل البراهين الكونية مؤيدة له ، فكيف يمكن أن يعتقد مع هذا أن الكنيسة فى ذلك الوقت كانت تفضل أى نظام انسانى دنيوى غير معصوم عن أن يزل ويخطىء ، وأن يكون مقوداً بعصبة من الجاهلين لا بطبقة منتقاة من الرجال الكاملين ؟ واذا صح أن يكون هذا البرهان سديداً ، فانه يدل على أن حالة الكنيسة كانت أسوأ بكثير مما قال فيها أعداؤها . وهنا ، بين صيحات الفرح التى كانت تبعث من أفواه فئة لم ينبض لهم من الخزى عرق ، ولم يهتز لهم من الخجل عصب ، لجأ المدافعون عن الكنيسة الى وسائل أخرى .

قيل بعد هذا أن اتهام « غاليليو » كان « موقوتاً » . على أن فى هذا الموقف من الضعف مالا يدانيه ضعف فى موقف آخر ، عمد اليه رجال الكنيسة . لان الكلمات التى استعملها قرار الاتهام نفسه برهان كاف لنقض هذه الاضاليل . بيد أن الاعتذار عما يعلن رؤوس الكنيسة صراحة وباجازة من حبرها الاقدس ازاء مذهب من المذاهب بقولهم « مناقض لنصوص الكتاب المقدس » . أو « مناف للمعتقد الصحيح »

أو « خطأ ومضاد للبديهة من وجهتي النظر اللاهوتية والفلسفية » . كما كان موقفهم ازاء مذهب « غاليليو » ، بأنه كان من الامور الموقوتة أو المشروطة على شيء ما ، لاسفاف هو بمثابة القول بان الحق الذي تستمسك الكنيسة بعراه ، عرضة لان يغشاه الباطل حيناً بعد حين . ومن هذا الميدان فر المدافعون عن الكنيسة أيضاً كما فروا من غيره .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل قام نزاع وثار جدل ، كان في بعض وجوهه أغرب من كل ما تقدمه وأعجب . فقد قيل « بان ضلع الكاثوليك في تحطيم « غاليليو » لم يكن بأكبر من ضلع البروتستانت لانهم كانوا أكثر من لاهوتيي الكاثوليك سعياً في حمل البابا على أن يأتي بما فعل » .

ولكن اذا كان في مستطاع البروتستانتية أن تجبر المقام البابوي على أن يمتد نفوذه الى هذا الحد في مسأله من أخطر المسائل التي انطوى تحتها كثير من مشكلات الدين والسياسة بالغة الاثر ، فماذا يكون أمر الاعتقاد « بعصمة البابا » وبان سلطته البابوية وحكمته الارشادية في مسائل الدين جميعها ، محوطة بالعناية القدسية من أن ينالها خطأ أو ينتابها زلل ؟

وبينما كان اللاهوتيون يتراجعون من موقع بعد موقع ، كان من ورائهم جمع من الجيوش الصغيرة العدد الضئيلة الأثر . فضت على العالم النصراني بصور من التلميح والتعريض ؛ وألوان من السفسطة . ولقد وجهت كل الجهود اذذاك الى غرض واحد هو تسويد ذكرى « غاليليو » من ناحية أخلاقه الشخصية . ولم ييأس أعداؤه أن يعيدوا الى الحياة

ذكرى ما كان فى أخلاقه من الشذوذ فى عهد صباه ؛ بل عمدوا الى تضخيم الصغائر ، وتكبير التافه من أمره . غير أن كل هذا كان ضئيل الأثر ، قليل الجدوى ، حتى انك تجد أن أعداء « غاليليو » ؛ حتى فى منتصف القرن التاسع عشر ، أى فى سنة ١٨٥٠ ، قد رأوا أن التراجع ضرورى مرة أخرى ، ولكن الى مواقع أخذوا يرسلون منها قذائف جديدة ، خصت بشيء من المهارة والدقة .

ان الوسائل الجديدة التى لجأت اليها اليها الكنيسة تستحق عناية الذكر . كانت المستندات الاصلية عن محاكمة « غاليليو » قد احضرت الى باريس خلال غزوات « نابوليون بونابرت » فى ايطاليا . ولكن الحكومة الفرنسوية ردتها الى روما سنة ١٨٤٦ ؛ بعد أن أخذت تلك الحكومة وعداً صريحاً من السلطات البابوية بطبعها ونشرها . وقدعهد الى المونسنيور « مارينى » - Marini - أن يكون واسطة نشرها على العالم .

كان هذا اللاهوتى من طابع اولاء من رجال الكنيسة الذين طالما رموا الكنيسة ، كما رموا العالم ، بالبلايا والسيئات . فعلى الرغم من الوعد الصريح الذى وعد به البلاط البابوى ، شاءت حكمة « مارينى » أو شاء غروره ؛ أن يكون أداة فى يد السلطات الرومانية ، تنكث بذلك العهد الكبير . وبكثير من الحذف والتحوير فى كثير من المستندات ؛ قد هيأ الاسباب لكل ضروب السفسطة والجدل الكلامى التى أريد بها تأييد عصمة البابا وصيانتها ، كما أريد بها تحطيم سمعة « غاليليو » ، أن تبقى جلية واضحة ، دون الحق الثابت . وكان « مارينى » أول من بث تلك الضلالة الكبيرة ، ضلالة أن « غاليليو » لم يحاكم ويحرم من

جراء هرطقته ، بل لقلة أدبه .

والظاهر أن الأثر الاول الذى أحدثه كتاب المونسنيور « مارينى » كان مفيداً فى الاحتفاظ بخط الرجعة الذى اتخذه المدافعون عن الكنيسة. ولقد كان فى مساعدة كتاب من أمثال « وارد » - Ward - أثراً فى وضع حائل يحول بين السلطات الرومانية وتذمر العالم الحديث .

غير أنه بعد قليل من الزمان ظهر باحث هو نقيض المونسنيور « مارينى » نزعة وأخلاقا . كان هذا الباحث رجلا فرنسويا ، هو مسيو « ليبنوا » - L'Epinois - على أن « ليبنوا » كان مخلصاً للكنيسة وفياً بعهدها ، كما كان « مارينى » ولكنه لم يكن كمارينى من حيث القدرة على الكذب والبهتان . فانه فى سنة ١٨٦٧ وصلت يد « ليبنوا » الى مستندات قضية « غاليليو » فى قصر الفاتيكان ، فنشر كثيرا من أشدها أهمية وأعظمها خطراً ، من غير أن ينقص منها أو يزيد اليها ، مسوقاً الى ذلك بنزعة الانصاف وحب الحق ، لا بشعور الورع ، ولا موحيات التقوى الكاذبة.

وبذلك تصدعت كل الحصون التى شيدت على ما جاء بكتاب المونسنيور « مارينى » . فتراجع عنها المدافعون عن الكنيسة الى مواقع أخرى. أصبح المدافعون عن الكنيسة بهذا على حافة الهاوية . ولهذا أخذوا يعدون العدة لاقتحام موقعة فاصلة ، بل لقتال اليأس والقنوط . فبدؤوا يحيون فكرة أن البابوات والكنيسة قد أهينت كرامتهم واستهزىء بهم قروناً طوالا ، معلنين أن بابوات روما « كبابوات » لم يحرموا قط آراء « كوبرنيكوس » و « غاليليو » ومذاهبهم الكونية ، بل حرموها ولعنوها بصفتهم الشخصية كناس يجوز عليهم الخطأ ، كما يجوز الصواب .

وعلى هـذا لا تتقيد الـكنيسة باعمالهم ، وان الاتهام والتحريم كانا من عمل الكرادلة وأعضاء محكمة التفتيش ومجمع الفهرست . لهذا غابت العناية القدسية يد البابا عن أن توقع على قراراتهم ! ! ! وما من شيء هو أبلغ تعبيرا ، وأفصح بيانا ، عن روح اليأس التى عشت فى قلوب المدافعين عن الـكنيسة ، من أمثال هذه المراوغات الغريبة . فان الحقيقة الو قعة أن قرار الاتهام الرسمى الذى أذاعه «بيلارمين» سنة ١٦١٦ يعلن صراحة وبدقة ، أنه انما يقرر ذلك الاتهام « باسم قداسة البابا » .

وعلى الرغم من هذا ، فانك تجد منذ عهد «إربان الثامن» ومن بعده أن سلطات الـكنيسة خلال القرن السابع عشر برمته . قد مضت معلنة أن القرار كان باسم البابا والـكنيسة . فان « إربان الثامن » قد أعلن أن قرار سنة ١٦١٦ من عمل البابا « بولص الخامس » والـكنيسة ، وأن قرار سنة ١٦٣٣ هو من عمله والـكنيسة معاً . كذلك قال البابا « اسكندر السابع » فى أمره البابوى - Speculatores domus Israel - الذى أصدره سنة ١٦٦٤ فى صراحة وبيان ، أنه يلعن ويحرم كل الـكتب التى تؤيد مذهب دوران الارض .

ولما أراد « غاسندى » - Gassendi - أن يدافع عن فـكرة أن القرار ضد « كوبرنيكوس » و « غاليليو » لم تجزه الـكنيسة ، قام ثقة لاهوتى هو الاب «ليكازر» - Lecazre - عميد جامعة «ديجون » ، وناقضه صراحة . معلناً ، انه لم تكن فئة من الـكرادلة ، بل هى سلطة الـكنيسة العليا التى اتهمت « غاليليو » ، وعلى هذا الرأى وافق من بعـد البابا وبقية السلطات الـكنسية . بالـكلام طوراً ، وبالبحث العميق طوراً آخر»

ولما حاول « ديكارت » وغيره أن يتكلموا في هذا الشأن ، قوبلوا بالاحتقار والازدراء . فإن الأب « كاستللي » وهو من أكبر أنصار «غاليليو» بل من المخلصين له الوفيين بعهده وكان علمه بما سوف يترتب على ذلك القرار ، لا يقل عن علمه بيد من وضع ، قد ظهر في كتابه الذي وجه به إلى السلطات الكنسية مقتنعاً بأنه من عمل الكنيسة وحدها وبلا شريك. وكذلك الكاردينال «كويرينغي» Que.engyin في خطاباته ، والسفير « جويشارديني » - Guicciardini - في بلاغاته و«بولاكو» - Polacco - فيما كتب مدحضاً أقوال رجال الكنيسة ، والمؤرخ « فيفياني » في ترجمته عن حياة « غاليليو »، وكلهم كتب تحت عين الكنيسة وبوحيها، قد مضوا على الاعتقاد بأن البابا والكنيسة كلاهما اتهم «غاليليو» ولم يرتفع من جانب «روما » صوت واحد ينكر ذلك أو يعارضه. ناهيك بأن محكمة التفتيش، ومن ورائها «بيلارمن» أكبر لاهوتيي ذلك العصر، قد قنعوا بهذا الرأي. وفضلاً عن حقيقة أن «بيلارمن »قد أعلن صراحة بأنه يقيم قرار الاتهام «باسم قداسة البابا » فلدينا الفهرست الروماني ، متضمناً قرار الاتهام أكثر من مائتي عام ، وهو مصدر بأمر بابوي واضح الغرض، يفرض أن هذا الاتهام صادر بموافقة كل التابعين للكنيسة ، وأنه مقيد لضمائرهم وخطرات نفوسهم ، صاباً اللعنة الابدية على — «كل الكتب التي تؤيد مذهب دوران الارض » . على أنه سرعان ما ظهر أن التغرير بالنفس في مواجهة كل هذه الحقائق ، مضافا اليها أن « غاليليو » قد أجبر على أن يقسم متاعاً عن « هرطقة الاعتقاد بدوران الارض » خضوعا لأمر كتابي من البابا ، كان بلا طائل أو جدوى .

لدينا تلقاء مايدعي المدافعون عن الكنيسة من أن البابا غير مسؤول، مجموعة هذه البراهين التي أدلينا بها ، مشفوعة بالامر البابوى الذى أصدره « الاسكندر السابع » سنة ١٦٦٤ . وهذا كاف فى التدليل على أن الموقعة قد ربحها العلم ، وخسرها اللاهوت .

عند هذا الحد وقف ذلك الصراع الكبير ، وعدل عنه رجال على المذهب الكاثوليكى خصوا بسعة الصدر وحسن النية . ففى سنة ١٨٧٠ اعتقد رجل من رجال الكنيسة الانجليزية ، ومن أخص المتعصبين للمذهب الكاثوليكى الرومانى ، هو الموقر مستر « روبرتس » - Rev. Mr. Roberts - أن الوقت قد حان للاعتراف بالحق ، فطبع كتاباً عنوانه « قرارات الحبر الاعظم ضد دوران الارض » وفيه أثبت أن السلطة البابوية استعملت كل وسائلها ، ومن بينها العصمة من الخطأ ، ضد نظرية دوران الارض . ولقد أظهر هذا الكاثوليكى الامين على الحق ، من المستندات الاصلية المحفوظة فى قصر الفاتيكان ؛ أن البابا « بولص الخامس » قد ترأس المحكمة التى أصدرت قرار الحظر ضد فكرة دوران الارض سنة ١٦١٦ والتى أجبرت « غاليليو » على الاقلاع عن مذهبه . وأثبت أن البابا « إربان الثامن » قد عمل جهد ما يستطيع سنة ١٦٣٣ لتوطئة الظروف لاتمام الاتهام الاخير ، متخذاً على نفسه عبء كل مسؤولية فى المستقبل . ودلل فى النهاية على أن البابا « اسكندر السابع » قد استخدم معتقد العصمة البابوية لتحريم « كل الكتب التى تبرهن على دوران الارض » ، بذلك الامر البابوى Speculatores - domus Israel - الذى أضيف الى الفهرست. وقال بعد ذلك إنه بناء على

القواعد التى وضعتها سلطات الكنيسة العليا ، وعلى الاخص فى عصر البابا « سكتوس » الخامس و « بيوس » التاسع ، لم يكن ثم مهرب من الوصول الى هذه النتائج .

ولقد حاول كثير من اللاهوتيين أن يتقوا قوة براهين مستر « روبرتس » بوسائل غير مجدية . فلجأ البعض مثل دكتور « وارد » - Dr. Ward - ودكتور « بووى » - Boux - الى مفارقات دقيقة ، وجمل خطابيــة منمقة ، وخفف آخرون مثل دكتور « جريمياه مورفى » - Geremiah Murphy - عن أنفسهم ثقل الصدمة بحماسيات مزخرفة . وكانت نتيجة كل هذا أن أبرزت المطابع طبعة أخرى من كتاب مستر « روبرتس » أكثر اقناعا من سابقتها ، وأنصع برهاناً . وفضلا عن هذا الكتاب ظهرت مقالة من قلم ذلك الكاثوليكى النابه مستر « سانت جورج ميفارت » - St George Mivart - اعترف فيها بأن موقف مستر « روبرتس » ثابت لايتزعزع ، معلناً ان الله القادر على كل شىء قد أوقع البابا والكنيسة فى ذلك الخطأ الفاحش تلقاء نظرية « كوبرنيكوس » ليعلمهم أن العلم خارج عن ميدانهم ، وأن القوامة على الحقائق العلمية متروكة للعلماء وحدهم دون غيرهم .

وفضلا عما تذرع به رجال الكنيسة من محاولات أرادوا بها حل تلك المعضلة ، وعلى الرغم من توسلاتهم ، فقد كفت صلابة مستر « جورج ميفارت » وأمانته لانهاء الخلاف الجدلى من بين الكاثوليك على قدر ما اتسعت لآرائه عقول النابهين منهم .

أما اذا أردنا أن نعيد هذه الذكرى للاذهان مرة أخرى خلال

هذا العصر الحديث ، فلا يسعنا الا أن نذكر جهدان صرفا نحو التوفيق بين الكنيسة والعلم ، فى ذكرهما فائدة ولذة ، لانهما يدلاننا على مقدار ما تولى اللاهوتيون من حيرة فى القرن التاسع عشر

أما الجهد الاول فبذله « جون هنرى نيومان » — John Henry — Neuman — فى تلك الايام التى تسكع فيها متراوحاً بين الكنيستين الانغليكانية والرومانية . قال فى احدى خطبه فى جامعة اكسفورد

« تقول التوراة بان الشمس تتحرك ، وأن الارض ثابتة . ويقول العلم بأن الارض تتحرك وأن الشمس ثابتة . كيف يمكننا أن نعرف أى الفريقين فى جانب الحق قبل أن نعرف ما هى الحركة ؟ فاذا كانت آراؤنا فى الحركة ليست سوى نتيجة اتفاقية تقتضيها حواسنا الحاضرة فكلا الفرضين غير صحيح ، وكلاهما صحيح . كلاهما غير صحيح من الوجهة الفلسفية ، فى حين أن كليهما صحيح لتأدية بضعة أغراض عملية فى النظام الذى توجد فيه كلتيهما »

وانك لن تجد فى كل ماظهر من المؤلفات المضادة للاهوت أنفسها من قول هو اكبر من هذا محاباة للشك ، ومحيثة لليقين . ومن أجل أى غرض أراد هذا اللاهوتى أن يرمى شباب اكسفورد فى أعماق ذلك الشك القاتل تلقاء وجود أى أساس للحق أو فى أنه موجود وجوداً مطلقاً ؟ لا لشىء . سوى أن ينقذ من الدمار أسلوباً محطماً من أساليب الفكر ، شاءت الاقدار أن يولد ذلك اللاهوت فى أحضانه .

وأما الجهد الثانى فقد أوحى به الى « دو بوناك » ونماعلى صفحات

« الدباين رفيو » بسعى أحد مشايعى الكردينال « نيومان » ، على ما عرف من أمره . ولم يكن ذلك الجهد بشىء اللهم الا التراجع من خط القتال بخدعة توجه ملامتها الى الله الواحد القهار . قيل — « غير أنه يمكننا أن نشك فى ان الكنيسة قد اعاقت خطا العلم عن أن تمضى فى التقدم والارتقاء ، لنقول بأن الذى أعاقها هو ذلك الظرف الذى اقتضى أن يضع الله كثيراً من متون التوراة فى قالب يشعر ظاهره بانكار دوران الارض . غير أن الله هو الذى فعل هذا لا الكنيسة . وفضلا عن هذا ، فان الله ما دام قد رأى ان الصالح فى أن تعاق خطا الحقائق العلمية عن أن تنبعث فى طريق النشوء زماناً ، فليس من لوم على الكنيسة ، حتى ولو صح ما ترمى به ، اذا هى احتذت المثال الذى اختطته يد الله واتخذته إماماً »

ولم تبعث هذه البراهين من شيء فى نفوس المفكرين بقدر ما بعثت فيهم من عوامل الاشفاق ، وبواعث الرحمة بقائليها . على أن لهذا الامر شبيه فى التاريخ . وما يشبهه الا تلك الجهود التى بذلها مستر « جوس » — Mr gosse — فى سبيل التوفيق بين علم الجيولوجيا وسفر التكوين بأن فرض أن الله ، لغرض يخفى علينا ولا نستطيع ادراكه ، قد خدع المفكرين خديعة كبرى ، بأن خط على لوحة الارض كل مظاهر النشوء خلال عصور متطاولة فى القدم ، بينما أن الحقيقة أنه خلقها فى ستة أيام ، كل منها نهار وليل لاغير

على أن تدليل « ده بونالد » كتدليل « نيومان » كلاهما جهد القانط اليائس ، الذى تمثل فى لاهوتيي الكنيستين ، الانغليكانية

والرومانية ، لتفوزا بإنقاذ شيء من اللاهوت المذهبي القديم ، أن تناله ، كما نالت غيره ، معاول الهدم والتحطيم .

ان هؤلاء وأمثالهم لم يغرسوا في قلوب المفكرين من أهل الحرية الا فكرة واحدة ، فكرة أن هنالك صراعا ضروريا بين العلم والدين مثلهم في ذلك كمثل رجل يربط نفسه ، وهو فوق اليابسة ، في مرساة سفينة أخذت تغرق بين لجات اليم المتلاطمة . فانهم ربطوا بين النصرانية وبين تلك الفكرات الخاطئة بأقوى خيوط استطاعوا أن يحيكوها من قواعد المنطق . ولو أن الغلبة قد تمت لهم ، لقضى على تقدم العلم والمعرفة قضاء مبرما .

* * *

وقد نتساءل من جهة أخرى : ماذا فعل العلم بالدين ؟ لم يفعل من شيء بل ان « كوبرنيكوس » لم يفلت من يد الكنيسة الا بالموت و « جيوردانو برونو » أحرق حيا كجبار من جبابرة الكفر والالحاد . و « غاليليو » سجن وأهينت كرامته كأخبث من أقلت الارض من الزنادقة . و « كبلر » اتهم بانه « يحاول أن يرى مملكة المسيح في احضان الفوضى بتخيلاته الفاسدة » . « ونيوتن » هوجم ولعن لانه « أنزل يد العناية عن عرشها » . ومن طريق هؤلاء أسس العلم للدين دعامة أقوى من دعاماته الاولى ليقوم عليها ، وزوده بحقائق وتصورات أنبل مما كان بين يديه ، وأهدى سبيلا .

تحت ظلال المذهب الفلكي القديم نشأ فلكي الامراء « الفونسو أوف كاستيل » Alfonso of Castille وهنالك رأى ما في نظرية بطليموس

من منافاة للهدى والرشاد ، وكان على جهل بتبيرها ، فرمى العالم الاوروبى بقذيفة من الكفر والالحاد اذ قال بانه لوكان حاضراً يوم خلق العالم لاقترح للكون نظاما أقوم من نظامه وأدنى الى الحكمة . وتحت ظلال المذهب الفلكى الحديث قال « كيبلر » مملوءاً ايمانا — « انى لاأستطيع أن أبلغ بفكرى الى معرفة فكر الله » . على أن الفرق بين الروح الدينية المنبعثة من صدر هذين الرجلين ، هو فى الواقع أكبر مقياس يقاس به مقدار ماأنتج العلم فى ذلك الصراع الكبير ، من فائدة للدين .

وما من شيء هو أبعد عن فضيلة الاقساط فى القول من أن تخص الكنيسة الرومانية بطابع خاص من اللوم والتقريع فى كل تلك المقاومة التى لقيها العلم من اللاهوت . فان الكنيسة البروتستانتية ، ولو أنها لم تستطع أن تبلغ فى كل الحالات من القوة مابلغت نظيرتها ، الا أنها تستحق من التقريع قسطا أوفى ، فان اضطهاد « غاليليو » وأنصاره قد وقع فى أوائل القرن السابع عشر ، فى حين أن اضطهاد مختلف السلطات البروتستانتية لامثال روبرتسون سميث ، وونشيل ، وودرو ، وتوى ، وشباب أساتذة بيروت ، كان فى نهاية القرن التاسع عشر !!! وكذلك لاننسى أن أنواع الاضطهاد التى أتاها الكاثوليك كانت ملائمة كل الملاءمة لتلك المبادىء التى عكف عليها الدينيون اذ ذاك ، كاثوليك وبروتستانت ، فى نواحى العالم كله . اما الاضطهادات التى ارتكب جريمتها البروتستانت فكانت لاسباب بعيدة جهد البعد عن تلك المبادىء التى تبعها البروتستانت ، أو التى يزعم البروتستانت انهم يتبعونها ، بل ولم ترتفع من ناحية صيحة بالالتجاء الى تلك المبادىء فكانت أعلى من صيحة تلك

الفئات التى اضطهدت رجالا من أنبغ رجال العصر ، وهم فوق ذلك نصارى تكونت جريمتهم فى نظر هؤلاء بأنهم كانوا من صفاء النفس ورجاحة العقل بحيث فقهوا حقائق العلم التى ذاعت لعهدهم ، وحماتهم شجاعتهم وأمانتهم على أن يعلنوا ثقتهم بها .

وليس من العدل فى شىء أن تلهج البروتستانتية بلوم الكثلكة لانها حرمت تعليم حقائق علم الفلك فى جامعات أوروبا الكاثوليكية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . فى حين أن العلم الحقيقى المنتزع من أبحاث الجيولوجيا والبيولوجيا والانثروبولوجيا قد أنكرت حقائقه كما حرم تعاليمه ، فى جامعات أمريكا البروتستانتية وكلياتها خلال القرن التاسع عشر .

كذلك ليس من حق البروتستانتية أن تشير بشىء من الاحتقار للفهرست الكاثوليكى ، ولا أن تعلق أهمية كبرى على أن كل كتاب ذا شأن فى عالم العلم ظهر خلال ثلاثة القرون الفارطة قد ضم اليه ليحرمه المؤمنون ، مادمنا نرى أن شباب عصرنا الحاضر يغذون فى الجامعات البروتستانتية الامريكية « بفتات من الخبز مشبع بعصير الكنيسة » أكثر مما يغذون بلباب المعرفة الصحيحة ، وأنهم لايعطون الا ما وافقت عليه سلطاتهم ؛ فى حين أنهم يظلون بعيدين عن الفكرة الحديثة فى العلم ، تلك التى بثها فى العصر الحديث رجال من أمثال داروين وسبنسر وهكسلى ودريبار ونيكى وغيرهم .

أما ما يحق للبروتستانتيه أن تفخر به فهو أن بعض نواحيها التي تنذت فيها نزعتها التعصبية قد تحررت بالفعل . غير أن الكثلكة يحق

لها أيضاً أن تشير الى حقيقة أن البابا « ليو » الثالث عشر Leo XIII قد أحدث تغييراً كبيراً ، ملؤه النبالة وكرم الاخلاق ، تلافاء مناقشة المستندات القديمة مناقشة حرة ؛ وأن أيام المونسنيور « مارينى » قد انقضت وعفت آثارها ، فان مكتبة الفاتيكان ، بما تنطوى عليه من المادة التاريخية ، قد فتحت أبوابها للباحثين من الكاثوليك والبروتستانت . بل قد أعطى هذا الحق لكل الناس على اختلاف نزعاتهم الدينية وتباين مذاهبهم .

أما الاخطاء القديمة ، فان العالم المتمدين جميعه قد وقع فى اغلاط كبيرة تلقاءها . تساوى فيها الكاثوليك والبروتستانت . ان تلك الاخطاء لم تكن اخطاء الدين . انها اخطاء المذاهب اللاهوتية التى استمدتها من نصوص الكتاب المقدس عقول خصت بالكثير من قصر النظر وضعف التدليل ، وهى فوق ذلك مناقضة للكلمات الحكيمة والاعمال الرشيدة التى تؤثر عن مؤسسى المسيحية . على أن تلك المذاهب كثيراً ما ينسبها الجاهلون الى نزعة الدين نفسه . ولقد قال أحد مشهورى اللاهوتيين من رجال الكنيسة الانغليكانية المعاصرين قولة حق أشار فيها الى — « أن هؤلاء اللاهوتيين لما اعيوا عن التمييز بين الفجر وبين الضوء المنبعث عن حريق امتد لهبها ، قد انصرفوا وهم أعداء النور والضياء » .

الفصل الثاني

علم الجغرافية

١ — صورة الأرض

الفكرة الاولى فى أن الأرض سهل منبسط — الكلدان — المصريون — الفارسيون — العبرانيون — تطور الفكرة فى كروية الارض عند اليونان — معارضة الكنيسة القديمة ـ تطور الفكرة في النظرية المقدسة المستمدة من التوراة والانجيل ـ قورماس إنديكوبليوستس يكمل النظرية المقدسة ـ تأثيرها في الفكرة النصرانية ـ بقاء الفكرة فى كروية الأرض ـ أزيدور وبده يقبلان النظرية ـ الجهاد في سبيلها وانتصارها .

* *

نجد بين كثير من القبائل المتوحشة بقايا فكرة أولية فى أن الارض عبارة عن قرص منبسط ، أو خوان مسطح ، عرشه السماء ، أو أن السماء قبة أو خيمة عظيمة تظلله ، وأن السماء ترتكز على الجبال ، كأنها أعمدة تحملها . ولامرية فى أن مثل هـذا الاعتقاد طبيعى صرف . فانه يوافق ظواهر الاشياء . ومن أجل هذا غزى ذلك المعتقد نواح كثيرة من مختلف المذاهب اللاهوتية .

ولقد نما هذا الاعتقاد وبلغ نهاية التطور فى عصور المدنية المصرية ومدنية الكلدان . أما النقوش الاشورية التى قرئت حديثاً ، فتمثل الآله

« مردخ » - M rduh - وقد أخذ فى البدء بخلق السماوات والارض . والأرض مستقرة على الماء ، وفى جوفها « وادى الموت » . ومن فوقها تنتشر السماء ، وهى عبارة عن قبة مسدولة عند آخر الافق من كل الجوانب مستقرة على قواعـد برزت من « اللج العظيم » الذى يحيط بالارض من جميع جهاتها .

وفى كلا الجانبين ، الشرقى والغربى ، من تلك القبة السماوية أبواب ، تدخل منها الشمس فى الصباح ، وتنزلق خارجة منها فى المساء . ومن فوق هذه القبة محيط عظيم ، ينحدر فى ذلك المحيط الذى يغشى الارض عند آخر الافق من جميع جهاتها ، وتقوم السماء كفاصل يفصل بين الارض وبين ذلك اللج المتـلاطم فوقها ، أن يصعقها انقضاضاً . ومن فوق كل هذا ، من فوق السماء والمحيط الذى يعلوها ، تكون عليون ، أو جوف السماوات العليا .

أما المصريون فاعتقدوا بأن الارض مائدة منبسطة مستطيلة الشكل وأن السماء عرشها ، وهى عبارة عن قبة زرقاء من المعدن الصافى . وفى أركان الارض الاربعة تقع العمد التى تحمل هذه القبة مستقرة عليها ، ومن فوق هذه السماء الصلبة تكون « المياه المتلاطمة التى تعلو السقف العظيم » . وكانوا يعتقدون بأن العالم عندما كان عماء - chaos - ، استطاع أحد الآلهة بقوته المفرطة أن يرفع المياه الى العلاء وأن ينشرها من فوق القبة الزرقاء. وفى السطح الاسفل من تلك القبـة أو السقف أو السماء الصافية ، أو ما شئت فسمها ، تعلق النجوم لتنير الارض ، وأن المطر انما يصيب الارض اذا فتحت نوافذ السماء فانحدرت مياه المحيط الاعلى منها . وهذه

الفكرة ، وغيرها من الفكرات ذات الآصرة بها ، قد استمكنت من معتقد الفئات الكهنوتية فى مصر ، وتغلغلت فى صميم لاهوتهم وفى علومهم المقدسة . وما تلك المعابد التى لاتزال قائمة حتى اليوم بعروشها المنمقة بالنجوم ،والكوكبات والسيارات ، والاشارات الدالة على مناطق البروج ، الا رمزاً حياً على ذلك المعتقد القديم .

ونجد فى بلاد فارس نظريات جغرافية قد قامت على أمثال هذه التصورات ثم اندمجت فى المتون المقدسة .

ومن هذه انآخذو من غيرها ، أعرق منها قدما ، انتقل الميراث الجغرافى الى العبرانيين . وانك لتجد فى كتبهم المقدسة جملاً عديدة ، خصت بالكثير فى رائع التصور وجمال الوضع ، ترجع بك ، اذا ما وقعت عليها ، الى كلا الفكرتين المتقدمتين حيناً بعد حين . فانك كثيراً ما تعثر على قولهم — « أساس الارض من فوق الماء » — « وينابيع الغور الأبعد » — و« الدائرة المحيطة بسطح الغور » — و «القبة الزرقاء » — و « أركان الارض » — و « أعمدة السماء » — و « نوافذ السماء وأبوابها » — الى غير ذلك من التعبيرات .

فلما أن ضربت الانسانية بقدمها الثابت فى معارج المدنية ، اختمرت فكرات جديدة ، ونشأت آراء بكر ، وعلى الاخص فى ثنايات العقل اليونانى ، تثبت كروية الارض . ولقد روج هذه الآراء كثير من رجال المدرسة الفيثاغورية ، وافلاطون وارسطو وثاليس ، وغيرهم : على أن هذه الفكرات كانت غامضة يكتنفها الابهام من نواح كثيرة ، وتلابسها المتناقضات العقلية . غير أنها كانت أول ما فرخ من جراثيم الحق ناقفة

شكل الارض وصورتها . وظلت هذه الجراثيم حية فى بيئة العقل متنقلة من جيل الى جيل ، حتى أسلم بها الزمان الى عقول اندمج فيها الاسلوب اللاهوتى فى الكنيسة النصرانية الاولى لدى إبانها ، فبدأت هذه الجراثيم تشق لها نحو الحياة الدنيا طريقاً مقتحمة أسياج اللاهوت ، متخذة عقول مجموعة صغيرة من النابهين المفكرين ميداناً لجهادها، فأبرزوا الى الوجود فكرة أن الارض كرة تارة أخرى .

من آباء الكنيسة عصبة خصت بالكثير فى بعد النظر وسعة العقل ، سلطت عليها تقاليد المدرسة الفيثاغورية ترجيحاً ، وفكرات افلاطون وارسطوطاليس تحقيقا . أرادوا أن يذعنوا للقول بأن الارض كرة ، لو لم تذعر الاغالبية العظمى من ذلك الرأى جانحته الى انكاره . فلقد خيل اليهم أنه مهدم لنصوص التوراة . وما عنوا بذلك فى الواقع الا أنه مهدم للتفاسير التى فسروا بها التوراة . لا لتوراة نفسها . وكان « إيوسيبيوس » -Eu s bius- أو من حمل السلاح وأعلن الحرب .

مضى « إيوسيبيوس » مقتنعاً بما جاء فى الانجيل من قرب فناء الارض وهلاك أهلها ، ولذلك نراه فى كل ما كتب قانعاً بأنه ليس من شأنه أن ينقض الفكرة فى كروية الارض لانها غير صحيح علمياً ، بل لان التفكير فى مثل هذه الاشياء جهد ضائع وعمل بائر . قال موجها الكلام الى الباحثين : « إننا لا نجب أن نفكر فى مثل هذه الاشياء . لا لأننا نجهلها ، بل لاننا نزدرى عملا ذهب نتائجه سدى . ولهذا نجب أن نوجه بأرواحنا فى سبيل أتم نفعاً وأسرع انتاجا » . وقال « باسيل » - Basil - الذى عاش فى « قيصرية » -Caesarea- « إنه لمن أتفه الاشياء

أن تعرف اذا كانت الارض كرة أو اسطوانة أو قرصاً أو انها مقعرة الوسط » . وأشار « لاكتانتيوس » - Lactantius - الى فكرة الذين يشغلون أنفسهم بعلم الفلك فقال بأنها فكرة « مرذولة معدومة النفع ، بعيدة عن الذوق » ، رافضاً القول بكروية الارض مستنداً الى التوراة والعقل معاً . وكذلك استغل القديس « يوحنا كريسوستوم » -John-Cry-ostom - نفوذه ضد هذا المعتقد. ولم تكن مقاومة « افرايم سيروس » - Ephraem Syrus - أكبر جهابذة الكنيسة السورية القديمة ، والذى كان يدعى دائماً « قيثارة الروح القدس » بأقل عناداً وعسفاً !

غير أن خواص أهل العلم الانجيلي ، ومنهم آباء ، ومنهم أساقفة ذوو شهرة ، من أمثال « تيوفيلوس » - Theophilus - الانطاكي فى القرن الثانى و « كليمان » - Clement - الاسكندرى فى القرن الثالث ، وغيرهم عديد تتابعوا خلال القرون المتتالية ، لم يقنعوا بأن يظهروا بمظهر الرافضين لنظرية قر رأيهم على أنها نظرية وثنية قديمة لاغير ، بل أخذوا يكونون ، مستندين الى أناجيلهم ، نظرية نصرانية جديدة ، تكونت على مر الزمان ، بأن أضافت اليها احدى الكنائس فكرة ، وزودتها أخرى بغيرها ، وهكذا دواليك حتى بلغت كمالها ومنتهاها . ولقد عمدوا الى ما وصل اليهم من التقاليد الكثيرة التى نقلت اليهم عن العالم القديم والى الآية السابعة من الاصحاح الاول من سفر التكوين [١] فضوا

(١) « وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد . وكان كذلك . ودعا الله الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً »

مَابتى اليقين بما جاء فى التوراة من اشارات فى أن الارض كانت عند خلق العالم مغطاة بقبة صلبة القوام أو — « قبة زرقاء » — وأضافوا الى ذلك ما عثروا عليه فى سفر أشعياء والمزامير . والتى جاء فيها أن السماوات منتشرة « كستار » أو « كخيمة يعيش فيها الاحياء » . إذن فالكون عبارة عن منزل ، أسفله الارض وعرشه القبة الزرقاء ، التى يعلق فيها الواحد القهار الشمس لتحكم النهار ، والقمر والكواكب لتحكم الليل . وأما السقف أو العرش فعبارة عن أرض سفلى اطابق أعلى فيه صهريج ، يقول فيه أحد ثقاة اللاهوتيين إن شكله يقارب شكل « حوض الحمام » المعروف ، ويحتوى على « المياه التى هى كائنة من فوق القبة الزرقاء »[*] . أما تلك المياه فقد تنصب على الارض بيد الله وملائكته من « نوافذ السماء » فتكون مطراً ، رذاذاً أو مدراراً . ولقد رجعوا فى حركة الشمس الى الاستشهاد بمقطوعات كبيرة فى سفر التكوين ، مزجوها بالغيبيات الميتافيزيقية مزجاً تختلف نسبته ، وظنوا بأن مجموع ما استمدوا من التوراة والانجيل كاف لأن يثبت بأنصع برهان وأقوى دليل ، أن الارض لا يمكن أن تكون كروية الشكل .

فى القرن السادس انتهى ذلك التفصيل بما يصح أن يعتبر نظاماً كاملا فى حقيقة الكون ، مستمدة أسسه من نصوص التوراة والانجيل . كان واضع هذا النظام الراهب المصرى « قوزماس إنديكوبليوستيس »

---

[*] « وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة . وكان كذلك . ودعا الله اليابسة أرضاً . ومجتمع المياه دعاه بحراً . ورأى الله ذلك أنه حسن — الخ الخ . عن الاصحاح الاول من سفر التكوين .

- Cosmas Indicopleustes - والحقيقة أن مصر قد ظلت نبعاً فياضاً ينضح بمختلف الآراء اللاهوتية التي انتحلتها كثير من الديانات القديمة. والواقع أن « قوزماس » قد نجح في أن يلزم الكنيسة الاولى تلك المعتقدات المصرية العتيقة التي بثت في تضاعيف الكهنوت المصري في حقيقة العالم، كما ألزم الكنيسة كاهن مصري آخر هو « أتناسيوس » - Athansius - المصري فكرة الاقانيم الثلاثة المندمجة في خالق واحد، يحكم نظام الكون كله.

قال « قوزماس » بأن الارض عبارة عن معين منبسط، تحيط به بحار أربعة. ويبلغ اربعمائة يوم سفراً طولا، ومائتي يوم عرضاً، وفي حدود هذه البحار الاربعة الخارجية تقوم جدران عظيمة القدر هائلة الحجم، تحوي كل ذلك البناء الكبير وتحمل من فوقها تلك القبة السماوية، وقد ثبتت أطرافها الى أعلى الجدران بمادة فيها صفة الالتصاق.

قام هذا النظام على طريقة التفكير اللاهوتية وعلى العلم اللاهوتي، وظن أنه أحكم نظام وصل اليه العقل الانساني، وأنه أكثر النظم انطباقاً على حقائق التوراة والانجيل. ولقد أيقن قوزماس، وغيره من مفسري عصره، بأن حقائق الاصحاح التاسع من رسالة العبرانيين [١] لدى

---

(١) « ثم العهد الاول كان له أيضاً فرائض خدمة والقدس العالمي. لانه نصب المسكن الاول الذي يقال له القدس الذي كان فيه المنارة والمائدة وخبز التقدمة. ووراء الحجاب الثاني المسكن الذي يقال له قدس الاقداس فيه مبخرة من ذهب وتابوت العهد مغشى من كل جهة بالذهب الذي فيه قسط من ذهب فيه المن وعصا هرون التي افرخت ولوحا العهد . وفوقه كاروبا المجد مظللين الغطاء . أشياء ليس لنا الآن أن نتكلم عنها بالتفصيل

الكلام فى الهيكل، يفتح مغاليق النظام العالى أمام العقل البشرى . وعلى هذا اعتقد أن الكون قد وضع على منال الهيكل العبرانى ؛ فهو إذن أشبه بعلبة مستطيلة الشكل . ولما أن عمد الى التفاصيل رجع الى سفر أشعياء حيث يقول — « الجالس على كرة الارض وسكانها كالجندب الذى ينشر السماوات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن » . (١) والى مقطوعة من سفر أيوب تذكر « عمدان السماء » . ولقد كون من مجموع هذا نظاماً، متخيلا أنه قد أوحى اليه بأسرار العلم ومغمضات الكون الأوسع .

أما تلك العلبة العظيمة فتنقسم الى قسمين أو دورين أحدهما فوق الآخر . ففى الدور الاول يعيش الناس وتتحرك الكواكب . وهو يمتد ارتفاعا الى القبة الصلبة الاولى ؛ أو القبة الزرقاء، التى يعيش من فوقها الملائكة الذين وكل اليهم، كجزء من عملهم، أن يدفعوا عنهم ثم يجذبوا اليهم الشمس والسيارات رواحا وجيئة .

ثم عمد بعد هذا الى سفر التكوين مستنداً الى الآية المعروفة —

ثم اذا صارت هذه مهيأة هكذا يدخل الكهنة الى المسكن الاول كل حين صانعين الخدمة، واما الى الثانى فرئيس الكهنة فقط مرة فى السنة — الخ الخ الاصحاح التاسع من رسالة العبرانيين .

(١) « ألا تعلمون : ألا تسمعون : ألم تخبروا من البداءة : ألم تفهموا من اساسات الارض : الجالس على كرة الارض وسكانها كالجندب الذى ينشر السماوات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن » — الاصحاح الاربعون من سفر اشعياء .

« وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه » [١] والى غير ذلك من الآيات . ثم ينتهى الى المزامير حيث تذكر « سبحيه ياسماء السموات ويأيتها المياه التى فوق السماوات » . [٢]

ولقد ترى « قوزماس » بعد التوسع الكبير فى هذه الآراء والنصوص يصب الجميع فى إناء واحد ليحمى عليها من وقود خياله حتى تنضج ، فتخرج نظرية قوامها أن فوق القبة السماوية الاولى ، حوض عظيم يحوى « المياه » . ثم يعود ثانية الى سفر التكوين مستنداً الى القول « بنوافذ السماء » ليضع نظرية أخرى يعالج بها سقوط المطر على الارض فيزعم بان الملائكة لايقتصر عملهم على رفع الاجرام السماوية وجذبها رواحا وجيئة لتنير الارض ، بل انهم مكلفون فوق ذلك بفتح نوافذ السماء وغلقها ليطفئوا ظمأ الارض ويحيوا مواتها .

ولما أراد « قوزماس » أن يفهم كيف يتكون سطح الارض ، رجع الى أسلوب التفسير الذى أتبعه « أوريغن » ــ Origer ــ وغيره من آباء الكنيسة فى عصورها الأولى ، وأكب على درس مائدة الخبز المقدس ــ خبز التقدمة ــ التى تكون فى الهيكل العبرانى . ولقد أثبت

---

(١) الاصحاح الاول فى سفر التكوين

(٢) « هللويا ، سبحوا الرب في السموات ، سبحوه فى الاعالى ، سبحوه ياجميع ملائكته ، سبحوه يا كل جنوده ، سبحيه يا ايتها الشمس والقمر ، سبحيه يا جميع كواكب النور ، سبحيه يا سماء السموات ويأيتها المياه التي فوق السموات لتسبح اسم الرب لانه امر فخلقت وثبتها الى الدهر والابد. ووضع لها حداً فان تتعداه » ــ عن المزمور المائة والسابع والاربعين :

سطح تلك المائدة « لقوزماس » أن الارض سهل منبسط انبساطاً ، كما أثبت اتساعه أن عرض الارض هو بمقدار نصف طولها .

أما أركانه الاربعة فتمثل فصول السنة ، الصيف والشتاء والربيع والخريف ، وتشير الاثنى عشر رغيفاً التي توضع فوقها الى شهور السنة . والفراغ الذى يحيط بتلك المائدة انما يرمز به الى المحيط العظيم الذى يغشى الارض من جميع جهاتها . ومن أجل أن يعالل حركة الشمس ، اعتقد « قوزماس » أن عند طرف الارض الشمالى يقع جبل عظيم ، خلفه يكون مقر الشمس أثناء الليل . غير أن بعض الذين عاقوا على كتاباته قد أبدوا بعض الشك فى هذه الفكرة ، ليقولوا بان الشمس انما تدفع الى حفرة اذا جن الليل ، ثم ترفع منها عند تنفس الصباح .

وما من شىء هو ابعث على الانفعال الهادىء من تلخيص « قوزماس » لجمل نظرياته الكونية ، اذ يقول « لهـذا تقرر مع « أشعياء » بان السماء التى تتضمن هذا الكون الفسيح عبارة عن قبة صلبة القوام ، ونقضى مع « أيوب » بأنها متصلة بالارض ، ونسلم مع « موسى » بان طول الارض أعظم من عرضها » . ولم ينته من مقالته هذه الا وهو يؤكد أن ليس موسى والانبياء وحدهم ، بل الملائكة والحواريون أيضاً ، متفقون على ما فى مذهبه من حق ، وأن الله فى اليوم الآخر سوف ينزل غضبه على كل من لايسلم به ، أو يتشكك فيه .

وهذه النظرية ، على الرغم من أنها مستمدة من نصوص التوراة ، فانها كما رأينا من قبل ، نتيجة تطور طويل فى الفكرة اللاهوتية ، أخذت بوادره تظهر فى ثنايا العقل الانسانى من قبل أن تكتب

أسفار التوراة والأنجيل والمزامير بزمان طويل . وليس من غرابة فى أن « قوزماس » وهو مصرى كما تعرف ، يعمد الى هذا المذهب الذى نشأ وترعرع على ضفاف النيل وفوق أرض مصر منذ أبعد عصور المدنية وعلى الصورة التى نراه ممثلا بها فى النقوش التى لاتزال قائمة على جدران المعابد المصرية القديمة ، وأن يشد ذلك المذهب من أطرافه مستعيناً بأسفار التوراة العبرانية ، حتى يخرج منه بمذهب يدمجه من تضاعيف المعتقد النصرانى . غير أن عالم اللاهوت بأجمعه كان على جهل تام بحقيقة ذلك التطور الاولى الذى بدأ فى عصور الوثنية . فان نظرية « قوزماس » قد قبلت على أنها وحى أنزل على قايه ، وما لبثت أن اعتبرت فى عالم الدين كحصن حصين ثابتة أسسه على الاسفار المقدسة . ولقد وقف كثير من جهابذة الكنيسة أنفسهم على تنمية هذا المذهب ، عاملين على تقويته بكثير من نصوص الكتب المنزلة حيناً ، أو متوسعين فيه من طريق الاسلوب اللاهوتى حيناً آخر ، اما المؤمنون فاعتبروه هبة عظمى حباهم بها الواحد القهار ولقد ظل هذا المعتقد ثابتاً حتى نهاية القرون الوسطى . فانك ترى « يوحنا سان غنيميانو » John st Genemºeno ـ قد بذل أقصى الجهد فى الدفاع عنه ، والنضج عن حياضه . ولقد حذى حذو « قوزماس » فى أن يتخذ الهيكل العبرانى لآرائه عمادا ، مظهرا كيف أن الفكرات الحديثة فى شكل الارض وسعتها وزينتها من الممكن التوفيق بينها وبين النصوص الانجيلية المنزلة .

من هذا المعتقد القديم فى حقيقة الكون وأنه عبارة عن سكن أومنزل ، السماء طابقه الاعلى ، والارض طابقه الاسفل ، فاضت آراء

لاهوتية كثيرة حشيت بها الميثولوجيا الوثنية واليهودية والنصرانية؛ وفى تضاعيف تلك الميثولوجيا تغلغلت اساطير عن ذوات فانية ارادت أن تصل الى طابق الكون الاعلى، متساقة من طابقه الاسفل. ومن اخص هذه الاساطير تلك الأسطورة اليونانية التى نشأت حول اسم «ألويدا» — Aloidae — الذى حاول أن يصل الى السماء بأن يجمع الجبال اكداساً بعضها فوق بعض، ولكنها تحطمت وصعقت للحضيض. ومنها الاساطير الكلدانية والعبرانية فى ذلك الجبار الذى أراد أن يبنى فى «بابل» ـ Babel ـ «برجا يصل من فوق قمته الى السماء» ـ ذلك البرج الذى تدلى الحى القيوم، على معتقدهم، من عليين، ليمتع به نظره ويراه، فأمر باختلاف الالسنة واللغات، ليقف امامه، ويصد بانيه عن غرضه. ومنها الأسطورة الهندية فى تلك الشجرة التى أرادت أن تبلغ الى السماء ارتفاعا واعاقها «براهما» ـ Brahma ـ ومنها الاسطورة المكسيكية فى أولئك الجبابرة الذين أرادوا أن يبلغوا السماء ببناء هرم «شولولا» ـ Cholula ـ والذى انصبت عليه من السماء نيران جعلته قاعا صفصفاً.

ولقد كانت هذه الفكرة الجغرافية سبباً فى انتشار اساطير ظلت حية وارفة الظل آلافاً من السنين، فالصعود الى السماوات العلى، والهبوط منها، ورفع الاحياء إلى السماء، وانتقال الموتى اليها بعد أن يقضوا نحبهم فى هذه الحياة الدنيا، والتبشير السماوى، وقبض الذوات الفانية فى السماء ورجوعهم الى الأرض، وطيران الملائكة فى الفضاء بين الارض والسماء، والصواعق المنقضة منها، والرياح الزعازع المنبعثة على الارض

من جوانبها، والاصوات التي تخاطب من الطابق الاعلى رجالا في الطابق الأسفل، وفتح أبواب السماء أحيانا لانزال الرحمة والخير على العباد الصالحين، والاشارات والعجائب التي تظهر في السماء لارهاب الاشقياء الطالحين، إلى غير ذلك من صنوف العلاقات، من المعتقد الوثني في هبوط الآله الى الارض لتأدية كل صنوف الرسالات الشفوية، ونزول الحي القيوم الى « جنة عدن » ليتنزه لدى اعتدال الهواء اثناء النهار، الى معتقد النصارى في انقضاض « القديس بولص » على سوق « البندقية » ليحطم الاغلال، التي صفد بها عبد من العبيد، كل هذه الاشياء صور مختلفة تشكلت فيها الاساطير الدينية التي قامت على تلك الفكرة الجغرافية، متطورة من صورة الى اخرى على مر الاجيال.

غير أن خطا النشوء والتطور في تلك الفكرة لم تقف عند هذا الحد. فمن الطبيعي أن يعتقد كل من ينظر في حقيقة العالم هذه النظرة، بان السماء ما دامت علاء، فان جهنم (١) لابد من أن تكون حضيضاً. وأن الرفع الى الاولى يناظره الاهباط الى الثانية. وما دامت جهنم على ماترى من القرب الى الارض، فانه من الطبيعي أن يستطيع سكانها أن يتدخلوا في أعمال اهل الدنيا تدخلا مباشرا دائماً، وأن يكون تدخلهم موضوع بحوث مستفيضة تحشى بها بطون الكتب خلال القرون الوسطى. ولقد كان لهذا الموضوع من عبقرية « دانتي » نصيب وافر، فانه استطاع بما خص به من قوة الوصف أن يجلو سر هذا التصور، تصور جهنم

(١) جهنم اصلها « جوهنو » او « وادي هنو » وأصل الكلمة كنعاني على الارجح « معرب »

وسكانها ، معبوباً فى قالب واضح من لغته الساحرة ، حتى لقد ظلت بعض الصور التى تقلبت فيها هذه الفكرة سياجاً حصيناً صد البحوث الجغرافية عن أن تنبعث فى سيباها المحتومة زماناً . فان كثيراً من السياح الذين لم تكن لترهبهم الانواء ولا قوة القرصان ، قد انثنوا عن عزمهم خائفين من أن تبتلعهم وسفينهم فوهة من فوهات جهنم ، التي كان يعتقد فى ذلك الزمان اعتقاداً عاما ، بانها تقع فى عرض المحيط الاطلانطيقى ، وعلى مسافة غير معروفة من شاطيء أوروبا. وكان هذا الخوف الذى استمكن من قلوب السائحين المقتحمين لمخاطر البحار ، صعوبة من اكبر الصعاب التي قامت فى وجه « خريستوف كولمبوس » لدى أول شروعه من رحلته المبرورة . ولقد عثرت فى كتاب هو بمثابة متن مختصر اراد واضعه أن يعبر فيه عن حقائق العلم فى صورة محاورة كتبت فى القرون الوسطى ، على السؤال والجواب الآتيين :

— لماذا تكون الشمس شديدة الاحمرار عند المساء ؟

— لانها اذ ذاك تكون مواجهة لجهنم !

غير أن جرثومة الحقيقة العلمية ، التى فرخت فى العقل الانسانى خلال العصور الاولى ، كانت لاتزال حية . جرثومة الاعتقاد بالحقيقة الجغرافية الكبرى فى كروية الارض . وعلى الرغم من أن العديد الاوفر من آباء الكنيسة الاولين ، وعلى الاخص « لاكتانتيوس » قد نصبوا أنفسهم للقضاء على هذه الحقيقة وتحطيمها مستندين الى الاقوال المنسوبة الى « أشعياء وداود والقديس بولص » فان الفكرة الصحيحة التى تكونت فى عقل « إيودكسس » — Eudoxus — وأرسطوطاليس لم تنس ولم يلغها

العقل الانسانى فى القرون الوسطى . ولقد أيد هـذه النظرية « كليمان الاسـكندرى » و « أوريغن » ، كما أجازها القديس « أمبروز » — st Ambrose — و « القديس أوغسطين - st Augustine - وبعـد أن ظل نفوذ « قوزماس » قرنًا من الزمان مبسوطًا على العقل الاوروبى مخيما عليه بسلطانه ، عادت هذه النظرية فاستمدت روحًا وحيـاة من إيزيدور الاشبيلى» — Isidore of Seville — وهو من أكبر رجال الـكنيسة الذين عاشوا فى جنوبى أوروبا ، ومن الذين ضحوا كثيراً من حقائق العلم انتصاراً لوحى اللاهوت ، ولـكن هذه النظرية شذت عن القاعدة اتفاقا . وفى القرن الثامن صادفت هذه النظرية تعضيداً آخر . إذ أعلن « بيده » — Bide — وكان من أوسع رجال الـكنيسة نفوذاً فى شمالى أوروبا ، مشايعته لها . وعبثا ما كان من أمر الذين يؤيدون النظرية المقدسة فى شكل الارض ، فان الحياة الجديدة التى تمثت فى تضاعيف الحق القديم الموروث عن العالم الوثنى ، قد زادت قوة ، على الرغم مما أعان عليها من الحرب ، وصنوف الاضطهاد طويلا . ولقـد أذعن للحقيقة رجال ثقاة عاشوا فى أواخر القرون الوسطى أمثال «البرت الـكبير » — Albert the Great — والقديس « توماس أ كوناس » -st Thomas Aquinas- و « دانتى » ـ Dante ـ و « فنسنت بوفييه » — Vincent Beauvais — ، اذ شعروا بضرورة الاعتقـاد بكروية الارض ، كما انك كلما تقدمت على الزمان خطوة بالغا حـدود العصور الحديثة ، ألفيت أن العديد الاوفر من المفكرين قد قبلوا هذه الحقيقة واعترفوا بصحتها . أما القائمون بحركة « الاصلاح البروتستانتى » فلم

يذعنوا لهذه الحقيقة كل اذعان بداءة ذى بدء . فان «لوثر» Luther «وميلانكوتون» Malancholon و«كالفن» Calvin كانوا ثابتي اليقين فيما يوحى به ظاهر التوراة . حتى انك لتجد أن « زونيجلي » Zwingli على الرغم مما خص به من سعة الفكر كان جامداً كل الجمود ازاء هذه الحقيقة ، ومضى قانعا بما أوحى به آباء الكنيسة من آراء فى القبة السماوية العظيمة أو السقف ، الذى يفصل بين السماء والارض . بل اعتقد بما كانوا يقولون به من وجود ذلك اللج العظيم المعلق فوقه والملائكة ، ومن تحته الارض والناس .

وكان الفرض الذى رمى اليه زعماء الاصلاح البروتستانتى من النظر نظرة مستقلة فى هذا الموضوع العام ، هو الانصراف مع تأملات فاسدة فى الكون وفى تضمنه لجنة الخلد ، وفى حقيقة الخطاب الذى دار بين الافعى وبين حواء ، وأمثال ذلك .

ولقد زادت الحالة سوء خلال الزمان الذى عقب حركة الاصلاح مباشرة . فان التفسيرات التى فسر بها « لوثر » و « ميلانكوتون » آيات التوراة قد أصبحت فى نظر أتباعهم مقدسة كنصوص التوراة نفسها . ولما ان جرأ « كالكست » - Calixt - لدى تفسيره المزامير ، على أن يناقش المعتقد الثابت فى حقيقة « أن المياه الكائنة من فوق السماء إنما يحويها وعاء عظيم تعضدة قبة صلبة القوام » لم ينل الا الطرد من الكنيسة منبوذاً جزاء هرطقته .

فى الجزء الاخير من القرن السادس عشر فسر « موساوس » - Musaeus - عبارات سفر التكوين على اعتقاد ان الله خلق السماء باعتبار

أنبا سقف أو قبة ، وتركها ثلاثة أيام تهتز متراوحة اهتزاز الرقاص ، حتى وضع الارض من تحتها فثبتت . غير أن الفكرة العلمية فى حقيقة صورة الارض ربحت الموقعة وتم لها النصر. فإن أكثر المؤمنين ثقة بما تنم عليه ظاهر الاسفار المقدسة لم يلبثوا أن اضطروا الى اتباع طريقة التوفيق بين هذه الحقيقة ، وبين نظرياتهم اللاهوتية ، جهد ما استطاعوا.

تخطيط الكرة الارضية

اعتقاد كل أمة من الامم القديمة بان مكانها المقدس هومركز الارض — اعتقاد العبرانيين بان أورشليم مركز الارض — قبول هذا المعتقد في العالم النصراني — تأثير معتقدات عبرانية أخري — يأجوج ومأجوج — الرياح الاربعة — وقوف المياه كتلة واحدة .



ثبت عند كل أمة من الامم القديمة ، على وجه الاطلاق ، اعتقاد بان مدينتها الكبرى ، أومكانها المقدس ، هوبالضرورة مركز الارض .

فاعتقد الكلدانيون بان « بيت آلهتهم المقدس » هو المركز . في حين أن المصريين خططوا الارض على صورة شبح بشرى ، مصر قلبه وطيبة وسطه ومركزه . اما الاشوريون فكانوا على أن المركز « بابل » والهنود على أنه جبل « ميرو » MountMeru اماالبونانيون ، فاعتقدوا بانه جبل «أولمبوس». Olympus أومعبد«دلفوس» Delphi والمسلمون على أنه مكة وحجرها المقدس . (١) ولا يزال الصينيون يسمون أمبراطوريتهم حتى اليوم « الدولة الوسطى » . واتباعا لهذه القاعدة ، وعلى مقتضى نزعات العقل البشرى ، خيل الى العبرانيين بان أورشليم مركز الدنيا .

وينص سفر « حزقيال » Ezekiel على أن أورشليم انما تقع في

---

(١) الحجر الاسود

مركز الارض ، وكل ماعداها من بقاع العالم يقع حفافى المدينة المقدسة .
وظل هذا الاعتقاد خلال كل « عصور الايمان » معتبراً عند جميع الناس
وحياً أنزله الواحد القهار ليعرف الناس صورة الارض من طريقه . ولقد
أعان « القديس جيروم » ـ Jerome ـ أكبر ثقاة الكنيسة الاولى فى
العلم الانجيلى ، معتمداً على ماأتى به « حزقيال » من أن أورشليم لايمكن
أن تكون فى مكان ، مالم تكن فى مركز الارض . ورجع من بعد
ذلك « رابانوس موراس » Rabanus Maurus وكان رئيس أساقفة فى القرن
التاسع ؛ يجدد من شباب هذه الفكرة ، ويبعث فيها حياة جديدة . وفى
القرن الحادى عشر أخذ « هيو أوف سان فيكتور » ـ Hugh of st Victor ـ
ايؤيد هذا المذهب بنصوص استمدها من التوراة . ثم أعلن البابا « إربان »
فى خطابه العظيم فى « كليرمون » ـ Clermont ـ ليحرض الفرنجة
Franks على القيام بالحروب الصليبية « بان أورشليم هى فى مركز الارض
لاوسط وذكر سيزاريوس أوف هيسترباخ Ceasarius of Heisterbach
وكان من مشهورى اللاهوتيين فى القرن الثالث عشر ، معانياً
« أنه كما يكون القلب فى مركز الجسم ، كذلك تقع أورشليم فى وسط
أرضنا المسكونة » واثقاً من « أنه لهذا السبب صلب المسيح فى مركز
الارض . » وقبل « دانتى » ـ Dante ـ هذه الخرافة على أنها حقيقة واقعة .
وبثها فى تضاعيف أشعاره الخالدة . وكذلك تجد فى كتاب السياحة
المنسوب الى القديس « يوحنا منذفيل » ـ John Mandville ـ وكان كثير
الذيوع خلال القرون الوسطى ؛ أن أورشليم انما تقع فى مركز الارض .
وأنه إذا رشق هنالك فى الثرى رمح بحيث يكون أفقيا تماما ، فانه لايلقى

بطال ماعلى خط الاعتدال .

ولقد أصبحت تقريرات « حزقيال » مثال مايحتذى أهل الاورثوذكسية من واضعى الخرائط الجغرافية فى العصور الاولى . واقد دت الخرائط الجغرافية التى وضعت إذ ذاك ، وعلى الاخص خريطة العالم المحفوظة فى كاتدارئية « هيرفورد » - Hereford - والخرائط التى وضعها« إندريابيانكو » ـ Andrea Bianco ـ و « مارينو سانوتو » - Marino Sanoto - وكثير غيرهما ، الى نتيجتين : أولاهما هى أن ينبت أهذا الاعتقاد فى أذهان الناس ، وثانيتهما : هى أن يبعث المعتقد العام من النشيط فى همم الباحثين الذين حاولوا أن يثبتوا خطأ هذا المذهب، ماقعد بهمتهم طويلا .

على أن المفكرين فى القرون الوسطى لم يقفوا عند هذا الحد. فانهم خضعوا لوجهة النظر التى سادت فى تلك الازمان . والتى كانت تلزم الناس الاعتقاد بأن الحقائق الفوسيقية . لا ينبغى أن يبحث عنها فى حيز خارج عن ذلك الحيز الذى حددته المقولات اللاهوتية . تطور ذلك المذهب تطوراً خطيراً ، محصله أن ليس موضع الصليب فى مدينة القدس هو الذى يحدد مركز الارض الجغرافى لاغير ، بل أن فى هذه البقعة التى دم عليها الصليب نبتت الشجرة التى حملت تلك الثمرة المحرمة فى جنة الخلد . وعلى هذا نجد أن العلم الجغرافى قد بلغ حداً استطاع عنده الباحثون أن يصبوه فى قالب محبوكة أطرافه على المعتقد اللاهوتى .

ولقد فرح المؤمنون بما أتاهم به ذلك المذهب من علم . ولا يدلك على هذا من شىء مثل تلك الكتب التى نشرها مهاجرون هبطوا الى

فلسطين فى القرون الوسطى . فان هذه الكتب تزودك فى طوال تلك العصور ببراهين تثبت لديك حيناً بعد حين ، أن هذا المذهب قد أصبح من أعز الحقائق التى يفخر بها المؤمنون سواء أفى الجغرافيــة أم فى اللاهوت . ولقد ظل هذا المعتقد ثابتاً حتى أواخر القرن السابع عشر، حتى انك لتجد أن الكاهن الفرنسوى المشهور « إيوجين روجر » - Eugene Roger - فى كتابه الذى تكلم فيه عن سياحته فى فلسطين عام ١٦٦٤ يعمد الى الاصحاح الثامن والثلاثين فى سفر « حزقيــال » ، والى نصوص فى سفر « أشعياء » - Isaiah - ليثبت أن مركز الارض الحقيقى يقع فى نقطة على رصيف الكنيسة التى تتضمن القبر المقدس . وأن فى هذه النقطة نبتت الشجرة التى جاءت الثمرة الملعــونة ، وقام الصليب الذى صلب عليه المسيح .

ولم يكن هذا التصور الباطل وحده هو الذى شق لنفسه طريقــاً الى الخرائط الجغرافية التى صنعت فى القرون الوسطى فهنا لك تصوران يظهران جليين على صفحة تلك العصور .

الاول — ذلك الفزع المبهم الغامض الذى ألقــاه فى روع الناس اعتقادهم باطلا بيأجوج ومأجوج . وقليــلا ما تجد فى العهد القديم — التوراة — من مقاطيــع تفوق فى عظمتها وروعتها تلك التى أوردهــا « حزقيال » فى تعذيب هؤلاء الاعداء الالداء . ناهيك بتلك المقطوعة المعروفة فى سفر رؤيا « يوحنا » اللاهوتى - Apocalypse - فانها قد ربطت بين الشعور العبرانى تلقاء يأجوج ومأجوج ، وبين تصور جديد نبتت أصوله فى صميم الكنيسة النصرانية الاولى . ولهذا تجد أن واضعى الخرائط

الجغرافية فى القرون الوسطى قد عانوا أشد النصب فى تصوير هذه المسوخ المفزعة، وتحديد مواطنهم على الخرائط . ومضت قرون طوال والناس يعتقدون أن أية خريطة جغرافية خالية من ذكرهم، لا يمكن أن تنال رضاء المحافظين من أصحاب الكنيسة .

أما التصور « الثانى » فيستمد مما ذكر فى الاسفار المقدسة عن « الرياح الاربعة » . ولقد قام على هذا التصور اعتقاد ثابت فى حقيقة وجود هذه الرياح ، فظهرت رموزها على الخرائط الجغرافية فى صورة أدمغة ضخمة الحجم ، منتفخة الوجنات ، ترسل رياحاً زعازع فى اتجاه أورشليم .

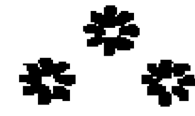
ولقد نجد ، حتى بعد ان زالت هذه التصورات واكتسحت من عالم الفكر الانسانى ، دلائل توحى الينا بين حين وحين ، أن الناس قد عانوا أشد الصعاب وأمض الشكوك فى رفض تلك الفكرة التى قامت على تفسيرات فسرت بها الاسفار المقدسة ، والتى كانت تلزمهم الاعتقاد بأن سلطات السماء إنما تتدخل تدخلا فعلياً مباشراً فى تسيير الظاهرات الطبيعية الواقعة من حولهم . وآية ذلك ، أنك تقع على خريطة جغرافية وضعت فى القرن السادس عشر منات الارض بكرة . وفى كل من قطبيها ذراع مانتو . وبجانبه ملك يجد عاملا على تحريك الارض بهذا الذراع حول محورها . وترى فى خريطة أخرى أن يد الله قد امتدت من بين السحب رافعة الارض بحبل متين يفتله بين إبهامه وسبابته لتدور الارض . حتى اذا ماانحدرت مع الزمان الى أواسط القرن السابع عشر الفيت « هايلين » - Heylin - أشهر نقاة الجغرافيين من الانجليز ، قد نزع طافراً الى المزج

بين العلم واللاهوت . فقد حاول أن يجعل أحدهما يؤيد الآخر على الطريقة التالية .

« المياه مع الارض كتلة واحدة ، ولكن المياه أعلى من الارض . أولا — لان الماء ان كان جسما الا أنه أقل من الارض ثقلا . وثانياً — لان المسافرين بحراً قد لاحظوا أن سفنهم تسرع حركتها كلما أقدمت على الشاطىء كما تقل اذا مضت مبتعدة عنه ، وأن لاسبب لذلك الا أن المياه أعلى من الارض . وثالثاً — اذا وقفنا على الشاطىء نجد أن المياه تأخذ فى الارتفاع شيئاً فشيئاً حتى اذا بلغت الافق ظهرت كتلا مستديرة تحجب ما وراءها . وعلى هذا لايمكننا أن نعلل ارتفاع ماء البحر عن الارض من غير أن يغشاها ، الا بارادته القدسية التى اقتضت أن تقف المياه كتلة واحدة ، وأن لاتعود تغشى الارض مرة أخرى ».

٢ — سكان الارض

فكرة الانتيبود — معارضة الكنيسة لها — غريغوري نازيانزن — لاكتانتيوس — باسيل — امبروز — أوغسطين — بروكوبيوس — الغزى — قوزماس — إزيدور — فرجيل السالزبورجي واعتقاده بهذه الفكرة في القرن الثامن — العودة الى ترويجها من طريق وليم الكونشي والبرت الكبير في القرن الثالث عشر — نيقولاوس أورسيم وقبوله لها — نهاية بطرس آبانو وسيكو داسكولي — بطرس دايلي وتوستاتوس — معارضة اللاهوت لكولمبوس — البابا اسكندر السادس وخط التحديد — غريغوري ريش وتحنظه — ماجلان وانتصار العلم .



بينما كان المذهب في كروية الارض لايزال يهتز متراوحا بين متناوح رياح الفكر ، بعث من العدم سؤال آخر خيل الى اللاهوتيين أنه أشد من كروية الارض خطراً وأبلغ أثراً . فان القول بكروية الارض قد أدى بطبيعة الحال الى التفكير في سكانها الآهلة بهم ، وهنالك أفرخت جرثومة قديمة من جراثيم الفكر الخالد ، فانتعشت عائدة اليها الحياة في صورة فكرة ، هي فكرة الأنتيبود ـ Antipope ـ ويقصد بهم الخلائق البشرية الذين يقطنون في الجهات المقابلة لمواطنتا من كرة الارض .

ولقد لقيت هذه الفكرة في كلا العالمين ، اليوناني والروماني ، مؤيدين ومفكرين . وكان « شيشرون » ـ Cicero ـ و « بلينيوس » ـ Pliny ـ من مؤيديها ، كما كان « أبيقور » ـ Epicurus ـ

و « لوكرشيوس » — Lucretius — و « بلوتارك » — Plutarch — من منكريها وعلى هذا تنقلت هذه النظرية فى منازل الزمان حتى بلغت الى الكنيسة الاولى محتاجة الى حل يبلغ بها معارج اليقين .

ممن بادر من رجال الكنيسة الى الكلام فى هذه النظرية فى الشرق القديس « غريغورى » نازيانزن — Gregory Nazianzen — ففى مظهراً أن السفر بحراً الى ما بعد بوغاز جبل طارق مستحيل . ولقد جاراه فى الغرب « لاكتانتيوس » متسائلا — « هل يوجد من شخص عدم قوة التمييز الى درجة أن يعتقد بوجود أناس مواطيء أقدامهم أعلا من رؤوسهم ؟ وأن المزروعات والاشجار تنمو الى أسفل ؟ وأن المطر والجليد يصبب سطح الارض من تحت الى فوق ؟ وانى اشديد الحيرة كيف أقول فى أولئك الذين اخطؤوا فى الفكر مرة ، ثم مضوا على خطئهم عاكفين مدافعين عن شيء بأشياء أخرى . وكلها باطلة »

وليس لنا أن نأسف على شيء من ذلك النزاع الذى رفع الوية « غريغورى ولاكتانتيوس » فان هذين الرجلين ، مهما كانت منازعهما ، فانهما لم يفعلا من شيء سوى أنهما دافعا عن معتقدهما الموروث القائم فى رأيهما على القانون الطبيعى والمرجحات العقلية .

غير أنه لسوء الحظ لم تقف موجة المناقشة عند حدود العلم والفلسفة فلم تتخطاها ، فان كثيراً من مفكرى النصارى قد ظهروا فى الميدان ، متسلحين بنصوص من الاسفار المقدسة ، وسرعان ماأصبح النزاع لاهوتيا تجرى فى تضاعيفه أساليب أهل اليقين . وعلى هذا تسعرت نيران التعصب ضد معتقد « الانتيبود » وأصبح أمراً مذهبيا صرفا .

وهبت الكنيسة العظمى تقاومه وتنوء عليه بقواتها . وفى المقدمة آباء الكنيسة ، يقودون فيالق المؤمنين .

لقد ثبت الاعتقاد عندهم جميعا بان الفكرة خطره كما ثبت عند أكثريتهم أنها محرمة منبوذة . اما القديسين « باسيل » — Basil — « وأمبروز » — Ambrose — فقد بلغ بهما التسامح الى حد أن يقولا ، بانه من الممكن أن ينال الخلاص الاخروى ، رجل يرى أن الجانب الآخر من الارض مأهول بالناس والخلائق . غير أن العديد الاوفر من آباء الكنيسة قد أبدوا كثيراً من الشك فى خلاص أولئك الذين يرون ذلك الرأى ، على اعتبار أنهم فاسقين عن عهد الايمان .

اما البطل الاعظم الذى تكشفت من حوله قوة الدفاع عن وجهة النظر الارثوذكسية فكان القديس «أوغسطين» — Augustine — وعلى الرغم من أنه قد أظهر بعض الميل الى الاعتقاد بكروية الارض ، فانه حارب فكرة وجود أناس على الجانب الآخر منها حربا عوانًا مستنداً الى القول بان — « التوراة لا تذكر من أبناء آدم سلالة كهذه » . ولقد مضى قائماً بان الله القادر على كل شيء لا يسمح للناس بان يعيشوا فى تلك البقاع ، لانهم لا يستطيعون أن يروا المسيح لدى عودته ثانية هابطا على الارض من السماء مجتازاً أطباق الهواء . غير أن أقوى ما لجأ اليه من البراهين ، كان المزمور التاسع عشر ، وما أيده من النصوص فى الرسالة الى الرومانيين والبرهان تنقل صداه من لاهوتى الى لاهوتى خلال ألف كاملة من السنين . رجع الى نص فى ذلك المزمور يقول — « فى كل

الارض خرج منطقهم والى أقاصي المسكونة كلماتهم » (١) . ومن ثم عمد ، باقصى ما أوتي من قوة - الى حقيقة أن القديس « بواص » St Paul قد بنى نظرية من أقوى نظرياته اقناعاً ، وأشدها بالالباب أخذاً ، على هذا النص عند ما تكلم عن المبشرين بالانجيل . وانه أعلن بإيضاح تام في رسالته الى الرومانيين قائلا — « بلى الى كل الارض خرج صوتهم والى أقاصي المسكونة أقوالهم » (٢) وعلى هذا نجده يصرح في اعتقاد ويقين بان هؤلاء المبشرين ما داموا لم يصلوا الى مقر « الانتيبود » فلا يمكن أن يكونوا موجودين على سطح الارض . ويترتب على هذا أن يكون المؤيدون لهذا المذهب إنما يفترون على الملك داوود وعلى القديس بواص ، ومن ثم على الروح القدس . وعلى هذا يكون أسقف « هيبو » (١) — Hippo — العظيم قد أوحي الى الناس ، وظل وحيه هذا الفاً من السنين ثابتا في روعهم ، بأن التبشير بالانجيل مادام لم يصل الى الناحية المقابلة في الارض . فلن يمكن أن يكون هنالك من السلالة البشرية أثر ما .

ولقد كان لنفوذ « أوغسطين » وثبات قدمه في تفسير الاسفار المقدسة ، أثر كبير أوقف الكنيسة موقف الحزم الشديد أزاء مذهب « الانتيبود » . وهنالك اتفقت كل مدارس التفسير اتفاقاً تاماً ولم ينشبها خلاف ولا وقع بينها جدل . فكان اتباع مدرسة الاسكندرية على

(١) من المزمور التاسع عشر ص٤٠٦ طبعة المطبعة الامريكانيه
(٢) من الرسالة الى الرومانيين ص٢١٤ طبعه المطبعة الامريكانية
(١) هو القديس اوغسطين

ما عرف عنهم من الجنوح الى المجاز والتأويل ، والمتبعون لطريقة التفسير الحرفي في سوريا ، وانتقائيوا اللاهوتيين — Eclectic Theologians — في الغرب شرع تلقاء هذا المذهب. واقد ظل معتقد «أوغسطين» الفا من السنين سائدا على الكنيسة وفي « كل مكان وآن وعند كل انسان » . معتقد أنه لا يمكن أن توجد ذوات بشرية على الجهة المقابلة من الارض ، بفرض أن للارض جهة مقابلة . وكان العديد الاوفر من المؤمنين ، منذ بداءة القرن الرابع الى نهاية القرن الخامس عشر ، اذا ناقضهم مناقض أو أنكر عليهم حجتهم منكر ، يلجئون الى تلك الحكمة المهدئة ، التي كان لها أكبر الاثر على اعصاب «جون هنري نيومان» J. H. Newman في القرن التاسع عشر ، حيث كانوا يقولون — « الدين رب يحميه » .

وعلى الرغم من هذا فان المفكرين كانوا يظهرون على مسرح الزمان بين حين وحين . ومما يدلك على أن مذهب « الانتيبود » كان لا يزال حيا ، أن « بروكوبيوس الغزي » Procopius of Gaza في القرن السادس قد هاجم ذلك المعتقد بكل ما أوتي من قوة العلم وناهض الحجة والقدرة على الاطناب ، وقضى بانه اذا كان على الجهة المقابلة في الارض أناس لوجب أن يذهب المسيح اليهم وأن يمضي صلبا في سبيل خلاصهم مرة ثانية . ولا ينبغي أن يكون هناك . مقدمة لوفوده اليهم . مثال من جنة الخلد و آدم والافعى والطوفان

وكذلك هاجم « قوزماس أنديكوبليوستاس » هذا المذهب بشيء من الحرارة خص به . مورد النصوص في إنجيل « لوقا » St Luke ليثبت أن وجود « الانتيبود » منقوض لاهوتيا .

فى أواخر القرن السادس عاش رجل كبير هو القديس « إزيدور الاشبيلى Isidore of Seville كان من المنتظر أن يعمل لصالح العلم عملا مجيداً . فلقد كان ثابت القدم فى المعرفة بعلم القدماء وبآرائهم ، وكان من حرية الفكر بحيث أقدم كما رأينا من قبل على أن يعلن عن ثبات يقينه بكروية الارض ولكنه مع الاسف وقف عند هذا الحد فان نفوذ النبى داود The Psalmist والقديسين « بولص » « وأوغسطين » قد اتجه ناقاء معتقد « الانتيبود » . ولذلك تراه يترك كل المسألة على اعتبار أنها خارجة عن الناموس والقانون . ومن ثم يخضع العقل لليقين ، معلنا أن الناس لا يمكن بل ولا ينبغى ان يوجدوا فى الجهة المقابلة من كرة الارض

لقد يخيل للبعض خطأ أن الحنيقة العلمية قد زالت وفنت ، تحت تأثير مثل هذا الاضطهاد الكبير . والواقع أنها ظلت مختفية كامنة فى تضاعيف العقل البشرى قرنين كاملين من الزمان . ولم تكد تشرق شمس القرن الثامن حتى أصبحت كروية الارض معتقداً عاما ثابتاً بين جلة المفكرين ، ورواد العلم ، وهنالك ظهر الاسقف « فرجيل السولزبرجى » — Virgil of Salzburg — يؤيد مذهب « الانتيبود » مرة أخرى .

كان فى الدنيا خلال السنين الاولى من القرن الثامن رجل من أرجح الرجال عقلا وأنبلهم نفساً ، هو القديس « بونيفاس » — St Boniface — أما تثقيفه فكان على أتم ما فى الامكان خلال تلك العصور . وأما متاعبه ومشقاته فقد استحق بها أن يعتبر خليفة الرسل والحواريين . وأما غيرته على الدين المسيحى ونبوغه فى تعرف أصوله وقواعده قد أديا به ، على

قصد منه ورغبة ، الى الاستشهاد : وفى ذلك الوقت شغل عرش البابوية سياسى من أقدر الرجال ومسيحى من أعظم المسيحيين ، هو البابا « زاخارى » . غير أن « بونيفاس » ، وهذه صفاته ، لم يتلكأ برهة فى أن يعلن أنه يربأ بالناس أن تحوم بينهم هرطقة القول « بالانتيبود » مرة ثانية ، معتقداً أنه لا يمكن أن يوجد أناس لا يستطاع أن تبلغهم وسائل الخلاص المسيحية ، وهاجم من ثم «فرجيل» نادباً البابا « زخارى» الى معاضدته والأخذ بيده .

ولقد أجاب البابا على دعوة « بونيفاس » باعتباره معلم المسيحية المعصوم من الخطاء ، اجابة تجلت فيها القوة وشدة المراس . فذكر آيات من سفر « أيوب » ، و « داود » ، وحكم عن « سليمان » يناقض بها معتقد « الانتيبود » ، معلناً أن هذا المذهب « عريق فى الضلال ، أصيل فى الاجرام ، مفسد لنفس فرجيل ذاتها » وهدد بطرده من أسقفيته . وسواء أنفذ هذا التهديد أم لم ينفذ ، فان المعتقد اللاهوتى القديم ، مؤيداً بأوامر البابا القدسية ، ومحمياً بعصمته ، قد عاد الى الوجود ثانياً . معتقد أن الارض مأهولة فى جانب واحد من جوانبها ، حتى لقد أصبح أكثر غوراً فى الوجدان الاورثوذوكسى ، وأثبت تأصلا فى عقلية رجال الكنيسة .

ولقد اعتبر هذا القرار نهائياً غير قابل لنقض ولا اعادة نظر ، حتى أن « فنسنت بوفييه » ، أكبر انسيكلوبيذى فى القرون الوسطى ، مضى قانعاً ، بعد صدور ذلك القرار بخمسة قرون كاملة ، بأن مذهب « الانتيبود » ينقصه البرهان ، لأنه مناقض لنصوص التوراة . ذلك

على الرغم من أنه كان يعتقد بكروية الارض . ولكن المذهب قد ظل حيا ، على الرغم من كل هذا . وكما أنه كان قد ظهر الى عالم الوجود بجهد «وليم الكونشي» William of Conches ثم اختفى ، كذلك عاود الظهور ثانية خلال القرن الثاني عشر ، تحت تأثير «البرت الكبير» Albert The Great أكبر رجال العلم في ذلك العصر . ولكن الظاهر أنه تعمد أن يلغز أقواله اتقاء هذا المعتقد . فكان ذلك سببا في أن تختفي أنوار الحقيقة وراء ستار اللاهوت . وبعد مضي مائة عام ، اضطر « نيقولاوس الاورسيمي » — Nicolas Oresme — والذي كان جغرافيا لملك فرنسا أحد أقطاب العلم إذ ذاك ، أن يحني رأسه لتعاليم التوراة كما فسرها القديس « أوغسطين » .

ولم يقف الامر عند هذا الحد من الفساد . ففي أوائل القرن الرابع عشر خيل الى رجال الكنيسة في ايطاليا أن الضرورة تقضي عليهم بان يعالجوا أمثال هذه المذاهب بالمحامة والسندان(١). ففي سنة ١٣١٦ لم يفلت « بطرس ألبانو » — Peter of Albano — وكان مشهوراً كطبيب ، من يد محكمة التفتيش الا بان أدركته الوفاة من قبل أن تمتد يدها اليه ، تلقاء ما روج من مذهب «الانتيبود» وغيره من مذاهب العلم . وفي سنة ١٣٢٧ طرد « شيكوداسكولي » — Cecco d'Ascoli — وكان فلكيا ذا شهرة وعلم ، من أستاذية جامعة « كولونيا » وأحرق حيا في « فلورنسا » . لانه علم مذهب « الانتيبود » وغيره من حقائق العلم ، فظن بأنه ساحر ، وأنه يعلم السحر . ولقد خلد المصور « أوركانيا » — Orcagna — الذي

---

(١) من آلات التعذيب في القرون الوسطى

لا تزال نقوشه المفزعة قائمة حتى اليوم على جدران « كامبوسانتو » — Campo Santo — فى « بيزا » ذكرى « سيكو » بأن صوره فى جهنم تاتهمه ألسنتها النيرانية .

وانحدرت السنون . حتى اذا ما كان القرن الخامس عشر ، ظهر رجل من الافذاذ الذين كان ينتظر أن يجنى منهم العالم الانسانى خيراً كبيراً . فان « بطرس دايلى » — Peter d'Ailly — قد استطاع ، بما أوتى من بسطة العلم وقوة الفكر ، أن يصبح عميداً الكلية القديس « دييه » — St Die — فى اللورين . وكانت مقدرته سبباً فى أن تضحى تلك القرية مركزاً للفكرة العلمية فى كل أوروبا ، ومن ثم اهلت به لان يكون رئيس أساقفة فى « كامبرى » — Cambray — ثم كردينالا . وفى أواخر القرن الخامس عشر طبع ما كان قد كتب الكردينال « دايلى » من قبل ذلك بزمان طويل تلخيصاً لمجمل آرائه ومباحثه العلمية ، وهى مجموعة مقالات نشرت تحت عنوان « يوماجو ماندى » — Yomago Mundi — وهذه المقالات تعطينا أعظم مثال من المثل التى يرويها التاريخ فى عالم عظيم أسدلت عليه أثواب اللاهوت . فانه عند ما بلغ فى الكلام الى مذهب « الانتيبود » شرحه أو فى شرح وفصله أحسن تفصيل ، حتى انه ليخيل اليك بعد ذلك أنه سوف يقضى بأنه حق ثابت . ولكن هنالك تقوم براهين القديس « أوغسطين » ، والآيات الانجيلية ، وآيات المزامير وأقوال القديس « بولص » الى الرومانيين — « بلى . الى كل الارض خرج صوتهم والى اقاصى المسكونة أقوالهم » ، فما استطاع « دايلى » وقد أراد أن ينزل على حكم العقل ، أن يفيض على عالم العلم بشىء ، وقد

ناءبعا حماته مذاهب اللاهوت .

غير أن مذهب « الانتيبود » بقى حياً يدب فى ثنيات العقل. بيد أن اللاهوتى الاسبانى الكبير ، « توستاتوس » ـ Tostatus ـ قدشعر بوجوب مقاومته فقضى بأنه مذهب « غير مأمون الجانب » . وكان ذلك، فى عصر « كولمبوس » ، وقد صب براهين القديس « أوغسطين » فى القياس المنطقى الآتى — « ان الرسل قد أمروا بأن يذهبوا فى كل نواحى الارض ليبشروا بآيات الكتاب المقدس . ولكنهم لم يذهبوا الى ذلك المكان الذى يفطن به « الانتيبود » ولم يبشروا بالآيات لكائن ما هناك . وعلى هذه المقدمات ، ينتج أن « الانتيبود » وهم لا حقيقة » .

وما الحرب ضد « كولمبوس » بشىء بعيد عن الاذهان . وليس بغائب عنا كيف أهانه أسقف « سيوتا » ـ Seuta ـ وازدراه فى البرتغال. وكيف جابهه رجال من أقدر من انبتت اسبانيا رجاحة عقل فى تلك الازمان بتلك النصوص المعروفة فى المزامير وفى رسائل القديس « بولص » . وفى براهين القديس « أوغسطين » . وكيف أن الكنيسة ، حتى بعد فوزه ، وبعد ان قوت رحاته الى العالم الجديد فكرة كروية الارض تلك الفكرة التي تمت بأكبر آصرة لمذهب « الانتيبود» قد مضت وعلى رأسها الحبر الاقدس ، جانحة الى اتباع طريق ما كان يؤدى بها الا إلى التعثر فى وعثاء الخيال. ففى سنة ١٤٩٣ لجىء الى البابا «اسكندر السادس» ـ Alexander VI. ـ ليكون حكما يفصل فى ما تدعيه كل من دولتى اسبانيا والبرتغال من حق فى البقاع المستكشفة حديثاً ، فأصدر أمراً

بابوياً واضعاً على كرة الارض خطاً وهمياً يفصل بين ممتلكات الدولتين. ورسم هذا الخط ، ويدعى اصطلاحا خط التحديد ، من الشمال الى الجنوب واقعا على مائة غلوة(١)غربى جزر « الازورس» -Azores- ولقد أعلن « البابا » فى كثير من الثقة بما أوتى من العلم والحكمة ، ان كل البقاع التى تستكشف شرق هذا الخط تكون من حق البرتغال ، وكل مايستكشف غربيه يكونٌ من حق اسبانيا . ولقد هالل لهذا الحكم المؤمنون كانه صادر من قوه قدسية محبوة بكل كالات العلم والحكمة التى استمدتها الكنيسة من عالم الغيب . ولكن العقبات توالت وشيكا، حتى أن البابا « يوليوس الثانى » — Julius II — قد حاول مرة ثانية سنة ١٥٠٦ أن يغير خط التحديد فيجعله على بعد ٢٧٠ غلوة غربى جزر « رأس فيرد » — Cape Verde Islands — وهنا عاود المؤمنون الاعتقاد بأن الحكمة القدسية هى التى أمدتهم بذلك الحل الثابت . ولكنهم لم يلبثوا على ذلك الا قليلا حتى عصفت رياح الخلاف وتشابكت حلقات الفوضى ، لان البرتغاليين زعموا أن من حقهم امتلاك البرازيل ، وكان فى امكانهم أن يثبتوا بالضرورة ، ان فى مستطاعهم أن يصلوا اليها بأن يبحروا من شرق خط التحديد ، على شريطة أن يمعنوا فى سفرهم طويلا . ولا يبعد أن نرى الخطين اللذين رسمهما البابوان اسكندر السادس ويوليوس الثانى ، على الخرائط التى وضعت فى ذلك العصر . غير أن أمرهما القدسيين قد انحدرا مع الزمان الى حيث نسيا وأهمل أمرهما ، مع مايعاناهما من الاخطاء التى ثبتت ان الانسان جدير بما نزل به من

(١) غلوة League مقاس طوله ثلاثة أميال

كوارث وملمات .

ومع كل هذا فان الحواجز اللاهوتية التى كانت تحجب هذه الحقيقة الجغرافية عن البصائر لم تزل الا تدرجا . وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة كانت قد أصبحت جلية واضحة لاعين طلاب العلم والباحثين ، فانهم تلكأوا فى اعلانها والتبشير بها للناس زمانا . فان مائة وألفا من السنين كن قدمضين منذ أن برهن القديس « أوغسطين » على أنها مناقضة لنصوص الكتاب المقدس ، حتى أذاع « غريغورى رييش » Gregory Reysch موسوعته المشهورة التى أسماها « مارغارنيتافيلوزوفيقا » ـ Marganita Philosophica ـ ولقد توالت طبعات هذه الموسوعة الطبعة بعد الاخرى ، فلم تغفل طبعة منها ذكر الفكرة الاورثوذوكسية ازاء هذه الحقيقة . غير أن تلك الآراء اللاهوتية كانت قد أخذت فى الاضمحلال والسقوط . فان « رييش » على الرغم من أنه ذكر بكل احترام واجلال ان القديس « أوغسطين » قد مضى معارضاً لهذا المذهب فانه كان حريصاً على أن لا يذكر شيئاً من نصوص الكتاب المقدس ليتخذها برهانا على فساده ، ولم يكن بأقل حرصاً على أن يذكر الحقائق الجغرافية التى تؤيد صحته .

غير أن العلم قد انتصر انتصاراً فاصلا فى سنة ١٥١٩ . فان « ماجلان » ـ Magellan ـ كان قد أتم سياحته المعروفة . فبرهن على أن الارض كروية ، لان بعثه قد دار حولها . كما برهن على أن مذهب « الانتيبود » صحيح ، لان رفقاءه فى السياحة قد رأوا بأعينهم أولئك الخلائق . غير أن هذا لم ينه الحرب ولم يخمد جذوتها . فان كثيراً ممن

مضوا مشايعين لحكم المشاعر دون العقل ، قد ظلوا مائتين من السنين ينكرون هذه الحقيقة ويقاومونها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وفى ذلك الوقت نجح فلكيو فرنسا فى مقاس الدرجة الارضية فى الأنحاء الاستوائية والقطبية وأضافوا الى براهينهم ذلك البرهان المستمد من استطالة الرقاص . وبعد ان وقع ذلك ، وبعد ان رأى رجال الكنيسة أن استقراآت العلم قد تقررت بوسائل بسيطة كمقاس الدرجات ، على أكمل وجه وأتم صورة ، وبعد أن أرسل كثير من السياح ومن بينهم فئة من متحمسى المبشرين ، الى أوروبا وصفاً كاملا لخلائق «الانتيبود» ، بعد هذا كله ، نامت عاصفة الحرب بين العلم واللاهوت بعد أن ظلت عاتية هوجاء اثنى عشر قرناً من الزمان .

على هذه الصورة كانت نتيجة تلك الحرب الطويلة الممضة . غير أنه حدثت نتائج لم تكن لها الا ثمرات مريرة . فان جهود «إيوسيبيوس وباسيل ولاكتانتيوس» التى بذلوها فى سبيل اخفات صوت العلم ، وجهد «أوغسطين» فى مقاومته واضطهاده ، وجهد «قوزماس» فى تحطيمه من طريق اللاهوت المذهبى ، وجهد «بونيفاس وزاخارى» فى تقويض دعائمه بالقوة الغاشمة ، وكلهم رجال لايمكن أن يساورنا شك فى صادق يقينهم وحسن نيتهم ، قد أحدث نتيجة واحدة ، هى أن يثبت فى عقول الرواد من أهل العلم والدين ، اعتقاد بأن بين الدين والعلم عداء وصراع .

على أنه يمكننا أن نتساءل من جهة أخرى ، أى جنى جناه المحاربون من أجل العلم لصالح الدين ؟ جنوا تصوراً ثابتاً نبيلا فى حقيقة العالم ،

وتصوراً آخر لا يقل عنه نبلا ولا ينزل عنه شرفا ، فى جلال تلك القدرة الشاملة التى تسيطر على العالم وتدبر أمره. وقد تتساءل ثانية أيها أكثر ملاءمة لعقيدة دينية عليا : أكونيات « قوزماس » أم كونيات « نيوتن » ؟ وايهما يهيء للفكرة الدينية مرتعاً خصيباً وبيئة فيها ألفة واتساق ، أجدليات « لاكتانتيوس » ، أم تقريرات « همبولد » الهادئة العميقة .

* * *

٤ — حجم الارض

العلم يحاول مقاس الارض — حل اللاهوت لهذه المعضلة — انتفاع كولمبوس باخطاء اللاهوتين

* * *

منذ زمان بعيد هز موضوع جغرافى آخرعقول النابهين هزاً عنيفا. وكان هذا الموضوع محصوراً فى النظر فى حجم الارض .

لقد وصل كثير من باحثى القدماء بوسائل مختلفة من مقاس الابعاد الى نتائج تكاد تقرب من الحقيقة تلقاء حجم الارض . ولقد ظلت هذه الوسائل حية حتى أسلم بها الزمان الى القرون الوسطى ، فتزودت بآراء جديدة ؛ وكان من بين النتائج التى هى أكثر من غيرها فى العقل الانسانى تأثيراً وأزكى طبيعة ؛ تلك النتائج التى وصل اليها « روجر باكون » — Roger Bacon — و « غربرت » — Gerbert — الذى تبوأ من بعد عرش البابوية باسم « سلفستر الثانى » ، فانهما قد أسلما الى الخلائف من بعدهما ذخيرة العلم كاملة غير منقوصة. غير أنهما لم يجنيا من معاصريهما الا ثمرة اجاجا ، فنعتا بانهما ساحرين ، وانهما بترويج السحر والشعوذة .

لقد كان للاهوت فى القرون الوسطى روحا سارية فى الجماهير مايلائمها الا حلول لمسائل العلم تستمد من نصوص الكتاب المقدس ، ويحق لنا أن نذكر ذلك الحل الذى استمد من تلك النصوص تلقاء حجم الارض ، وما نذكره الا كمثال نعبر به عن مقدار ما غشى العقول

من مغالطات المذاهب اللاهوتية واخطائها . فان السفر الثانى من أسفار « عزرا » - Esdras - قد اعتبره كثير من نابهى رجال الكنيسة القديمة وحياً منزلا . وعلى الرغم من أن «جيروم» قد نظر فى ذلك السفر نظرة الشك والارتياب ؛ فان « كليمان الاسكندرى » و « ترتليان » ـ Tertullian ـ و « أمبروز » قد اعتبروه من الاسفار المنزلة الموحي بها الى الرسول السماوى ، وتابعتهم الكنيسة قانعة بزعمهم هذا . وقد شغل هذا السفر فى الكنيسة الشرقية مكانا عاليا . أما فى الكنيسة الغربية فقد اعتبره كل الجهابذة والثقاة جزء لا يتجزأ من الشريعة المقدسة . وكان هذا قبل قيام حركة الاصلاح البروتستانتى . وانك لتجد فى الفصل السادس من هذا السفر تلخيصاً لاعمال الخالق مصبوبا فى السياق التالى :

« أمرت فى اليوم الثالث أن تجتمع المياه فى الجزء السابع من الارض فجففت ستة أجزاء منها وحفظتها بقصد أن تحرث وأن تقوم مخلوقاتها بتسبيحاتك »

« وفى اليوم الخامس قلت للجزء السابع الذى تجمعت فيه المياه ، ليخرج منك خلائق ؛ من دجاج وسمك وهكذا كان » (١)

ولقد أيدت هذه النصوص فى فصول أخرى من ذلك السفر ، فكان من الطبيعي أن تصبح من الاسانيد الدينية ذات الحول والسلطان.

وكان الكردينال « بطرس دايلى » أحد أولئك الباحثين الذين ائتموا بهذه الاقوال وبغيرها وعكفوا عليها قصد تنمية العلم وزيادة ثروته

(١) اضطررت الى وضع المعنى فقط لانى عجزت عن الحصول على نسخه من كتب الابوكريفا (معرب)

ولقد رأينا من قبل أنه بينهما كان ينكر وجود «الانتيبود» اخلاداً لفكرة القديس «أوغسين»، مضى ثابت الاعتقاد فى كروية الارض. فاما عمد الى تفسير هذه النصوص التى النوت عليها دفنا سفر «عزرا» وأراد أن يوفق بينها وبين معتقده الثابت فى كروية الارض، قضى بأن سبع الارض فقط كانت تغشاه المياه، فان المحيط الواقع فى غربى أوروبا وشرقى آسيا، لا يمكن أن يكون مفرط الاتساع. وعلى اعتقاد أنه يعرف، كما خيل اليه، مقدار امتداد اليابسة فوق الكرة الارضية، شعر بأنه خضوعا لهذه النصوص الدينية لا بد من أن تكون الارض أصغر بكثير مما قدر لها، وأن أرض «زيبانجو» - Zipango - التى بلغها «ماركوبولو» - Marco Polo - فى نهاية الطرف الشرقى من شاطىء آسيا، يجب أن تكون أكثر قرباً مما يتوهم الناس.

وعلى هذه الفكرة عكف الكردينال «دايلى» فى كتابه العظيم المسمى «يوماجوماندى» - Yomago Mundi - وكان قد ظهرت طبعة من هذا الكتاب فى تلك الايام التى كان يفكر فيها «كولمبوس» تفكيراً جدياً فى امكان السفر غربا. ولا مشاحة فى أن فكرة «دايلى» قد استغرقت قسطاً كبيراً من تفكيره وتأملاته، والدس بين مخزونات مكتبة «اشبيلية» من شىء هو أثمن قيمة من نسخة من ذلك الكتاب قد عاقت عليها حواش بخط «كولمبوس» نفسه. ولا ريبة فى أن «كولمبوس» لم يقنع بفكرة أن طريق اجتياز المحيط الى أرض «زيبانجو» التى بلغها «ماركوبولو» فى آسيا قصير، الا من اكبابه على دراسة هذه النسخة. ولولا ذلك الخطأ الكبير الذى بنى على نص

فى كتاب دينى ظن أنه منزل موحى به ، لما استطاع « كولمبوس » أن يحصل على ما حصل عليه من تأييد جعل سياحته فى حيز الامكان. ومن غرائب الحادثات أن هذه الغلطة اللاهوتية الغريبة ، كانت سبباً فى القيام برحلات عديدة لم يكن لها من نتيجة الا تحطيم هذه الغلطة نفسها ، مع بقية الاغلاط التى قامت على تصورات جغرافية بنيت على كتابات دينية منذ أبعد العصور .

* * *

٥ — طبيعة سطح الارض

سيرفيتوس وتهمه تكراره خصوبة أرض يهوذا — المقارنة بين الروح اللاهوتية والروح الدينية في تأثيرهما على العلم

ليس من الانصاف في شيء أن نختم الكلام في قصة التنازع على البقاء حول الحقائق الجغرافية من غير أن نستطرد قليلا في شرح تاريخ الكنيسة البروتستانتية ، فان ذلك التاريخ يظهرنا جليا على تلك الصعاب التي وقفت في سبيل أبسط الحقائق الجغرافية التي تصارعت وما أتى في الاسفار المقدسة من نصوص .

ففي سنة ١٥٥٣ وقف « ميخائيل سيرفيتوس » Michael Servetus ليحاكم في جنيف وقد كاد يفقد حياته لاتهامه بتهمة « الاريوسية » - Arianism - وقد خدم « سيرفيتوس » كثيراً من حقائق العلم خدمة صادقة . وكان من خدماته الجليلة طبع نسخة من كتاب جغرافية « بطلميوس » تكلم فيها عن أرض « يهوذا » - Judea - فلم يذكر أنها « بلاداً تفيض عسلا ولبناً » مجاراة للرأي اللاهوتي ، بل عرج الى الحق وجاراه ، ذاكراً أنها بلاداً بوراً مجرودة غير مأهولة . ولقد اتخذ « جون كالفن » ، ألد أعدائه وأقواهم نفوذاً ، جنوحه الى الاعتقاد بهذه الحقيقة الجغرافية سببا في أن يحمل عليه أثناء المحاكمة بكل ما أوتي من قوة الدليل والبرهان . وعبثاً حاول « سيرفيتوس » أن يثبت لقضاته أنه إنما نقل هذا القول عن نسخة أخرى من كتاب « بطلميوس » . وسدى

ضاعت كل جهوده ليثبت أن هذه الاقوال ليست الا حقيقة جغرافية بسيطة قامت على صحتها براهين طبيعية عديدة . فلم يكن هنالك من رد عليه سوى القول بأن كلامه « تحد » بالضرورة لموسى ، وانتهاك سافل لسلطة الروح القدس » .

ومحصل القول أن أعمال الكنيسة فى مقاومة علم الجغرافية قد انحصرت فى أن المذاهب اللاهوتية قد مضت متطورة ، ولكن على أشد ما يكون مراعاة لنصوص الكتاب المقدس ، وأن التصورات التى استمسكت بها الكنيسة خلال قرون عديدة كانت « فى كل وقت ومكان وفى صدر كل انسان » وعلى وجه عام، منافية لحقائق العلم . غير أنه لا يحق لنا أن نترك هذا الباب مفتوحا من غير أن نضم مصراعيه على بحث نتناول فيه الفرق بين الروح الدينية والروح اللاهوتية .

إن علم الجغرافية مدين للروح الدينية بعدة رحلات ، تعد من أبر الرحلات الاستكشافية وأعظمها خطراً . فإن الرغبة الشديدة التى قامت فى صدر البرنس « يوحنا » البرتغالى لينشر النصرانية ويرفع صوتها كانت سبباً فى سلسلة تلك الرحلات المشهورة فى شواطيء أفريقية وفى رحلة « فاسكو داجاما -Vasco da Gama- » فى الدوران حول رأس الرجا الصالح ورحلة « ماجلان » حول الارض . ولا شك فى أن ذلك الشعور كان سببا فى تهيئة الظروف التى مهدت لكولمبوس أسباب القيام برحلته الكبيرة .

وعلى هذا نرى أن تفوق الروح اللاهوتية كان سببا فى تزكية النزعة الى الصورة المذهبية فى الدين ، تلك الصورة التى برزت فى كل

عصر من العصور لابسة ثياب الجلاد والصراع ، لا لتحارب العلم وحده، بل انصارع الروح الدينية العليا ، بينما نجد أن نزعة البحث عن الحقيقة لذاتها ، تلك النزعة التي كانت سبباً في كل ما أوحى به للناس من ثمار العلم ، لم تنتج في مختلف العصور الا خيراً ، ولم تثمر الا أشهى الثمرات للدين وغير الدين :



الفصل الثالث

من الخلق الى النشوء

١ — العالم المنظور

الفكرة في كيفية خلق العالم خلال الازمان القديمة والعصور الوسطى — مادة الخلق — زمان الخلق — تاريخ الخلق — الخالق — في الضوء والظلام — بدايات فكرة النشوء — الكلدانيون — العبرانيون — اليونان — الرومان — بقاء فكرة النشوء فى العصور الوسطى على الرغم من كراهية الكنيسة لها وزهدها فيها — نماؤها في العصور الحديثة — الرأى السديمى وصراعه مع المذاهب اللاهوتية — انتصار فكرة النشوء في النهاية — الكتب المقدسة تؤيد فكرة النشوء — التوفيق الحقيقى بين العلم واللاهوت.

* * *

من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية التى تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت فى العصور الوسطى ، نقش يمتاز بالتعبير عن مذهب لاهوتى فى أصل الكون ، ظل موضع الاحترام والاجلال أزماناً طوالا .

الواحد القهار ، فى صورة بشرية ، جالس بوداعة ولين ، يصنع الشمس والقمر والنجوم ؛ ويعلقها فى القبة الصلبة التى تحمل من فوقها « السماوات العلا » وتظلل الارض « السفلى » .

أما علائم التفكير الظاهرة فى تقطب جبينه فتنم على أنه أجهد نفسه

امعاناً فى التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر الى أن يكد وينصب . ومن الطبيعي أن يكون المثالون والمصورون خلال القرون الوسطى ، وفى بدء العصور الحديثة ، قد عمدوا الى تمثيله على مقتضى ما تصوره كتاب ذلك العصر ، إذ كانوا يقولون بأنه استراح فى اليوم السابع ، واضطجع فى هدأة ، مصغياً الى تراتيل الثناء التى زفتها اليه سكان السماء .

من حول هذه الفكرات العتيقة التى فاضت بها الكاتدرائيات ، وفى غيرها من الآراء التى عبرت عنها النقوش والصور وتلوين الزجاج وزخارف الفسيفساء والحفر خلال العصور الوسطى ، وقرنين قرطا من بعد تلك العصور ، تكثفت نواة من الاعتقاد كانت قد أخذت تتكون خلال ألوف من السنين ، ومضت محتكمة فى كل ما أبرز العقل الانسانى من صور الفكر حتى عصرنا هذا . (١)

اما بدايات ذلك الاعتقاد فترجع الى أعرق عصور التاريخ قدما . فاننا نجدها فى أوليات كل مدنية من المدنيات العظمي بيدأنها شغلت فى كل الكتب المقدسة التى ذاعت فى نواحي العالم ، على تعددها وكثرتها ، مكاناً علياً . ففى كل المدنيات تقع على فكرة وجود خالق ، ليس الانسان إلا صور منه غيرة كاملة ، وأنه خلق الكون المنظور بطريقة مباشرة مستخدما فى الخلق يديه وأصابعه .

من بين تلك النظريات عدد غير صغير مضى محتكما فى اللاهوت الكلدانى . ومن الواجب أن نخصه بشىء من العناية والتقدير . فان النقوش الاشورية

(١) سنة ١٨٩٥

التى استكشفت حديثا ونقلها الى العالم الانجليزى أعلام من أمثال « لابارد » Layard « وجورج سميث » George Smith « وساس » Sayce وغيرهم، لترينا أنه قد تغلغلت فى تضاعيف الاديان الكلدانية والبابلية قصة فى حقيقة الخالق، من أهم مزاياها وأخطر دقائقها، أنها لابد من أن تكون النواة التى فرخت منها تلك القصص التى نقع عليها فى كتبنا المقدسة. ولقد ظهر باجلى بيان أن تلك الفكرات التى تشغل أعلا مكانة فى اسفار العبرانيين، قد استمدت من ذلك النبع الذى فاض على المدنيات الكلدانية — البابلية والاشورية والفينيقية بتلك القصص التى وضعت فى حقيقة خلق العالم. ففى نينك القصتين اللتين تخالطتا فى سفر التكوين، وفى تلك الرواية التى يمكن أن يستدل عليها باشياء فى سفر «أيوب» — Job — يتمثل لك، بكل مايستطاع أن تتخيل من العظمة والقدرة، نفس ذلك التصور فى حقيقة الخالق والخلق، وهو تصور خليق بالمدنية وهى بعد فى مهد طفولتها وغرارتها إذ يبرز لك الخالق فى صورة بشرية مكبرة، وهو يكد فى العمل باطرافه ويمثل لك الخلق « مصنوعا بيده ». ولقد نشأ، تعقيباً على هذا التصور، اعتقاد فى الخالق على انه شخص بعد ان « قذف من راحة يده الى الفضاء بكل السيارات لتجوب أنحاء المكان » جلس فى العلاء فوق العرش المستقر « على فلك السماء » جاداً أبداً فى أن يحكم سيرها ويهديها طريقها.

ومن هذه النظرية الموضوعة فى حقيقة الخلق، نشأت مع الزمان فكرة أخرى، أكثر ارتقاء وأنبل قصداً. ففكروا القدماء ومفكرو مصر على الاخص، كما اتضح منذ عهد قريب، قد مضوا معتقدين بان

السبب المباشر فى الخلق ليست يد الخالق ولا أصابعه ، بل صوته . ومن هنا تخالطت بالمعتقدات الفطرية الاولى التى ذاعت فى أصل الارض والاجرام السماوية بقدرة الحي القيوم ، فكرة أكثر للشعور مساً وأعمق فى التصور تغلغلا ، فقيل بانه « تكلم وأنها خلقت » ، وأنها قد برزت الى عالم الوجود بتأثير « الكلمة » .

اما هذه النظرة العامة فى أصل الخلق فقد مضت مستبدة بأمرها فى تصورات آباء الكنيسة الاولى ، وأصبحت معتقداً أساسياً من معتقداتهم ، حتى أنهم ألزموا النصرانية ، تدرجا وعلى مر الزمان ، الثبات على الاعتقاد بان الكون قد خلق تاما كاملا بيد الله أو صوته .

بين آونة وأخرى ظهر من بين اللاهوتيين « خوارج » امتازوا بشيء من رجاحة العقل وسعة النظر ، حاولوا أن ينظروا فى خلق بعض أجزاء من مفصلات الكون نظرة امعن من سابقتها تغلغلا فى صميم الروحانيات، وعلى الأخص «غريغورى النياسى» Gregory of Nyassa والقديس أوغسطين St Augustine وكانوا على استعداد لان يقبلوا النصوص الحرفية التى جاءت فى المتون المقدسة ، لهذا ثاروا ضد ذلك التصور؛ تصور أن العالم خلق بتأثير ذات كلية القدرة ، كونته بيديها وأصابعها وتابعهم فى ذلك « بيده » — Bed — وقليل غيره . غير أن آراء أكثر من غيرها امعاناً فى الماديات ، كانت لاتزال سائدة على العقول ، حتى انك تجد آثارها ظاهرة فى النقوش وزخارف الفسيفساء وتلوين الزجاج فى الكاتدرائيات، وفى الرسوم التى تحلى بها كتب القداس والمزامير ، حتى فى الاناجيل المصورة ، وكتب المعرفة العامة التى ظهرت خلال القرون الوسطى.

أما فى العالم الانجلوسكونى فقد أحكم عرى هـذا التصور المادى القديم شاعران ، خصت أشعارهما بالتوقيع على أوتار تلك المشاعر الدينية العمقية . ففى القرن السابع فسر الشاعر « كادمون » -Cacd non- الاقوال التى جاءت فى سفر التكوين وفصلها تفصيلا أفرغ به ذلك التصور المادى فى خلق الكون فى حلة محبوكة الاطراف على ظاهر المتون المقدسة . وبعد ذلك بألف سنة أخذ « ملتون » -Milton- من النصوص الكثيرة التى جاءت فى كتب العهد القديم قدراً مزجه بفكرة لاهوتية فى « الكلمة الخالقة » استمدت فى أصلها من كتب العهد الجديد ، ومضى على ذلك يصف كيف خلق الاقنوم الثانى من الثالوث الالهى العالم بتفاصيله ، فجاء وصفه صورة من الافكار اللاهوتية والنصوص المقدسة لاتدانيها صورة أخرى لزوما لظاهر الجمل والالفاظ.

قال فى أسلوب شعرى رائع :

« أخـذ البيكار الذهبى الذى كان معداً فى خزائن الله الابدية السرمدية ليخطط حدود الكون وكل المخلوقات . ووضع أحد طرفيه فى المركز وادار الطرف الآخر دورة حول تلك الاغوار البعيدة القصية ثم قال : الى هنا تمتد حدودك : والى هنا ينتهي محيطك أيها الكون؟».

هذا هو التصور الارثوذكسى فى الاسلوب الذى خلق به العالم .

* * *

أما المسألة الثانيـة التى أنشأها ذلك التصور اللاهوتى ، فكانت ذات علاقة « بالمادة » التى صور منها العالم ، ومضت الاغابية العظمى

من أهل اللاهوت قانعة بأنه لم توجد مادة ما قبل خلق الكون ، وأن « الله خالق كل شيء من لا شيء » .

من اللاهوتيين فئة خصت بشيء من الشجاعة والاقدام ، أشاروا اعتماداً على النصوص الاولى التي وردت في سفر التكوين ؛ الى فكرة أخرى مغايرة لتلك الفكرة ، ومؤداها أن الكتلة المادية قد وجدت قبل وجود الكون ، ولكنها كانت « بلا صورة وفي خلاء لامتناه » غير أن هذا المذهب اكتسح سراعا من عالم المعرفة .

أما معتقد آباء الكنيسة فكان جلياً واضحاً ازاء هذا الامر . فان « ترتيليان » - Te tlian - قد انتحى أكثر الطرائق حزما وشدة ازاء الذين كانوا يعتقدون بأية فكرة مضادة للفكرة التي اعتنقها زعماء الاورثوذكسية . بل اعلن بانه اذا وجدت أية مادة أولية صنع منها الكون ، فلا بد من أن تكون الكتب المقدسة قد أشارت اليها . أما وأن هذه الكتب لم تشر اليها ، فان الله قد أمدنا بأنصع برهان يدلنا على أنه لم يوجد قبل الخلق شيء كهذا . وعلى أسلوب فيه من العسف قدر لم يعرف له مثيل في أي خلاف لاهوتي آخر هدد « هرموجينيس » - Hermogenes - وكان من مؤيدي الرأي القائل بقدم المادة ، « بالويلات التي تنصب على أولئك الذين يزيدون على الكلمة القديمة أو ينتقصون منها » .

أما القديس « أوغسطين » ، وكان ممن أشار تلميحاً الى الاعتقاد بوجود المادة قبل الخلق ، فقد وفق بين ما كان يرى من رأي وبين المعتقد السائد في حدوث المادة ببرهان ساذج بسيط إذ قضى ، « بانه

على الرغم من أن العالم لا بد من أن يكون قد صنع من مادة ما، فانه من المحتوم أن تكون هذه المادة ذاتها قد خلقت من العدم بداءة ذي بدء » .

في الطريق التي رسمها هؤلاء العظماء سارت الكنيسة العظمى هادئة مطمئنة . ولقد صرح المجمع اللاتيريني الرابع Fourth lateran council بأن الله قد خلق كل شيء من لا شيء . وانك لتجد حتى اليوم أن ارهاط المؤمنين سواء أكانوا كاثوليك أم بروتستانت ، لا يعتقدون ازاء هذا الامر من شيء سوى ما يوحي به هذا المذهب . وعلى هذا الامر اتفق البابا « بيوس التاسع » Pius IX في مختصره الديني . وكنيسة وستمنستر في كتاب « أصول الايمان » .

وبعد أن فرغ اللاهوتيون من الكلام في طريقة خلق الكون ومادته . رجعوا الى الكلام في « الزمان » الذي تم فيه ذلك العمل العظيم .

هنا اعترضتهم مشكلة . فان أولى الروايتين اللتين جاءتا في سفر التكوين تنص على أن عمل الخالق قد تم في ستة أيام ، كل يوم منها نهار وليل ، بما في ذلك تفصيل ما تم في كل منها ، على صورة تامة من الدقة والضبط . أما الرواية الثانية فتذكر « اليوم » الذي صنع فيه « الله الارض والسموات » . ولقد كان ما اتصفت به الرواية الاولى من الدقة ، وملاءمتها لطبيعة ما تكونت عليه عقول العديد الاوفر من معتقدي اللاهوتيين ، قوة حازت بها قسطاً من الاسبقية وقوة البقاء . غير أن مفكري اليهود من أمثال « فيلو » - Philo - ومفكري النصارى من أمثال « أوريغن » - Origen - وقد حاولوا أن يكونوا في الخالق وخلقه تصورات أرقى نزعة وأنبل قصداً ، لم يقنعوا بهذا . فألقوا في بحر

اللاهوت النصرانى المضطرب المتدافع القوات ، بفكرة أن الخلق كان موقوتاً وفى لحظة واحدة . ولم تستمد هذه النظرية عناصر القوة من الجزء الثانى من أساطير سفر التكوين وحدها ، بل كان يؤيدها النص القائل — « تكلم فخلقت العوالم . وأمر فبرزت ثابتة » : أوكما جاء فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس — « تكلم فصنعت العوالم . وأمر فخلقت » .

كان من نتائج ذلك أن برزت فى ثنايا العقل فكرة أن أقوم طريق وأسلم سبيل يتبعه المؤمنون هو الاعتقاد الكامل بكلتا النظريتين ، وأن الله بطريقة خفية قد خلق الكون فى ستة أيام ، بيد أنه أبرزه الى الوجود فجأة وفى لحظة واحدة . وعلى الرغم بما أهاب به عدد عديد من عظماء اللاهوتيين مثل « افرايم سيروس » - Ephraem Syrus - وغيره ، من أن الكون قد خلق فى ستة أيام تامة ، كل منها أربعة وعشرون ساعة ، فان نزعة التوفيق بين تلك الروايتين المتناقضتين قد أيدها القديسان « أتناسيوس » - St Athanasius - و« باسيل » - St Basil - فى الشرق والقديسان « أوغسطين » و « هيلارى » - St Hilary - فى الغرب .

ولقد نشأت صعاب اعترضت سبيل اللاهوتيين فى التوفيق بين هاتين النظريتين ، اللتين لن يقوما معاً فى عقل قياسى ، لما بينهما من الخلاف والتناقض . غير أنهم بما خصوا به من المهارة والحذق فى تأويل النصوص وقلب ظواهرها ، وبما جبلوا عليه من القدرة على اللعب بالالفاظ والجمل ، وبما لجؤوا اليه من طريقة الجنوح الى الاساليب الغيبية وكثرة ما استخدموا من نظريات ما بعد الطبيعة ، استطاعوا أن يصلوا

الى التوفيق بينهما ، حتى أصبح الناس وهم يعتقدون بأنهم اعتقدوا ، بأن خلق الكون كان فجأة وفى برهة واحدة ، بيد أنه امتد الى ستة أيام سوياً .

من الجهود التي بذلها اللاهوتيون فى سبيل التوفيق بين هاتين النظريتين نزر يسير كان خصب الانتاج متعدد الآثار ، حتى لنحده خايقاً بأن يخص بقسط من عناية الذكر . فان آباء الكنيسة ، فى الشرق وفى الغرب ، قد كونوا من مجموع ما كان بين أيديهم من روايات سفر التكوين ، والاشارات التى وردت فى المزامير ؛ والامثال ، وسفر أيوب - Job - هيكلا ضخما من العلم المقدس . كل جزء منه يمت الى هذه النظرية بسبب . أما خلق الكون جملة ، فقد لجؤوا لدى النظر فيه الى القول بما تصوروا من قوات سرية خفية منبثة فى تضاعيف بعض المكونات العددية . فان « فيلو يهوذاوس » - Philo Judaeus - بينما مضى معتقدا بنظرية الخلق الفجائى ، قد أعان بجانب هذا الاعتقاد ، أن الكون قد صور فى ستة أيام ، لان «العدد ستة ، من بين كل الاعداد ، هو الاكثر انتاجا » . ولقد أظهر أن خلق الاجرام السماوية لم يقع الا فى اليوم الرابع ، « لما فى العدد أربعة من صفات الالفة والاتساق » وأن خلق الحيوانات كان فى اليوم الخامس ، اشارة الى الحواس الخمس . وان خلق الانسان فى اليوم السادس ، فيه تلميح الى ما فى العدد ستة من الفضائل التى وضعت ذلك العدد كحد نهائى للعمل الخالق الكبير . ثم عمد الى ما هو أكبر من كل هذا ، فأشار الى أن راحة اليوم السابع انما تشير الى تلك الفضائل العظيمة السرية الكامنة فى العدد سبعة .

ولقد أيقن القديس « جيروم » - St Jerome - بأن السبب فى أن الله لم يصف ما تم من العمل فى اليوم الثانى من أيام الخلق بانه «حسن» إنما يرجع الى شيء هو سر بذاته مفروض وجوده فى العدد اثنين. وهذا الرأى قد تردد صداه عن طريق « بيده » - Bede - وفى جنبات بريطانيا العظمى ، بعد عصر « القديس جيروم » بقرون طوال.

أما القديس « أوغسطين » فقد الزم الكنيسة بهذا الاعتقاد متبعاً طريقة التدليل الآتية. قال :

« يوجد ثلاث فصائل من الارقام. الكامل والكامل والناقص ، وهذا بنسبة ما يكون فى مجموعها من الزيادة أو المساواة أو النقص عن العدد الاصلى. والعدد ستة هو أول عدد كامل. وعلى هذا لا يجب علينا أن نقول ان العدد ستة كامل لان الله قد انتهى من كل أعماله فى ستة أيام ، بل لان الله قد أنهى كل أعماله الخالقة فى ستة أيام لان العدد ستة هو العدد الكامل ».

ولقد ظلت جنبات الكنيسة تتجاوب باصداء هذه الاقوال طول القرون الوسطى حتى لقد ردد صداها « النورمبرج كرونكل » بعد ان استكشفت أمريكا بعام كامل ؛ مصبوبة فى القالب الآتى :

« ان خلق الاشياء قد تتضح حقيقته بالعدد ستة ، الذى نشير أجزاؤه الثلاثة الاول ، واحد واثنين وثلاثة ، الى صورة مثلث ».

هنا أصبح الاعتقاد بأن الخلق قد حدث فجأة فى حين أنه تم فى ستة أيام ، كل منها نهار وليل ، اعتقاداً عاماً شاملا ، حتى لقد أجازه « بطرس لومبارد » Peter Lombard و « هوغو السانفكتورى »

Hugo of St Victor وكلاهما جهبذ ذو وزن وصيت ، بل الزما العقل الكنسي أن يمضي له خاضعاً عصوراً طوالا .

على أن الامر لم يقف عند هذا الحد . فان طرق هذا التأمل الذهنى — من القول بأن كل شيء قد خلق من لا شيء ، والتوفيق بين الخلق الفجائي والخلق فى ستة أيام — قد نما وتطور من طريق فئة أخرى من كبار المفكرين فى القرون الوسطى . فان القديس « هيلارى بواتييه » - St Hilary of Poitier - قد وفق بين التصورين فقال :

« على الرغم مما هو واضح فيما جاء به موسى من الظواهر الدالة على اتباع نظام مطرد فى تثبيت القبة الزرقاء ، وفى تمهيد الارض اليابسة ، وفى تجميع المياه بعضها مع بعض ، وفى تكوين الاجرام السماوية ، وفى قيام الكائنات الحية من الارض والماء ، فان خلق السماوات والارض وبقية العناصر قد رؤى أنه نتيجة عمل وقع فى برهة واحدة » .

أما القديس « توماس اكوناس » - St Thomas Aquinas - فقد استخلص مما جاء به القديس «أوغسطين» تفصيلا دقيقاً فيه حذق ولباقة ، ذلل خلال عصور طوال ، كثيراً من الصعاب التى كانت تعترض هذه القضية إذ قال بأن الله إنما خلق مادة الاشياء فى لحظة واحدة ولكنه قضى ستة أيام فى العمل الخلق مفرقاً بين العناصر ، مصوراً للاشكال، منمقا فى التفاصيل .

واقد قبل متقدمو المصلحين هذا الرأى ونحوه ، وكان « لوثر » فى مقدمتهم مثبتا أنه خير كفء لهذا العمل الكبير . فاعان بما عرف فيه من شجاعة واقدام ، أن موسى « قد تكلم فى صراحة وجلاء ، ولم يلجأ

إلى المجاز والاستعارة» وعلى هذا «يكون العالم وكل ما فيه من المخلوقات قد خلق في ستة أيام» ولكنه مضى بعد ذلك مظهراً كيف أن كل الموجودات بتأثير معجزة كبرى، قد خلقت فجأة وفي لحظة واحدة.

وكذلك «ميلانكوتون» - Melancho:on - فانه صمم على القول بأن العالم قد خلق من لا شيء وبطريقة خفية في لحظة واحدة وفي ستة أيام معاً، معتمداً على النص القائل — «تكلم فخلقت».

أما كالفن — alvin — فقد رفض الاعتقاد بفكرة أن الخلق قد تم فجاءة، ومضى مثبتاً أنه وقع في ستة أيام. وبعد أن وجه الانظار الى أن التاريخ الانجيلي يظهر بجلاء أن عمر الدنيا لا يزيد عن ستة آلاف سنة، وأنها قاربت الفناء قال: «إن العمل الخلقي استمر ستة أيام حتى لا تضنينا التأملات طول أعمارنا اذا ما أردنا أن نقف على حقيقته»(١)

ولقد أثبت «بطرس مارتر» Peter Martyr هذا الامر قائلا —

«إن معرفة مسألة الخلق أمر ذو خطر كبير، حتى أن معتقد الكنيسة إنما يتخذه نقطة ابتداء وركيزة أولى. ولو أنه تعذر علينا اثبات هذه المسألة، لما استطعنا أن نقرر وجود خطيئة أولى، ولاصبح وعد المسيح بالخلاص لغواً باطلا، ولتحطمت بذلك كل القواعد الاساسية التي يقوم عليها ديننا». أما زعماء الدين في وستمنستر فقد رفضوا لدى تحديدهم قانون الايمان C n fession of Faith الخاص بهم، قانعين

---

(١) كأنه يريد أن يقول إن الخلق في ستة أيام كان لصالح الانسان وحده حتى لا ينصرف العمر في التأمل في خلق الكون اذا كان الكون قد خلق في أزمان طوال تحتاج الى تفكير في الزمان والتاريخ والتفاصيل.

بانه من الضرورى أن يعتقدوا بأن كل الاشياء المنظورة وغير المنظورة قد خلقت من لاشىء ، وفى ستة أيام سويا .

ولم يكن رؤساء الدين من تابعى الكنيسة الرومانية بأقل عناداً من مصلحى البروتستانت ازاء القول بضرورة الاعتقاد فى صحة قصة الخلق الموسوية كما يقولون . ولقد ظلت هذه الروح سائدة روع الناس ، حتى أن طائفة السوربون اللاهوتية قد أجبرت « بافون » . فى أواسط القرن الثامن عشر — وكان قد بدأ يقرر أوليات جيولوجية بسيطة ، أن يكتب وينشر فى الناس انكاراً مشيناً جاء فى نهايته : « انى أرجع عن كل شىء جاء فى كتابى خاصاً بتكوين الأرض ، وعلى وجه عام كل ما يمكن أن يكون مناقضاً لقصة موسى »

وبعد أن فرغ اللاهوتيون من تقرير طريقة الخلق ، ومادته والزمان الذى استغرقه ، رجعوا الى الكلام فى تحديد التاريخ الذى وقع فيه الخلق .

ان سلسلة الجهود الطويلة التى بذلها رجال خصوا باوسع المدارك وأرجح الاحلام ، من « ايوسيبيوس » — Eusebius — الى يوشر Usher فى سبيل تحديد التاريخ الذى وقع فيه الخلق ، قد تركت الكلام فيها الى فصل آخر . ويكفى هنا أن نذكر أن النتيجة الأخيرة التى وصلت اليها الاغلبية العظمى ممن يعتبرون أقدر الذين أكبوا على درس الاقوال التى جاءت فى الكتاب المقدس ، قد أسلمت الى القول

بان الخلق قد وقع فى زمان تعد سنوه بعدد عشرى ، ويقع حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م . وفى القرن السابع عشر ذكر الدكتور « جون ليتفوت » John Lightfoot وكيل جامعة كبردج ومن أشهر من نبغ ممن درسوا العبرانيات ، أن نتيجة ابحاثه القصية المستفيضة فى التوراة والانجيل قد أدت به الى حقيقة أن « السماء والارض ، والمحيط والمركز ، قد خلقن معاً ، وفى وقت واحد ، حيث كان الغمام الكثيف مملوء بالماء ، وان هذا العمل قد وقع ، وأن الانسان قد خلق بقدرة الثالوث الاقدس ، فى ٢٣ اكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، حيث كانت الساعة التاسعة من الصباح »

وكان هذا انتصار لاسلوب « لاكتانتيوس » — Lactantius وهو نتيجة الدرس العميق فى الانجيل والتوراة مئات من السنين وغاية لجهد الفكرة اللاهوتية منذ أن ظهر « بيده » فى القرن الثامن ، الى زمان « فنسنت بوفييه » Vincent Beauvais حيث أعلن فى القرن الثالث عشر أن الخلق لا بد أن يكون قد وقع فى فصل الربيع. لكن واأسفاه ! فانه لم يمض قرنان على ما بذل الدكتور « ليتفوت » من جهد فى درس العبارات المنزلة ليستخلص منها حقائق يحدد بها ساعة الخلق وتاريخه ، حتى استكشف الباحثون انه فى تلك الساعة التى حددها هذا اللاهوتى ، كانت أمة من أرق الامم مدنية وأمثلهن تهذيباً رافلة فى أبهى حلة خلعتها الحضارات على الامم فى الازمان القديمة ، بل كانت منذ عهد عهيد ، تجوب انحاء العواصم المتيدة فى مصر على ضفاف النيل ، وان امما اخرى لا تكاد تقل عن هذه مدنية وعلما ، قد بلغن درجة خطيرة من النشوء والارتقاء تحت سماء آسيا .

ولكن الاغرب من كل هذا ، أنه بعد أن فرغ اللاهوتيون من طريقة الخلق والمادة التى اتخذت خميرة للعمل ، والزمان الذى استغرقه والتاريخ الذى وقع فيه ، بقى سؤال هو فى الواقع انكى وأعظم سؤال يقتضيه النظر فى هذا الامر . ولم يكن هذا السؤال بشىء سوى النظر فى « من فى الواقع خالق الكون » .

لقد ظل العقل الكنسى أزمانا طوالا غرضا انظربات تختلف نسبة التشويش والابهام فيها بنسبة رجاحة العقول التى كونتها ، وقد اتفقت كلها على أن تتخذ متون التوراة والانجيل لها ركيزة ودعامة .

قال بعض اللاهوتيين ان الفعل الواقعى فى الخلق راجع الى الاقنوم الثالث من التالوت المقدس ، حيث ذكر فى أول قصة الخلق الشعرية الرنات « انه كان يرف على وجه الماء » (١) وقال آخرون بان الخالق الفعلى هو الاقنوم الثانى ، وقد استخلصوا من أسفار العهد الجديد نصوصاً كثيرة تؤيد فكرتهم . فى حين أن غيرهم عمدوا إلى القول بان عامل الخلق كان الاقنوم الأول ، وكان هذا الرأى منبثاً فى تينك القاعدتين الاصطلاحيتين المعروفتين فى قانون الايمان الخاص بالمذهب الرسولى والمذهب النيقاوى ، ذلك المذهب الذى اثبت أن الخالق هو من عمل « الله الآب القادر على كل شىء ، مبدع السموات والارض » . وغير أولاء وهؤلاء فئة رأت أن هنالك

(١) « في البدء خلق الله السموات والارض . وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء » . الاصحاح الأول من سفر التكوين .

معنى عميقاً تتضمنه كلمات — « قال الله ليكن » — تلك التي وردت في سفر التكوين منسوبة إلى الخالق ، فمضوا قانعين بان الثالوث الأقدس في مجموعة هو السبب المباشر في الخلق . ولجأ آخرون إلى مقولات غيبية غريبة ، فوصلوا الى فكرة أن أقنومين اثنين تساندا واندمجا حتى أتما العمل الخلقي الخطير .

وانك لترى أن كل هـذه المذاهب تنطوى على مقدار عظيم من الشجاعة والاقدام والجرأة اذا ما تذكرت بجانبها تلك اللعنات التي يصبها مذهب « اثناسيوس » المصرى Athanasius على أولئك الذين « يخالطون بين الأقانيم والذين يفصلون بين مادة الثالوث الأقدس » .

هذه الحالات التي تدرج فيها اللاهوت المدرسى قد ظهرت ممثلة في الفن المقدس ، وعلى الاخص في النقوش الكاتدرائية وتلوين الزجاج وزخارف الفيفساء والصور التي تزين بها كتب القداس .

وعلى هذا تجد أن الذات الخالقة قد مثلت مرة في الاقنوم الثالث (الروح القدس) فوضعت في صورة حمامة ترف فوق العماء Chaos ومثلت اخرى في الأقنوم الثاني (الابن) فكانت في صورة يافع تام الفتوة . ومثلت مرة ثالثة في الاقنوم الاول (الآب) فكانت شخصاً تتراءى فيه مخايل الابوة وصفات الاحترام . ومرة رابعة في الاقنومين الاول والثاني (الآب والابن) فكانت في صورة شخصين احدهما يافع والآخر كهل . ومرة خامسة في الاقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس) فكانت في صورة شخصين يافع وكهل ، يحمل كل منهما فوق رأسه التاج البابوى ، وكلاهما ممسك بين شفتيه بطرف القوادم من جناح

الحمامة ، حتى نظهر كأنها مستمدة منهما معاً وتظل معلقة فى الفضاء الواقع بينهما .

على أن هذا لم يكن اكمل وجه من النشوء وصلت اليه الفكرة اللاهوتية فى العصور الوسطى . فان الخالق كان يمثل فى بعض الاحيان بصورة بشرية ذات بدن واحد وثلاثة وجوه . وفى هذا دليل قاطع على ان المعتقد النصرانى قد تطور فى عقول بعض الاتقياء متدرجا من نفس تلك الحالات التى تمشي فيها معتقد أهل الهند القديمة منذ أبعد العصور ، اذ كانوا يمثلون « الذات العليا » فى صورة جسم بشرى ذى ثلاثة وجوه ، احدهم لبراهما والاخر لفيشنو والثالث لشيفا .

وفى بداءة الاعصر الحديثة اضطر العالم النصرانى ، تحت تأثير انبغ نابغة فى الفن اقاته الارض واظلته السماء ، ان يلزم ظاهر ذلك الرأى محبوكة أطرافه على تلك الصورة التى مثلتها افكرات العبرانية الاولى . ففى سنة ١٥١٢ ، دشن « ميكل انجيلو » Michel Angelo بعد اربع سنوات انفقها كدا ونصبا ، رسومه التى حلى بها قبة المعبد السستينى .

اماتلك الرسوم فقد صنعت بامر من البابا « يوليوس الثانى » . Julius II. وتحت عينه وباجازة منه لا لشيء الا ليمثل بها حقيقة التصور الذى مضى سائدا على اللاهوت النصرانى فى ذلك العصر ولاتزال حتى اليوم قائمة بكامل بهائها وعظمتها عنوانا على ارقى قمة بلغت اليها الفكرة القديمة تلقاء اصل الكون المنظور

فى منتصف السماوات العريضة ترى الآب ؛ اقدر القادرين ، والاقنوم الاول من الثالوث الآلهى ، فى صورة بشرية تحيط بها العظمة

ويحفها الاحترام ، ومن حوله الملائكة يقومون بتنفيذ أوامره تحماهم الرياح الزعازع القوية مكتسحة سطح الهاوية العظمى ، متنقلا فى منازل صورت على جنبات تلك القبة العظيمة ، وهو يجد فى كل منزلة منها فى اتمام جزء من العمل الخلقى الخطير . وبايماءة واحدة يفصل بين النور والظلام ، ويحمل الى العلاء القبة الزرقاء ، ويجمع من تحتها البحور المتلاطمة ، ويبرز الشمس والقمر والكواكب الى الوجود ، ثم يضعها حيث تدور من حول الأرض .

فى هذا العمل الفنى العظيم تركزت الفكرة التى ظلت اجزاؤها متناثرة خلال الف من السنين . ولقد مضت أرشد العقول قانعة بها أو على الاقل متظاهرة أنها بها قانعة ، وبعد مضى قرنين من الزمان على وجه التقريب ، قام « بوسوية » Bossuet ليلزم الناس العكوف على ظاهر هذا التصور ؛ مصبوبا فى قالب استمد من أولى الراويتين اثنتين وردتا فى سفر التكوين ؛ وبذلك عادت اليه قوة جديدة من الحياة فظل ثابتا فى تضاعيف الكنيسة بقسميها ، كاثوليك وبروتستانت

والى هذه المماحكات تضاف مماحكات أخرى بدأت فى الوجود خلال الازمان التى انتعشت فيها الكنيسة الاولى ، وظلت متنقلة فى منازل البقاء حتى زالت وفنت من عقول اللاهوتيين فى عصرنا هذا .(١)

ففى الرواية الاولى من روايتى سفر التكوين تجد أن الضوء قد خلق أولا ، وان الفصل بين النور والظلام قد تم فى اليوم الاول من أيام الخلق ، بينما تجد أن الشمس والقمر لم يخلقا الا فى اليوم الرابع . ومن

(١) أواخر القرن التاسع عشر .

حول هذه الروايات تكونت فكرات لاهوتية عميقة وآراء لاعلمية زائفة - فكرات وآراء تراكم بعضها من فوق بعض خلال الازمان متكاثفة حول تلك الحقيقة العظمى ؛ حقيقة أن المتون الاصلية ليست الا وحيا تاريخيا يثبت أنها مستخاصة من اقدم المعتقدات المروية عن القدماء ، حتى لقد حجبت تلك التصورات اللاهوتية هذه الحقيقة عن الانظار والعقول . فقد كان معتقد القدماء محصورا فى أن لكل من النور والظلام ذاتية مستقلة عن طبيعة الاجرام السماوية ، وأن الشمس والقمر والنجوم لم توجد لتزيد الضوء لا غير ، بل « لنفصل بين النهار والليل والابراج الفلكية والفصول والايام والسنين » - « ولتحكم الليل والنهار . »

ولقد نجد أن لهذا الاعتقاد ونبات في عقول آباء الكنيسة الاولى وعلى الاخص فى عقل القديس « امبروز » St Ambrose فانه يقول فى كتابه الذى خصصه للكلام فى مسألة الخلق :

« يجب علينا أن نعى أن نور النهار شىء ، وضوء الشمس والقمر والنجوم شىء آخر فان الشمس باشعتها الذهبية لاتظهر الا لتزيد النهار ضياء ولمعاناً . لاننا نرى أنه قبل شروق الشمس يتنفس النهار ، ولكنه لايكون فى كامل بهائه، لان الشمس من شأنها أن تزيده نوراً وضياء » .

ولقد أصبحت هذه الاقوال « كنزاً من كنوز الفكرة المقدسة التى تقوم عليها معتقدات الكنسية » فاعتنقها أهل القرون الوسطى ومضوا بها مؤمنين . على أن حفلات العشاء الربانى - Mysteries - والروايات التمثيلية التى ذاعت خلال العصور الوسطى تزودنا بأمثال

غريبة تؤيد ذلك . ففي رواية تمثل طريقة خلق العالم عند ما أراد الله أن يفصل بين النور والظلام ، يذكر فى الارشادات التى تعطى لمديرى المسرح فى صلب الرواية ـ « هنا يجب أن يكشف للنظارة عن قماش ـ ستار ـ نصفه أسود ونصفه أبيض » وكذلك زود هذا التصور بعوامل جعلته أكثر استقراراً مع الزمان . فإن زخارف الفسيفساء فى كنيسة « القديس مرقص » ـ San Ma c ـ فى مدينة البندقية ، والرسوم التى زين بها موضع العمادة . ـ Baptisty ـ فى فلورنسا وفى كنيسة القديس « فرنسيس » ـ St Fra c s فى « أسيزى » ـ Assisi ـ وفى نقوش المذبح فى « ساليرنو » ـ Salerno ـ تعطينا جميعها امثالا حية على هذا المعتقد . فترى الخالق قد وضع فى السماوات قرصان أو شبحان حيان في حجم واحد ، قد لون كل منهما بلون ملائم أو نقش بما يدل على أن أحدهما يمثل النهار والآخر يمثل الليل . ومما لا خفاء فيه أن هـذا التصور هو بلا ريبة تصور ذلك الشخص أو الاشخاص الذين جمعوا من الاساطير الكلدانية ، وغيرها أعرق منها قدماً ، تلك القصص التى بنيت عليها روايات الخلق التى ذكرت فى السفر الاول من الاسفار المقدسة. والى عهد قريب جداً ، لا يكاد يغرب عن ذاكرة الاحياء ، كان المعتقد على وجه الاطلاق ، « دائماً وفى كل مكان وعند كل شخص » أن الـكون كما نراه الآن قد خلق مباشرة من طريق صوت الواحد القهار ، أو بيده أو بكليهما ، من لاشيء ، وفى لحظة واحدة أو خلال ستة أيام أو فيهما معاً ، وأن ذلك وقع فى سنة ٤٠٠٠ قبـل بدء التاريخ الميلادى ، وأن هـذا الخلق لم يحصل إلا ليمتع به سكان الارض التى هى القاعدة والاساس

الذى قام عليه كل الهيكل الكونى .

غير أنه منذ أزمان بعيدة فرخت فى ثنايا العقل الانسانى جراثيم لفكرات أخرى قد يرجع بعضها إلى زمان أبعد من ذلك الزمان الذى اينعت فيه المدنية البابلية . فقد نجد فى النقوش الاشورية أثاراً تدل على تلك الفكرة الكلدانية البابلية التى تشير إلى « نشوء » الكون فى جوف « الغور الابعد » أو « الفيضان الاول » وإلى خلق الحيوانات فى البر والبحر . وهذه الفكرة ترجع بنا سمياً ، ولو بشكل جزئى ، إلى الصورة التوحيدية فى الدين ، تلك التى انتقلت بطريق التلقاح إلى الكتب المقدسة التى اختص بها العبرانيون ، جيران الكلدانيين وتلاميذهم . غير أن نشوء هذه الفكرات فى العالم النصرانى فيما بعد ، قد اعاقت خطاه ، كما سنرى ، روايات وأقوال أعظم تأثيراً وابلغ خطراً ، وردت من نواح آخر ، وكانت أكثر ملاءمة لما انطوى عليه العقل الكنسى فى بدء نشوء الدين المسيحى .

ومما يدعوا إلى النظر والتأمل تأثير تلك الفكرة التى عادت إلى الحياة فى عقول الفلاسفة الايونيين — Ionian Philosopheers — وقد يرجح أن تكون قد نقلت اليهم عن الكلدانيين من طريق الفنيقيين . ففى عقول رجال من الفلاسفة ايونيا امثال انكسنميدر — Anaxmander — وأنا كسيمنيس — Anaximenes — قد نمت هذه الفكرة نماءاً عظيما . فان الاول منهما قد رأى أن الكون نتيجة لاسلوب من النشوء ، فى حين أن الثانى قد مضى متبعاً خطوات سافه عاملا على أن يخطو بهذا الاسلوب التفكيرى خطوات أخرى ، معتمداً فى

فكراته على مؤثرات من النشوء السكونى أيدها العلم الحديث .

هذه الفكرة العامة التى تثبت أن الطبيعة انما تتبع فى أساليبها طريق النشوء لا طريق الطفرة ، قد استمرت ثابتة فى الفكر اليونانى وتشعبت فى طرائق كثيرة ، منها الزائف ومنها الصحيح . على أنه من المحقق أن أفلاطون قد قاوم هذه الفكرة . غير أن أرسطوطاليس قد أقام من نواحيها وشيد من نقائصها متبعاً أساليب كثيراً ماتذكرنا ، إذا ماوقعنا عليها ، بوجهات من النظر أقرها العلم فى العصور الاخيرة .

أما فى العصر الرومانى فان « لوكريشيوس » — Lucretius — قد عرف كثيراً من حقائقها ، حتى لقد طبق الاسلوب النشوئى على كل الموجودات .

ولقد رأينا من قبل كيف أن الفكرة فى الخلق المادى المباشر وعلى الاساليب التى يتبعها الانسان فى اعماله العادية ،قد تماسكت عقول رجال الكنيسة الأولى حتى اكتسحت منها كل التصورات التى قامت على فكرة النشوء . ومن تلك الآراء الأولية التى ذاعت فى الخلق منبثة فى تضاعيف الاساطير البابلية ومن ثم أندمجت فى تضاعيف سفر التكوين ؛ استمدت الفكرات الأورثوذوكسية نماءها هذا الموضوع الخطير ، واخذت تنمو حتى أصبحت فيضاً عرماً ظل ينساب تياره الجارف طوال القرون الوسطى إلى الاعصر الحديثة . غير أن امواج ذلك التيار الجارف المتلاطمة كثيراً ما كانت تتكسر بين آن وآخر على صخور صلدة من الافكار الحرة اعتنقها رجال خصوا بقدر عظيم من البأس وشدة المراس . فان « سقوطس ارغينا » ـ Scotus Erigena ـ

و« ذنزسفوطس » ـ Duns Scotus ـ بين فلاسفة العهد المدرسى ، على ما حف بهما من أسباب الحيرة والارتباك قد استنارا بشيء من تلك الخيوط المشعة التي كانت تنبعث من بين طيات الماضى البعيد ، فنقلا للخلائف من بعدهما مذاهب فى الأسلوب النشوئى فى خلق الكون ، محورة تحويراً ما

فى النصف الاخير من القرن السادس عشر اخذت هذه النظريات النشوئية تتحيز على صورة أدق وشكل اظهر فى عقل النابغة الكبير « جيور دانو بروند » Jiordano Brund اول واضع للفكرة الاساسية التى قامت عليها النظرية التى تسمى فى الاعصر الحديثة بالرأى السديمى Nebular Hypothesis غير أن استشهاده بحكم محكمة التفتيش فى روما كان سببا فى أن تختفى هذه النظرية وتزول تماما ، كما لو كانت قد احرقتها النيران المتلظية التي التهمت جثمانه سنة ١٦٠٠ على « الكامبو دى فيورى »

غير انه لم يمض قرنان على استشهاد « برونو » حتى خطا الناس الى عالم من الفكر كان من المحتوم أن نفرخ فيه فى جوه جراثيم نظرية نشوئية فى أصل الكون المنظور سريعاً وبلا مهل . فقد تتابع فى الظهور خمسة من رواد الفكر الانسانى الذين لم تجد بامثالهم بطون الامهات الواحد تلو الآخر ، فكانت سلسلة من العظمة والخلود مثل حلقاتها الخمس كوبرنيكوس وكبلر وغاليليو وديكرت ونيوتن ، فلم يصلوا الى نهاية عملهم العظيم حتى فنى التصور اللاهوتى فى حقيقة الكون وزال من عالم المعرفة العامة . « فالقبة الزرقاء الفسيحة الرحاب » ـ « والدوائر

البلورية » والواحد القهار متوجاً « على دائرة السماوات » واستخدامه يديه أو الملائكة في حفظ الشمس والقمر والسيارات في دورتها المرسومة لخير الارض وسكانها ، وفتح « نوافذ السماء » وغلقها ، انتصب على الارض « المياه المعلقة فوق القبة الزرقاء » و « تعليق قوسه على صفحة السحاب » (١) واظهار « الاشارات والعجائب » وارسال المذنبات ، « وانقضاض الصواعق » انتقاماً من الاشقياء ، « وهز الارض » هزة العنف من الغضب : كل هذه أشياء قضى عليها هؤلاء الرواد قضاء لا قيام لها بعده .

لقد زود هؤلاء الجلة العظماء العالم بوحي قدسي جديد . أما نيوتن فقد أبدع تصوراً نبيلا قدر له أن يكون سهماً مسدداً يصوب الى قوام النظرية القديمة في حقيقة الخلق ، بان أثبت أن نواحي الكون يحكمها قانون شامل ثابت القواعد ، بدلا عن قواسر إرادة واحدة تمثل في ذات كلية القدرة . أما اضطهاد عالم اللاهوت للاربعة الاول من حلقات هذه السلسلة فأمر معروف ذائعة حقائقه . ولكن حقيقة أن « نيوتن » قد اضطهد وعوجل بالعدوان ، على الرغم من الروح الدينية الحساسة التي كانت تملأ جوانحه ، لحقيقة قليلا ماعرفت . وبكثير من الشدة والصرامة في القول وجه اليه من الانتقادات أزاء أفكاره التي بشر بها في حقيقة قانون الجاذبية تقدمحـله ، « أنه انتزع من الله التأثير المباشر في خلقه وعمله الكوني ، ذلك التأثير الذي تنسبه اليه الكتب

(١) اشارة الى قوس قزح

المقدسة ، وبدله بقوة مادية ميكانيكية » وأنه « أبدل العناية الآلهية بالجاذبية» على أنه فضلا عن العمل المباشر الذى قام به هؤلاء الرجال ، فانهم مهدوا السبيل ، ووضعوا القواعد ، التى قامت عليها نظرية النشوء ، ناقضة لنظرية الخلق .

ومما لا يجب أن نغفل عن ذكره أن « رينيه ديكارت «Descartes على الرغم مما أحاط بكثير من استنتاجاته من الاغلاط ، وعلى الرغم مما كان فى زمانه من تأخر الفوسيقى وضعف المعرفة بكثير من مبادئها قد أثر عمله العظيم الذى قام به تأثيراً كبيراً فى أضعاف التصور القديم . فان نظريته فى الكون على اعتبار أنه نتاج تفاعل مادة شاملة نواحيه تضبطها فى نظام محبوك الاطراف حركات خاضعة لنواميس طبيعية، ولو لم تكن سوى فرضاً نظرياً صرفاً ، قد أثرت فى العقول تأثيراً حرفها عن التصور اللاهوتى القديم فى خلق العالم . لقد كانت نظرية « ديكارت » مثالا من الكد الذهنى اذ يوصل الى خطأ لا إلى صواب، ولكنه فى الوقت ذاته يمهد الطريق لظهور الحق الخالد . وعلى الرغم من أن « ديكارت » كان فى ذلك الزمان مقيداً بمخاوفه من الكنيسة مغلول اليد بتهديداتها ، فان ذلك الجزء من مؤلفاته ، وهو الذى تناول فيه تكوين العالم ، لم يكن بضعيف الاثر فى توجيه العقل الانسانى فى ذلك المتجه الذى أدى الى تقبل فكرات فاض بها على العالم مفكرون أقل منه خوفاً وأصاب عوداً

بعد هذا العهد بثلاثين عاماً ظهر فى انجلترا جهد جديد ، إن اختلف عن جهد « ديكارت » فى ماهيته ، فانه يتفق وإياه فى النتائج . ففى سنة

١٦٧٨ نشر « الف كادورث » «Ralph Cudworth» كتابه « نظام الكون العقلى » . ولا ريبة فى أن هذا الباحث يعتبر الى الآن من حيث سعة العقل والاستغراق فى الدرس وقوة التفكير والتسامح والامانة ، من أكبر مفاخر الكنيسة الانجليزية . وكان كتابه جديراً بأن يصدر عن مجموع هذه الصفات معاً . وكان غرضه من هذا الكتاب أن يبنى قاعة تحتمى وراءها النصرانية من غوائل كل النظريات الخطرة المهدمة التى ذاعت لعهده فى أصل الكون قديماً وحديثاً . أما الاساس الذى قامت عليه هذه القاعة الحصينة فقد بنى من فكرات قديمة صبت فى صور حديثة اخاذة بالالباب . غير أن البناء العلوى كان كلما أخذ فى الظهور للانظار شيئاً فشيئاً . ظهرت فيه مخايل كانت لا بد من أن تثير فى نفوس الغارقين فى بحار الاورثوذوكسية هواجسا وريبا ، ولو أن النبوغ والعبقرية قد تركا آثارهما الخالدة فى كل جزء من أجزاء ذلك البناء المتهدم . فلقد رفض تلك النظريات القديمة التى كانت توحى الى الناس بفكرة أن الله الواحد القهار قد صنع الكون بجهد ذاته وشخصه . ومضى قانعاً بنظرية النواميس الطبيعية وأثرها ، وأنحى على القول بتواتر وقوع المعجزات وتدخلها فى شؤون هذا العالم ، وأشار الى حقيقة أن فى طبيعة الخلق « أغلاطا » و « مخارق » ، ودلل بأقصى ما فيه من قوة على حقيقة أن الاصل فى تكوين العالم وحفظه على هذا النظام ، يرجع إلى أسلوب فى النشوء التدرجي ، وان هذا الاسلوب يخضع لنواميس ثابتة منبثة فى تضاعيف الطبيعة .

فى أواخر القرن التالى ظهر فى أفق البحث نابغة مفوق هو

« عمانوئيل كانت » ، وكان من بواكيره أن عكف على الرأى السديمى يقوى من دعائمه معتمداً على ما كشف نيوتن من نواميس الطبيعة وما وضع من نظريات ، فايد ذلك الرأى بما نبته وجعله أشد استقراراً عن ذى قبل ، وفى الوقت نفسه ظهر « لابلاس » فعضد ذلك الرأى بمبادىء رياضية بلغت أقصى حدود القوة والتأثير ، حتى اتمد غرس فى الفكر الحديث فكرة أن نظامنا الشمس وغيره ـ بما فيها من الشموس والسيارات والاقمار وحركاتها المختلفة وأبعادها وأقدارها — تنتج بالضرورة من خضوع الكتل السديمية لقوانين طبيعية ثابتة .

هنا عالت الصيحة من جانب اللاهوتيين فى وجه « الالحاد » واعانت الحرب صراخاً واندلعت السنتها النيرانية . غير أن العلامة «هرشل» قد كشف مع غيره من الفلكيين عن كثير من البقع السديمية التى تدل ظواهرها على انها من طبيعة غازية . بل اظهروا بكثير من البراهين الطبيعية والرياضية أن النظرية السديمية تعلل قسما عظيما من الحقائق الكونية ، وكانوا على الرغم من الضجيج والارعاد يذللون كل يوم عقبة ويجنون كل يوم ثمرة ، حتى إذا ما بلغ التلسكوب من حسن التركيب مبلغاً جعله أكثر رقياً ، واضبط كشفاً ، حققوا أن تلك البقع المكونة من المادة السديمية ماهى إلا عديد وافر من النجيمات المتقاربة الابعاد . على أن مناهضى الرأى السديمى لم يلبثوا إلا قليلا حتى أخذوا بهزات الفرح والسرور وبهروا بها ، بل بدءوا يرتلون اناشيد الابتهاج بعلم الفلك ، لانه ، كما كانوا يقولون ، قد اثبت حقائق الكتب المقدسة بالبراهين القاطعة ، وسرعان ما وصلوا الى نتيجة هي

عند قولهم بان كل السدم لابد من أن تكون متماثلة ، وانه اذا كان بعض السدم مكون لدى الحقيقة من كوكبات من النجيمات ، فان كل السدم لابد من أن تكون كذلك ، ولا يمكن أن يكون بعضها عبارة عن ركام من المادة الغازية ، لان بعضها ليس من هذه الطبيعة .

هنا وقفت خطا العلم قليلا ، فان المذهب الذى ساد اذ ذاك كان يتلخص فى القول بان السبب فى أن كل السدم لا تظهر فى صورة نجيمات مستقل بعضها عن بعض ، انما يرجع الى أن قوة التلسكوب لم تكن كافية للكشف عن حقيقتها . على أن الزمان كفيل باظهار الحق . فان الحق ردفى نصابه سريعاً باستكشاف الاسبكتروسكوب وطريقة الحل الطيفى ثم باستكشاف «فرونهوفر» ــ Frannhofer اذ عرف ان الحل الطيفي لجسم غازى فى حالة الاشتعال يكون غير متواصل بل تقاطعه خيوط تعترض تواصله ، وباستكشاف «درابير» — Draper اذ ظهر له ان الحل الطيفى لجسم صلب فى حالة الاشتعال يكون متواصلا بلا خيوط تقاطعه . وما وجه الاسبكتروسكوب الى السدم ، حتى عرف ان كثيرا منها غازى التركيب . ومن هنا ثبتت تلك النظرية القائلة بان هذه الكتل السديمية ليست سوى درجات مختلفة من التكثف ــ إذ يكون بعضها عبارة عن بقعة من الضباب و بعضها ذات مراكز مشمة ــ نستنتج منها أن خطا النشوء التكوينى لاتزال دائبة الفعل جارية التأثير ، وان مشاهدات مثل تلك التي وقع عليها لورد روس ــ Lord Rosse ــ وارست Arrest من شأنها أن تزيدنا اعتقادا بصحة هذه النظرية.

ومن بعد كل هذا حبانا العلم باعظم ميراث خلفه العلماء للقرن التاسع

عشر فى الفوسيقى ، ذلك الميراث الذى ساعد على تمايل كثير من معضلات النظام الكونى ، بنظرية ان الحرارة انماهى أثر ميكانيكى صرف

ولم يزد الرأى السديمى بالبحث العلمي الا قوة على قوته . ففى سنة ١٨٥٠ أجرى « بلاتو » — Plateau — تجربة فى دوران الكرات المائعة فكانت برهانا ان لم يثبت حقيقة الرأى السديمى بالاختبار ، فلا اقل من أنه مثله فى الواقع الملموس تمثيلا صحيحا ، حتى ان رجلا من اكبر مناصرى المذهب الاورثوذوكسى كستر «غلادستون » قد اعترف بعد لأى بان وجها ما من أوجه الرأى السديمى لايبعد أن يكون صحيحا

هنا ظهرت بوادر تلك الحلة التى تسلم فيها الأفكار اللاهوتية سلاحها لقوة العلم تحت عنوان ان العلم انما يؤيد من مذاهب اللاهوت. وتلك صورة فى التراجم كثر ما رأينا من أمثالها فى كثير من الميادين التى تناحر فيها العلم واللاهوت . ولا غضاضة فى أن نأتى على مثال ، ان كان محدود المرامى قاصر الغايات ، الا أنه من افضل الامثال التى توقفنا على تلك الطرق الغريبة التى كان ينتحيها اللاهوتيون ليصلوا الى مثل هذه الهزائم ما تمين فمن منذ سنوات قليلة (١) ألقى استاذ من اشهر أساتيذ الكيمياء فى مدينة نيويورك ، اجابة لدعاء رؤوس كنيسة من كنائسها الحديثة ، محاضرة أذيع فى الجرائد وفى الاعلانات الكبيرة التي غطيت بها جدران المدينة ، أن الغرض منها اظهار أن العلم يؤيد نظرية الخلق التى ترويها الكتب المقدسة المنسوبة الى موسى . فاجتمع عدد عظيم من السامعين وبدأ المحاضر فى اجراء عدة تجاريب فذة كان من أدواتها الاوكسجين والهيدروجين

(١) خلال العقد الاخير من القرن التاسع عشر

والحامض الكربونيك على الطريقة التى اتبعها « بلاتو » . والحق أن تلك التجاريب قد ايدتها المهارة ، ولم ينقصها الحبك العلمى ـ ولما ظهرت الكرة الزيتية الملونة التى تمثل الارض فى بيئة شفافة متعادلة الكثافة من كل جهاتها ، ثم تسطحت لدى القطبين وانبعجت من الوسط فخرجت من حولها المناطق التى تشابه مناطق زحل ، ثم تكسرت متطايرة ودارت حولها ، ثم تكونت هذه بعد ذلك اقماراً بان تمزقت مرة ثانية ، فظلت برهة تدور حول الكتلة المادية الاصلية ، عج المستمعون بصياح الفرح وراحو يصفقون باشد ما أوتوا من قوة . فقام رجل من أغنياء المدينة وعبر عن شكر الجموع التى كانت تستمع للمحاضر على ماظهر « لهم من صورة تنطبق كل الانطباق تفصيلا واجمالا على العبارات التى وردت من السفر المقدس وعلى نتائج العلم الاخيرة » . وما زال عجيج السامعين يشق الاجواء وتصفيقهم يصم الاذان ، حتى انصرف الجمع شاعراً بأن هذه الكنيسة قد خدمت الأورثوذوكسية امتع الخدمات وأبقاها .

وما تظهرنا عليه هذه الحادثة فى هذا الميدان على ضيق مجاله ، قد تكرر مرات عديدة فى مواطن أخرى حيث برز على مرسحها ممثلون أتم قدرة وأبعد جولة . فان عشرات من اللاهوتيين ، ولا نذكر من مشهوريهم كمثال يحتذى فى الفطنة والحماسة ان لم يكن فى العلم : الا مستر غلادستون ، قد بذلوا جهدا كبيرا فى سبيل « التوفيق » بين روايتي سفر التكوين بعضهما وبعض ، ومن ثم بينهما وبين الحقائق التي استكشفت فى أصل الكون من طريق علم الفلك

والجيولوجيا والفوسيقى والكيمياء .وقد ذكر لاهوتى من المشهورين : وهو استاذ اللاهوت فى جامعة كبردج، نتيجةذلك الجهدالعظيم ، فاعلن أنه «مامن محاولة قصدبها التوفيق بين سفر التكوين وبين الحاجات التى تتطلبها العلوم الحديثة قد عرف أنها نجحت من غير أن ناجأ الى قدر عظيم من الضراعة والتوسل او التأويل الاجبارى. تلك الاشياء التى تلزمنا بديهة العقل أن نبتعد عنها جهد البعد فى مثل هذه المشكلات » .

على أن ما أوحت به مستكشفات طائفة أخرى من العلوم التى كانت تعارض اللاهوتيين حينا ، وحينا ترضى نزعة التأويل التى نزعوا اليها ، قد مهدت السبيل لبلوغ حالة اطمأن اليها الذين شغلتهم هذه المشكلة . فجاء فى أول الامر نقاد أنجيليون - وهم لدى الواقع باحثون مسيحيون عمدوا الى خدمة الحق وأحبوا الوصول اليه - وبرهنوا بما لايحف به ريب ولا يعتوره شك ، على وجود روايتين مستقلتين للخلق على الاقل فى سفر التكوين ، وأن هاتين الروايتين قد يمكن أن يعمد الى التوفيق بينهما من طريق القسر والاجبار ، ولكنهما ، فى مفصلاتهما ، متناقضتين تناقضاً صريحاً . ولقد أظهر هؤلاء الباحثون الامناء فضلا عن ذلك أن تينك الروايتين ليستا نتاجاً لمخاطرات القساوسة ولا لماحكات الرهبان ومكرهم ، بل هما لدى الواقع المشاهد أجزاء متناثرة من أساطير وخرافات ومذاهب لاهوتية قديمة العهد ، خوطب بها اليقين المصفى من أكدار الشك واللاأدرية فقبلها. وانها لم تجمع بين دفتى معتقدما الا لتخدم اسمى الاغراض التى رمي اليها أولئك الذين أكبوا بداءة ذى بدء على وضع تلك الصورة التى صبت

فى قالبها كتبنا المقدسة

وعقب على هؤلاء اللاهوتيين علماء الارخيولوجيا واللغويون والباحثون فى العاديات القديمة من أمثال روانسون وجورج سميث وسايس وأوبرت وجنسن Jeusen ولوشارد ودياتش ، وفئات من أمثالهم المنقطعين للدرس والبحث فحلوا رموز الكثير من النقوش التى عثر عليها فى مكتبة أشوربانيبال فى مدينة Nineveh وهنالك وقعوا على رواية أو قصة فى أصل الكون تطابق فى أهم مفصلاتها وأدق صورها تلك الاقاصيص الاخيرة نعثر بها فى سفر التكوين.

لقد كان فى هؤلاء الافذاذ من الشجاعة ما جعلهم يشيرون الى هذه الحقائق وأن يصلوها بحقيقة أن تلك الاساطير والخرافات والنظريات التى ذاعت فى بلاد الكلدان وبابل . هى لدى الواقع أقدم بكثير من تلك التى نقع عليها فى أسفار العبرانيين ، على الرغم من أنها تشابهها ، وعلى الرغم من أننا نعثر عليها متناثرة خلال كتبنا المقدسة . ولقد أظهروا فضلا عن ذلك أنه من الطبيعى أن تكون الروايات اليهودية التى قصت فى حقيقة الخلق قد استمدت منها خلال أزمان بعيدة ، وذلك عندما نشأ أول انصار اليهودية بين الكلدانيين ، بل أبانوا كيف أن قصص الخلق اليهودية التى مستها روح الشعر قد اشتقت من التقاليد المقدسة التى ذاعت بين هذه الشعوب ، أو من منابع سابقة نراها شائعة بين كثير من الامم القديمة على اختلاف أصولها .

ولقد ألم المحترم دكتور « درايفر ـ Dr Driver ـ » استاذ العبرانيات ورئيس كنيسة كريست فى اكسفورد ، فى ما لخص فيه من عمق

الفكرة والشجاعة والترابط ماهو جدير بان يشرف اسمه كما يشرف المركز الذى كان يشغله، بهذه الحالات الماماً فائض الجوانب . فبعد أن ذكر أن العبرانيين كانوا شعباً من كثير من الشعوب التى فكرت فى حقيقة الكون وأصله، قال ـ « بأنهم نسجوا من الخيال روايات وقصصاً حاولوا أن يعللوا بها أصل الارض والانسان » . وأنهم ـ « كانوا يضعون تلك الروايات وضعاً من عندأنفسهم حينا ، ولجؤا الى أخذها عن جيرانهم حيناً آخر » . وأن ـ « نتفاً من النظريات التى ذاعت بين الاشوريين والفينيقيين قد احتفظ بها اليهود ، وان فى هذه النتف من المشابهة لما جاء فى القصص الانجيلية ، مايؤيد لنا زعم الزاعمين بان كلتيهما مدينتان بالاشتقاق الى أصل تقاليدى واحد » .

وبعد أن أتى على مقطوعات كلدانية فى أصل الخلق قال ـ « اذا استنرنا بنور هذه الحقائق صعب علينا أن نتعامى عن النتيجة التى تترتب عليها والتى توحى الينا بان القصة الانجيلية قد استمدت من نفس النبع الذى استمد منه غيرها من القصص . ومن الجلى أن المؤرخين الانجيليين قد أخذوا المواد التى اعتمدوا عليها من أخص التخيلات الانسانية التى ذاعت فى عهدهم . فالمواد الأولية التى تجمعت فى عقليات أمم أخرى فاخرجت أشد النظريات الكونية قربا من الغرارة وأمعانا فى البساطة ، أو اقترنت بصورة من صور التكثير . قد أعاد اليها الحياة ، وحور فيها ، نبوغ العقل اليهودى وعبقريته ، التى اختص بها مؤرخوه الاولون . فاستطاعوا أن يخلقوا من تلك الاشياء بيئة أينعت فيها دوحة من الحقائق الدينية نبتت أصولها ، وذهبت فروعها فى السماء .

ولقد أتى دكتور « رايل » — Dr Ryle — أستاذ الآلهيات فى جامعة كمبردج ، على حقائق ترجى الى هذه الجامعة والى مؤلفها من الشرف ما ازجت من قبل كتابات « درايفر » لجامعة اكسفورد. فقال بأننا اذا قلنا بأن المسيحي « إما أن يلقى ثقته فى منتجات البحث العلمى ، وإما أن ينبذ معتقدة فى الاسفار المقدسة ، كان هذا اقرب الاشياء الى العسف والابتعاد عن روح الحرية التى يسوق اليها المعتقد النصرانى ».
ثم قال: « إن الموقف الذى كان يقفه قدماء اللاهوتيين لم يصبح الوقوف فيه اليوم مستطاعا . وإن موقفاً آخر لابد من أن نلجأ اليه فى العصر الحاضر ، بل يجب أن نضرع إلى الله لكى يلهمنا ماهو ، وأن نستمسك به مملوئين أملا . » ومن ثم بدأ يقارن بين قصة الخلق العبرانية وبين أقاصيص أعرق منها قدما كانت قدذاعت بين شعوب تمت اليها بصلات الدم ؛ وعلى الاخص بالكونيات الاشوريه البابلية التى وجدت من قبلها ، وأظهر فى النهاية أن جماع هذه الروايات مشتقة من أصل واحد. بل أنه لم يقف عند هذا الحد من البحث ، بل قضى بأن كل محاولة يراد بها تأويل نواح خاصة من تلك الاقاصيص لتصبح من طريق التأويل فى ألفة مع الآراء العلمية الحديثة ، تقضى حتما بالالتجاء إلى تفسيرات لاعلمية زائفة . وقال باننا اذا أردنا أن نحتمى وراء تفسير علمى - « وجب علينا أن نعتبر الوصف العبرانى للكون المنظور وصفاً غير علمى إذا حكم فيه من ناحية المثل الحديثة فى العلم ، وانماهو يشاطر تماماً حدود المعرفة القاصرة خلال ذلك العصر الذى كتب فيه .
ولما وصل إلى الكلام فى رواية سفر التكوين فى أصل الانسان الطبيعى قال

إنها «تفسير فى عبارات بسيطة لخرافات ذاعت قبل زمان التاريخ، وماهى لدى الواقع إلا أوصاف تصويرية بعيدة عن روح العلم» .

من هذه الاقوال وكثير غيرها مما فاه به باحثون مسيحيون فى ممالك أخرى ، يمكننا أن نستنتج إلى أى مدى ذهب إنتصار العلماء على رجال اللاهوت القديم .

ولقد كان للابحاث التى تناولت الآثار الاشورية ، وغيرها من المنابع الاخرى ، اثراً حمل أوسع العلماء الذين درسوا فى المعاهد النصرانية علماً وأعمهم شهرة على التسليم بان أقاصيص الخلق التى ظل اللاهوتيون يعملون أزيد من الفى سنة على التوفيق بينها وبين المستكشفات العلمية ، تلك الاقاصيص التى سدت الطريق فى وجه كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن ولا بلاس ، قد نقلت نقلا أو نشأت محورة عن مجموعة تلك الاساطير والخرافات التى انتحلها العبرانيون من طريق علاقاتهم القديمة ببلاد الكلدان ، ومن ثم صيغت فى قالب توحيدى ، وأدمجت بعضها فى بعض إدماجاً غير تام التآلف ، ثم صيغت فى تلك القوالب الشعرية التى تقع عليها فى الكتب المقدسة التى ورثناها عن اسلافنا الاولين .

هنا نجد أن العلماء قد انقسموا قسمين . الاول يتكون من تلك الطوائف التى وقفت نفسها متوافرة على درس العلوم الطبيعية وعملت متضافرة فى سبيل تلك الحقيقة العظمى ، حقيقة أن الكون ، على الصورة التى نراه عليها الآن ، ليس إلا نتيجة لاسلوب من النشوء بأى أثراً لفعل النواميس الطبيعية التدرجى فى الحالات التى اختصت بها كتلة من المادة الاولية . والثانى يتكون من طوائف خطيرة من

العلماء أكبوا على العلوم التاريخية واللغوية والارخيولوجية ليستخلصوا منها براهين تثبت بالواقع المحسوس أن كل الاقاصيص المقدسة التى رويت فى أصل الكون كانت نتيجة تحول تحريفى استمد من فوضى الآراء العقيمة الساذجة التى ذاعت خلال العصور الاولى .

أما جموع اللاهوتيين الذين قاوموا نتائج العلم عصوراً طوالا فقد أدعوا بأنهم إنما جاهدوا وصارعوا فى سبيل أن ينصروا « حقائق الكتب المقدسة » ، حتى لقد كانوا جوابهم الاخير الذى أجابوا به على ما أظهر العلم من نتائج أولية بسيطة فى حقيقة نشوء الكون المادى قد انطوى على قولهم — «ان الانجيل حق وصدق». وإنهم لصادقون. ولو أن صدقهم هذا لدى الواقع أنبل وأقوم مما خيل اليهم أنه صدق حقاً . فان العلم فى حملته التى هزم بها اللاهوتيين ، قد وقع فى كتبنا المقدسة على حقيقة أنبل وأروع ، بل أعظم وأمتع ، من لزوم الظواهر التاريخية والتفسيرات الحرفية التى عكف عليها اللاهوتيون وجاهدوا فى سبيلها طويلا . وكلما تقدمنا فى بحث النتائج التى ترتبت على الصراع الذى وقع فى هذا الميدان، زدنا يقينا بصحة تلك النتيجة التى تلقى فى روعنا دائما بأن القيمة الحقيقية فى كتبنا المقدسة ، تلك القيمة التى لا يمكن أن يقدرها عقل أو يزنها خيال ، إنما تنحصر فى أنها عرفتنا الطريق التى يجب أن يجاهد فيها النوع الانسانى ليصل إلى تصورات ومعتقدات، وان يتشبث بآمال، أرقى مما بين يديه وأهدى ، سواء أفي الآداب أم الدين . فاذا حللنا طبيعة تلك الجهود واستعرضنا صورها على تتالى الاجيال والعصور، بان لنا ما في كل كتاب من الكتب المقدسة من القيمة ، وانضح

لنا أنه ثمين غال ، وأن كلا منها حق وصدق على اعتبار ما . على أن الحقيقة التى لا يجب أن نغفل عنها هى أنه ليس واحد من هذه الكتب فيه ما يتفق وتلك الاوليات الصحيحة التى وصل اليها النوع الانسانى فى العلم والتاريخ . كما أنه من أكبر العبث أن تحاول أن تصل الى التوفيق بين الطرفين . فان أقل ما فى أمثال هذه المحاولة من حمق . تعرض من ينبرئ اليها ، ونفس الكتب المقدسة التي يفرغ هذا الجهد فى سبيلها ، الى أخطار هوجاء ، أقلها أن يزول أثرها المنشود من صدور الناس

أما ما رمت اليه الكتب المقدسة التى ظهرت فى هذا العالم ، وكتبنا على الأخص ، فهو السير بأرقى التصورات والمعتقدات والآمال التى اختص بها النوع الانسانى فى طريق تدرجى من النشوء ينتزعها من غرارتها الاولى وطفولتها خلال تلك المزالق الكبرى والانقلابات الخطيرة التى تقع عليها فى تاريخ الانسان . وعلى الرغم من أننا نعتقد بأنها فى غالب أمرها ذات قيمة كبرى على اعتبار أنها مدونات كبرى لحقائق التاريخ المعروفة ، وعلى الرغم من أن الابحاث الحديثة قد أزادت لدينا من قيمتها على هذا الاعتبار . فننا انما نذهب فى تقديسها خطوة أخرى اذا عرفنا بأن قيمتها العظمى لا تنحصر في أنها مدونات تاريخية ونفى لاغير . بل مرآة تنعكس عليها صور النشوء والتطور التى أصابت قلب الانسان وعقله وروحه . إننا نعتبر أنها حق وصدق لانها نشأت على مقتضى القوانين التى احتكمت في تطور الحق فى تاريخ الانسان ، ولأنها

كيفما ظهرت وعلى أية صورة برزت ، فكانت شعراً أو ذكراً للحوادث التاريخية أو تقنينا أو تشريعاً أو أساطير أو خرافات أو مضرباً للامثال أو قصصاً ، قد أبانت لنا عن أنبل ما صادف الانسانية من صور النشوء خلال الازمان . فاذا ادعى انسان بأنها غير صحيحة كان مثله كمثل من يدعي أن وجود زهرة أو شجرة أو سيار من السيارات امر غير حقيقي . وانك اذا استهزأت بهم فانك انما تستهزىء لدى الواقع بناموس الكون العظيم . فان استجماع صور جميلة من تصورات الرجال الذين وقعوا تحت تأثيرات موحيات عريقه فى القدم ، سواء اكانوا فى مصر أو الكلدان أو الهند أو فارس ، على الصورة التى تراها في سفر التكوين أو المزامير أو سفر أيوب أو غير ذلك ، لعمل خدم به جامعو الكتب المقدسة الحديثة الانسانية اكبر خدمة؛ اذ زودوها بكنز يزداد قيمة على مر العصور . كما أن العلم الحديث باستبداله السماوات والارض القديمتين بسماوات جديدة وأرض جديدة ، وحكم القانون بحكم الارادة القاسرة ، وفكرة النشوء بفكرة الخلق ، قد أضاف ، ولا يزال يضيف ، صوراً من وحي جديد تمدنا بها العناية القدسية .

فى ظلال هذا الضوء الذى انبعث من هذين النشوءين ، الاول نشوء الكون المادى : والثانى نشوء خرافة مقدسة في الخلق ، يمكن للعلم واللاهوت ، اذا خصت عقول اهلهما معاً بقدر كاف من السعة والعبقرية ، أن يوفق بينهما ، وأن تهدأ ثورتهما ازاء بعض . فأن خطوة من اكبر الخطا التى سوف تحدث هذا التوفيق قد خطاها اكبر معهد للفكرة اللاهوتية

في العالم الانجليزي ، إذ اعترف في مجموعة المقالات المسماة « لوكس ماندي » Lux Mundi والتي خرجت من بين جدران اكبر معقل للارثوذكسية في جامعة اكسفورد . بأن الاقاصيص التي رويت في الخلق انما استمدت من نبع خرافي . لهذا تساءل رئيس اساقفة كنتربري . « الا يتفق أن يكون الروح القدس قد استخدم في أزمنة ما ، الخرافات والأساطير » ؟



٢ — التعاليم اللاهوتية فى أصل الحيوانات والانسان

الاقوال التى ذاعت فى خلق الانسان خلال القرون القديمة والعصور الوسطى ـ قبول آباء الكنيسة الأولى للنصوص الحرفية التى وردت فى سفر التكوين ـ المصلحون ـ محدثو اللاهوتيين كاثوليك وبروتستانت البراهين اللاهوتية في تقسيم عالم الحيوان ـ الفزيولوغوس Physiologus والزولوجيا الخرافية Bestiaries ومضارب الامثال Eexmpla ـ بدايات المشاهد الشكية ـ نشوء الاسلوب العلمى فى درس الطبيعة ـ تحطيم النظرية اللاهوتية في الخلق

***

فى احدى نوافذ كاتدرائية « أولم » ـ Ulm ـ نقش على الزجاج يرجع تاريخه الى القرون الوسطى ، يمثل فيه الواحد القهار منهمكا فى خلق الحيوانات. وفى تلك الفترة بالذات خرج من بين يدى العناية القدسية «فيل» كامل الاوصاف. وهو منقل بالدروع وعليه سرج وغطاء كأنه على أتم الأهبة للقتال. ولقد وردت أمثال من هذه التصورات فى مخطوطات علمية ، وفي الكتب المطبوعة القديمة، وتجمعت كل هذه التصورات والآراء فى نواة واحدة، ظهر فيها العزيز القدير مجداً فى تصوير أول انسان من « صلصال كالفخار » ، منتزعاً من جنبه ، بكل مشقة وقوة، أول امرأة ظهرت فى الوجود .

على أن هذه النظرة العامة فى اسلوب الخلق قد انحدرت الينا فى خلال الازمان القديمة ، حيث كانت قد ظهرت لابسة صوراً شتى من آراء كونية عتيقة مختلفة الصور والالوان . فانت ترى حتى اليوم فى

المعابد المصرية القديمة بفيلة ودندره أمثالا تريك كيف يجبل آلهة النيل كتلا من الصلصال فتخرج من بين ايديهم رجالا ، وكذلك تقع فى الالواح الاشورية على مثل هذا العمل منسوبا الى آلهة بابل . حتى اذا انحدرت بك السنون الى عصرنا هذا وقابلت كتب المقدسة . ألفيت أن هذه الآراء والتصورات بعينها قد اتخذت قاعدة لتطور جديد اسبغت ذيوله على اللاهوت الحديث .

مضى آباء الكنيسة قانعين بان يعكفوا على النص الحرفى الذى صيغت فيه اسطورتا الخلق المتناقضتين فى سفر التكوين ، وبعد أن افرغوا جعبة الجهد والبحث فى سبيل التوفيق بين هاتين الروايتين . وأن يدمجوهما ليكونا كلا واحداً . رضوا بان يعتبروهما آخر محك للرأى ومجس للفكر فى اصل الكون وكل مافيه . وفى بداية القرن الرابع الميلادى وضع « لاكتانتيوس » أول قاعدة لتلك الطريقة التى لم يقصد بها من شيء الا إخضاع كل الاشياء الأخرى التى اتخذت وسيلة لدرس الخلق ومنشئه ، للمتن الحرفى الذى جاء فى الكتب المقدسة . وأيد فكرته فى خلق الانسان باشارة لغوية قائلا بأن آخر مخلوق خلق سمي بالانسان لأنه صنع من الارض — Homo ex humo ».

وفى النصف الثانى من القرن الرابع بذاته أيد القديس أمبروز St Ambrose أسلوب النص الحرفى الذى جاء فى المتون المقدسة خاصا بالخلق ، وهو ذلك الرجل الذى أعلن فى كتابه الذى بحث فيه أصل الخلق « أن موسى قد فغر فاه وصب منه كل ماقال الله له » . ولكن رجلا أعظم من هذين قد استطاع أن يربط هذه الفكرة باللاهوت

النصرانى وأن يوثق لها منه . فان القديس « أوغسطين » فى كتابه « تعليقات على سفر التكوين » قد وضع فى جملة واحدة قانونا جامعا ظل للكنيسة دستوراً حتى عصرنا هذا . اذ قال . « لايمكننا أن نقبل من شيء الا اذا أيدته الكتب المقدسة بسلطانها ، لان هذا السلطان أعظم من كل القوات التى يختص بها العقل الانسانى » . على أن قوة السلطة التى تراها فى الجملة الاصلية قد جعلت اصداءها ترن خلال القرون المتعاقبة (١)

وعلى الرغم من ذلك الانقلاب الكبير الذى أثار غباره القديس « أوغسطين » نفسه وتابعه فيه سلسلة من أعظم رجال الكنيسة محاولين ، كما سنرى بعد ، أن يحوروا فى الآراء التى سادت فى أصل الكون فان قولة « أوغسطين » قد ظلت مغشية على عقول الناس أشد الغشاوة طوال القرون الوسطى . أما « فنسنت بوفيه » الدومينيكى ، ومن أكبر الانسيكلوبيذيين ، فعلى الرغم من أنه مضى فى كتابه « مرآة الطبيعة » يخرج آراء استمدها من ارسطوطاليس بآراء أخذها من الانجيل ، فانه وقف يؤيد أولى الروايتين اللتين وردتا فى سفر التكوين . وأظهر الفضائل العظمى التى يختص بها العدد « ستة » ليتخذ ذلك سبيلا الى القول بأن هذا هو السبب فى أن كل الاشياء قد خلقت فى ستة أيام . وفى أواخر القرون الوسطى قبل العلامة الثبت الكردينال « دايلى » كل شيء جاء فى الكتب المقدسة خاصا بالخلق قبولا حرفياً بلا تبديل أو تحوير . وانك لاتقع خلال كل هذه العصور المتطاولة على نزعة الى

(1) Major est Scripturae anctoritas quam omnis humanı ingenii capacitas

انكار شيء من هـذا ، اللهم الا فيما كتب ثقة آخر من النقـاة هو «غريغوري ريش — Gregory Reisch» فقد ذكر في كتابه الذي خصصه بالكلام في بدايات الاشياء ، بعد أن وضع فيه صورة من الحفر على الخشب مثات الواحد القهار ينتزع حواء من جنب آدم ، كما مثات كل الطبيعة المخلوقة في ستار اللوحة ؛ مايظهره بمظهر القانع بفكرة القديس « أوغسطين » من الاعتقاد بوجود مادة سبقت فعل الخلق في الزمان .

وفي عصر الاصلاح الديني ألقى « لوثر » بسلطانه العظيم في ذلك الميدان مؤيداً لفكرة قبول النصوص الحرفية التي جاءت في الكتب المقدسة ، واعتبارها النبع الاوحد لكل العلوم الطبيعية . ولقد رفض كل التفسيرات المجازية أو التصوفية التي قال بها متقدمو اللاهوتيين قائلا — « لماذا يلجأ موسى الى المجاز بينما هو لايتكلم في مخلوقات مجازية أو في عالم مجازي ، بل يتكلم في مخلوقات حقيقية أو عالم منظور يمكن أن يرى وأن يلمس وأن يدرك . ان موسى انما دعي الاشياء باسمائها الحقيقية ، كما يجب علينا أن نفعل . واني اعتقد أن الحيوانات قد وجدت دفعة واحدة في عالم الله ، كما وجدت الاسماك في جوف البحار » .

ولم يكن تشبث « كالفن » بفكرة قبول النص الحرفي لرواية الخلق في سفر التكوين ، بأقل من تعنت « لوثر » ولقد أنذر الذين يجرءون على الاعتقاد بوجهة من النظر تخالف مايذهب اليه بأنهم بذلك انما « يسيئون الخالق ، وأنهم يكونون على نظرة من قاض عدل ينسفهم نسفا » . ولقد مضى معتقداً بأن كل أنواع الحيوانات قد خلقت في ستة أيام كل منها نهار وليل ، وأنه لم يظهر منذ ذلك العهد أي نوع جديد على

اطلاق القول . ولقد قال بأن الطيور قد استحدثت فى الماء ذاكراً أن هذا القول تجيزه بعض نصوص من الكتب المقدسة ؛ ولكنه يضيف الى ذلك — « بأنه اذا كان لابد من أن يجاب على هذا السؤال من ناحية القواعد الفوسيقية ، فاننا نعرف أن الماء أكثر قرباً للهواء منه للارض ». ولقد عالج بعض الصعاب التى واجهته فى لزومه لظاهر رواية الخلق كما وضعت فى الكتب المقدسة بقوله ان الله — « رغب بتلك الصعوبات أن يبرهن لنا على قوته وسلطته ، فيفرغ علينا الدهشة والعجب » .

ولقد تشبثت بهذه الفكرة كل العقول الفذة فى الكنيسة الرومانية . وفى القرن السابع عشر أسبغ « بوسويه Bossuet » عليها من ضياء عقله الكبير أنواراً كستها أبهى الحلل . ففى كتابه « أبحاث فى التاريخ العام » . ذلك الكتاب الذى ظل القاعدة الاساسية لا لتعاليم اللاهوتية وحدها ، بل لكل التعاليم التاريخية فى فرنسا حتى عصر الجمهورية الاخيرة ، نجده وقد عمد الى تنبيه الاذهان الى مايعتبره آخر ماتنزل به الوحي فى حقيقة الخلق ، مؤيداً القول الحرفى بأن الارض لم تخلق الا للانسان « وأن يد الله هى التى تحفظ على المادة القابلة للفوضى نظامها المحكم المرسوم » .

ولم يكن تعنت البروتستانت فى التمسك بهذه الفكرة بأقل من تشبث الكنيسة الرومانية . ففى القرن السابع عشر حاول الدكتور « جون ليتفوت » Dr John Lightfoot وكيل جامعة كمبردج ومن أكبر من اشتغل بالعبرانيات من ابناء عصره واثبتهم فيها قدماً ، أن يوفق بين اسطورتى

الخالق فى سفر التكوين فقال — « بأن انواع الحجاوات النظيفة قد خلق سبعة من كل منها ، ثلاثة ازواج للتوالد . والفرد السابع ليضحى به آدم عند هبوطه من الجنة . كما سبق فى علم الله » . وزاد الى هذا أن الحجاوات القذرة لم يخلق منها الا زوج واحد من كل نوع .

ولقد كان لزوم هذه التصورات الظاهر ماجاءت به الكتب المقدسة كبيراً . حتى اننا مهما بلغ بنا الخيال وسما بنا الوهم فى هذا الزمن . فاننا لانستطيع أن ندرك الى اى حد بلغ بهم الاكباب على لزوم النص الحرفى لهذه الآيات . ولقد مثل الواحد القهار فى كل ما ظهر من كتب اللاهوت وفى الاناجيل المصورة وفى كل كتب الفن على اختلاف الوانها فى صورة مكبرة يحف بها الجلال ولكن على نمط صانع من صناع « نورمبرج » الذين يحترفون صنع الدمى والاعيب الصبية . ولقد مرت أزمان مثل فيها لعبارات التى وردت فى سفر التكوين بصور اشد من هذا لزوما لظاهر النصوص . فاعتمادا على عبارة معروفة فى المتون المقدسة مثل الخالق فى صورة حائك جالس والابرة فى يده . مجداً كل جد فى أن يحيك من جلود الحيوانات ستراً لآدم وحواء . على أن مثل هذه الامثولات لم تكن لتعترضها أية صعوبة تحول دون ولوجها الى ثنايا العقول فى القرون الوسطى . وفى عصر الاصلاح البروتستانتى وبنفس هذه العقلية وخضوعا لهذه الروح . قيل . عندما بدأ استكشاف الحفريات يغزو نواحى الفكر بتوحيات جديدة . بأنها « لم تكن الا نماذج اعمله . وافق المهندس الاعظم على بعضها ولم يوافق على البعض الآخر » — أو أنها « تصاميم لصور من المخلوقات سوف تخلق فى

المستقبل » — أو أنها « من ألاعيب الطبيعة » — أو أنها « اشياء بنت في طبقات الأرض لتستثير عجب الانسان » . ومازالت امثال هذه التعاليلات تتنقل في منازل البقاء شاقة انفسها طريقاً في بحور الزمان ، حتى أن عالماً طبيعيا من الاعلام في عصرنا هذا ، وقد استثارته الحماسة وأخذته الغيرة على أن ينجي من الزوال طريقة الاكباب على النص الحرفي لسفر التكوين ، قد عمد الى الاعتقاد بان الله قد لوى الطبقات الجيولوجية ليا وصدعها تصديعاً ، ثم امالها وعقصها بعد أن نثر في جوفها صور الحفريات وخدش في ظاهرها خدوشاً تمثل المجارى الجليدية . ونشر من فوقها العلامات التي تدل على التآكل الذى تحدثه المياه ، ثم امر شلالات نياجرا بأن تنصب بكل مايتصور من قوة . وأن كل هذا تم في برهة واحدة ، بل في غمضة عين ، وبذلك ألغز الدنيا وحوطها بالاسرار ، « لغرض لايمكن تعليله ، ولكن ليظهرنا على جلاله وعظمته » .

أما الناحية التي مضت فيها العقلية اللاهوتية ، وكان لها فيها تطور ونشوء ، فتحصرت في تقسيم مملكة الحيوان .

من الطبيعي أن يكون الفرق بين المخلوقات المفيدة والمؤذية من أبكر التقاسيم التي يقع عليها العقل النازع الى البحث والتنقيب . لهذا قام في العقول سؤال فذ . كيف أن آلهاً خيراً حكيما يخلق النمور والأفاعي والسوك والفئران ؟ اما الجواب فقد عثر عليه في الاعتبارات اللاهوتية قائما على فكرة الخطيئة . فقيل بانه عندما وقعت خطيئة الانسان الاولى حقت على الانسان كل الشقاوات ، وكتبت عليه كل المصائب . وظل رجال من اعظم من اقلت الارض نهي وحكمة يؤيدون على مدى ثمانمائة

من الاعوام الطوال ، نظرية أنه قبل معصية آدم لم يكن موت ، فلما وقعت المعصية تبعتها الوحشية والتقتيل .

على أن بعضاً من الاقوال التى تمثل الاساليب التى تطورت فيها هذه الفكرة جديرة بأن نعرض لها بذكر . فان القديس « اوغسطين » بكثير من الطلاوة وحسن السبك قد أيد بل اكد حقيقة القول بأن عالمي الحيوان والنبات قد صبت عليهما اللعنة استتباعاً لخطيئة الانسان. وبعد أن قيل هذا القول بقرنين من الزمان ، وبعد أن طال متنقلا من قدس الى قديس ، ومن لاهوتى الى لاهوتى ، انحدر الى عصر « بيده » وهناك قبض عليه هذا اللاهوتى ونشبت به ، لا لشيء الا ليقول بأنه قبل سقوط الانسان كانت كل الحيوانات وادعة غير مضرة ولكنها اصبحت بخطيئة آدم إما مسمة وإما مفترسة . ثم قال — « لهذا خلقت الحيوانات المفترسة والحيوانات المسمة لتزعج الانسان — لانه سبق فى علم الله ان الانسان سيخطيء ويعصى — حتى يكون على حذر من أن تناله عقاب جهنم الاخروى » .

وفى القرن الخامس ادمج « بطرس لومبارد » هذا الرأى فى كتابه اللاهوتى الكبير الذى اسماه « الجمل » Sentences ذلك الكتاب الذى اصبح فيما بعد متناً للاهوت طوال القرون الوسطى . ولقد أيد فكرة أنه — « مامن شيء مخلوق قد أعد لان يكون مضراً للانسان مؤذيا له مالم يكن قد اخطأ . إنما اصبحت الحيوانات مضرة مؤذية لتزعج الانسان وتعاقبه على رذائله، ولتحضه على الفضيلة وتكملها فى نفسه. لقد خلقت الحيوانات غير مؤذية . فلما أن وقعت المعصية انقلبت مضرة أبلغ الضرر »

أما هذه النظرية اللاهوتية التى وضعت فى الحيوانات فقد أيدها « جون ويزلى » John Wesely فى القرن الثامن عشر بكل ما أوتى من قوة . ولقد اعلن بانه قبل خطيئة آدم « لم يحاول شىء من ضروب الحيوان أن يضر أو يأكل غيره أو أن يوقع اى ضرب من ضروب الاذى باية وسيلة على حيوان آخر » ولم يقتصر الامر على « ويزلى » وحده . بل أن الشهير دكتور « آدم كلارك » Adam Clarke ودكتور « ريشارد وطسون Richard Watson وهما اللذان كان لآرائهما اكبر الوزن بين المنشقين على الكنيسه Dissenters بل بين اكبر مفكرى الكنيسه الرسمية Established Church قد وثقا كل الثقة بهذه النظريه ومضيا بها مؤمنين ولقد طال هذا الرأى سائدا على اكبر العقول وارجح الاحلام أزمانا . أما بعد أن زودنا علم الجيولوجيا بحقائق دلتنا على وجود عدد عديد من الحيوانات المفترسة . وعلى أن كثيراً منها قد عثر عليه وفرائسه نصف مهضومة فى معداتها . وأنها انقرضت من الوجود قبل أن يوجد الانسان فوق الارض بأزمان موغلة فى القدم ، فحينذاك استطاع العلم ان ينتصر على اللاهوت فى هذا الميدان الفسيح .

ولقد تطور هذا المذهب تطوراً آخر تركز حول معتقد متقدمى المفسرين الذى قام حول اللعنة التى صبت على الأفعى فى سفر التكوين . وهو اعتقاد من الضرورى أن يصبح طبيعيا مادامت الظواهر تدل على أنه معتقد أصيل ثبت فى يقين الذين كتبوا تلك الرواية التى حفظت فى أول كتبنا المقدسة . اما ذلك الاعتقاد فقد انحصر فى أنه حتى الوقت الذى لعن

فيه الواحد القهار الافعى المغرية ، كانت كل التعابين والافاعى تقف منتصبة وانها كانت تمشى وتتكلم .

ومازال هذا المعتقد ينحدر من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل على اعتبار أنه جزأ من « خميرة الايمان المقدس » حتى جاء « وطسون » اكبر منتجى الكتاب الذين ظهروا فى عصر الاصلاح الانجيلى فى القرن الثانى عشر ، واكبر علم من اعلام اللاهوتيين الذين ضمهم حزب الانجيليين وأعلن — « بانه ليس لدينا من بينة تحملنا على الاعتقاد بان الحيوان كان ذا صورة ثعبانية على اى اسلوب وبأية درجة حتى أدركته الاستحالة والتغيير ، او الاعتقاد بأنه اذ ذاك قد مسخ زاحفة تدب على كشحها فيستدل به . على الضد مما نعتقد ، على فقدان كامل وتغيير محض للصورة الأصلية . » ومن هذا المعتقد زود الاسلوب اللاهوتى العقول بنتائج ناضجة استوعبتها اصح العقول التى نشأت بين احضان الكنيسة خلال الفين من السنين . غير ان هذه « الخميرة المقدسة » قد ذابت عندما عثر الجيولوجيون على ثعابين وأفاعي حفرية دبت فوق الأرض من قبل أن يكون للانسان على ظهر البسيطة أثر بازمان متطاولة .

ولقد قامت بين اللاهوتيين مناقشات عديدة تتعلق بالحيوانات التى صرفوا عليها اسم الحيوانات « الزائدة عن الحاجة » . اما القديس « اوغسطين » فقد كان ذا ميزة خاصة امتاز بها فى هذا الميدان . قال — « انى اعترف صراحة بجهلى وقصورى عن ادراك السبب الذى من اجله خلقت الفيران أو الضفادع أو الذباب أو الديدان . إن كل الحيوانات اما أن تكون نافعة او مضرة أو زائدة عن الحاجه بالنسبة الينا . أما المخلوقات

المضرة فنعال وجودها بأنها انما خلقت لتعاقبنا أو لتنظمنا أو لتزعجنا حتى لا نتمادى فى حب هذه الحياة » اما الحيوانات الزائدة عن الحاجة فقد قال فيها — « إن هذه الحيوانات وإن كانت غير لازمة لخدمتنا ، الا أن مجال تصميم الكون قد انتهى عندها وفرغ منه بها » . أما « اوثر » وقد اتبع ما قال القديس « أوغسطين » فى بحث كثير من المشكلات اللاهوتية فقد نفر من أن يتابعه تماما ازاء هذا الاشكال . فقد اعتقد بان الذبابة ليست فقط زائدة عن حاجة الخلق . بل هى مضرة أيضا . فنها كثيرا ما يرسلها عليه الشيطان لتشغله عن القراءة وتقطع عليه تيار فكره .

ولدينا موضوع آخر كان سبباً فى كثير من البحث فى نصوص الكتب المقدسة، حتى لقد نشأ عن هذا البحث كثير من مختلف ضروب الفكر اللاهوتى وانحصر هذا الموضوع فى الفرق الكائن بين خلق الانسان وخلق الاحياء العضوية الاخرى .

ولقد علق اللاهوتيون جميعاً . حتى القديس توماس اكويناس وبوسويه ، ومن لوثر الى ويزلى ، أهمية عظمى على الفرق البين الذى نص عليه سفر التكوين اذ ذكر بان الله قد « خلق الانسان على صورته » . اما المعنى الذى انطوت عليه هذه العبارة فقد ابان عنه نص مقدس آخر فى سفر التكوين جاء فيه (١) عن آدم انه « ولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا (٢)

---

(١) «وخلق الله الانسان على صورته . على صورة الله خلقه» — تكوين : الاصحاح الاول - سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد

(٢) يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله . ذكراً وانثى خلقه وباركه

واعتماداً على هذا القول وعلى نصوص معروفة انتحلت عن اساطير خلقية قديمة ادمجت فى الكتب العبرانية المقدسة ، ذاع الاعتقاد بأن الانسان إذ فطر وصور بيد الله مستقلا عن بقية الخلق جميعاً . فان الحيوانات إطلاقا قد برزت من الأرض والبحار ملبية صوت الخالق وكلمته .

وهنا قام سؤال معضل تناول مسألة «التفريق بين أنواع الحيوانات» على أن الغالبية العظمى من اللاهوتيين متفقون على القول بأن الحيوانات قد خلقت « منذ البدء » وسماها آدم ، وأنها حملت فى السفين ، وأنها استمرت من بعد ذلك معينة بانواعها المعروفة حتى الآن . ولقد تنقل هذا الاعتقاد مع الزمان حتى نضج فصار مذهبا . وهو ككثير غيره من مذاهب الكنيسة بشعبتيها ، من كاثوليك وبروتستانت ، تجد أن العثور على اصله الاول بالبحث فى ثنايا الفلسفة الوثنية ، اكثر سهولة مما هو فى الكتب النصرانية المقدسة . وانك لتجد أن لهذا الاعتقاد اكبر آصرة بافلاطون وارسطوطاليس منه بموسى والقديس بولس . غير أن هذه الحقيقة لم يلتفت اليها ولم تلق اهتماما . وهكذا مهدت السبيل شيئاً فشيئاً حتى أصبح من الضرورى أن يعتقد أن كل نوع من الانواع على اختلافها وأن كل الفروق الكائنة بينها قد طبعها الخالق على صورها « منذ البدء » وأنه لم يطرأ عليها أى تغيير ، بل ان التغيير والنشوء لم يكن من الممكن أن يطرأ عليها .

ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مئة وثلاثين سنة . ولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثاً . » تكوين : الاصحاح الخامس : سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد

ولقد نشأت بعض الصعاب تبعاً لارتقاء علم الزولوجيا ـ الحيوان ـ وعلى الاخص عند ما أظهر ذلك العلم أن عدد الانواع التى تعرف يزداد يوما بعد يوم . غير أن اللاهوتيين استطاعوا أن يستقووا على هذه الصعاب بسهولة خلال العصور الوسطى ، وحتى عهد طويل بعد قيام حركة الاصلاح البروتستانتى ، بأن يوسعوا من حجم سفينة نوح يوماً بعد يوم بنسبة استكشاف أنواع الحيوانات الجديدة ، وبأن يلجأوا الى القول بأن هنالك خطأ انسانياً (١) وقع فى قياس حجمها .

غير أنه كان من الطبيعى أن تقوم بين أهل اللاهوت وبين عامة الناس على السواء ، شهوة انسانية تتجه الى البحث فى أشياء أبعد غوراً من هذه الاشياء فى تاريخ الكائنات الحية . شهوة ساقتهم الى البحث وراء معرفة « ماهى الخليقة » فى حقيقتها؟

على أن الخرافات السائدة والروايات المتضاربة وأقاصيص السائحين ، على الرغم مما كان فيها من الاختلاق والضعف ، قد فعلت فعلها الاقوى فى احياء روح الاستطلاع فى هذا الميدان

قبل بدء التاريخ الميلادى بثلاثة قرون قام أرسطوطاليس بأول جهد حقيقى رمى إلى إيفاء شهوة الاستطلاع التى اتجهت فى هذه السبيل ، فبدأ أبحاثاً مستفيضة فى التاريخ الطبيعي ، لاتزال حتى اليوم عنوانا على أقصى قمة من الانتاج العقلى وصل اليها الانسان خلال عصور التاريخ .

غير أن ذلك الشعور الذى رأينا من قبل كيف كان تأثيره فى الكنيسة خلال عصورها الاولى — شعور أن البحث والدرس لافائدة

(١) منسوب للانسان

منهما وأنهما لغو باطل على اعتقاد أن نهاية العالم قد قربت — وقد عبرت عنه نصوص « العهد الجديد » — الاناجيل — بأجلى بيان ، ورددته بأعلى صوت رجال عظام مثل لاكتانتيوس والقديس أوغسطين ؛ قد صد تيار ذلك الفكر العلمى عن أن ينبعث فى تلك السبيل القيمة قرونا عديدة . غير أن الميل الاقوم من صفات الانسانية قد ظل محققا وجوده خلال الازمان . والحقيقة أن تأثيراً شب من ثنايا الكتب العبرانية المقدسة قد دفع الانسانية بقوة نحو تلك الغاية . فنك ترى أنه على الرغم مما كان من الممكن أن يقول لاكتانتيوس أو القديس أوغسطين فى حماقة الاكباب على درس الطبيعة ، فان تلك المقاطع الضخمة التى تتضمنها المزامير فى وصف جمال الخلق وعجائبه ، مصبوبة فى ذلك القالب الشعرى الرائع ، قد أظهرت الناس نبالة الاكباب على درس الطبيعة حتى بين أولئك الذين كان يبعدهم منطقهم عن الاهتمام بدرسها .

غير أنه كان من الطبيعى أن تصب كل هذه الدراسات وعلى الاخص فى أحضان الكنيسة الاولى وخلال العصور الوسطى فى قالب لاهوتى صرف . فان الاستغراق فى درس أسرار الطبيعة لم يكن فى نظر أهل الدين الا ضرراً تتناول آثاره الجسم والروح . حتى لقد كان يعتبر هذا الدرس سقيما لاقيمة له ما لم يكن الغرض منه تقرير شىء جاءت به الاناجيل أو تفسير شىء روحانى . ولم يكن ينظر فى هذا الامر نظرة اعتبار جديرة به الا اذا اتجه الباحثون فيه الى اظهار عظمة الله والاغراض التى رمى اليها عندما فكر فى الخلق وأوجد الخليقة . أما مؤلف

أرسطوطاليس الخالد فقد غشى عليه وأهمل. ولم يعر دمتقدموا المفكرين من أهل الكنيسة اهتماما ولا عرفوا له مقاما. حتى لقد تجد أنه قليلا ماحاول اللاهوتيون أن يمسخوه الى شيء مخالف تمام المخالفة لروحه العامة ولاسلوبه، اهمالا لشأنه وعمى عما فيه من الحق الثابت. ولقد استعاضوا عنه بالفزيولوغوس (١) _ Physiologus _ والزولوجيا الخرافية _ Bestiaries أى علم الحيوان الخرافى، جامعين فى ذلك بين نصوص من الكتب المقدسة، وخرافات القديسين، وتخيلات ما نزل بها من سلطان، جمعت بين روح التقوى وبين الغفلة التى هى لزام روح الطفولة فى غرارتها. ولقد حلت السلطة _ سلطة الكتب المقدسة كما فسرها الفزيولوغوس والزولوجيا الخرافية _ محل البحث العلمي. أما هذه الكتب فقد ظلت نبع الفكر الذى استقى منه المعرفة تلقاء العالم الحى أكثر من الف شداد من السنين.

ولقد ظهر بعض الخوف حينا بعد حين بين زعماء الكنيسة ورؤسائها من بحث فى الخليقة بلغ هذا المبلغ من الضعف والفساد. ففى القرن الخامس قرر مجمع ضم رؤساء المذاهب الدينية تحت رئاسة البابا «غيلاسيوس» _ Gelasius _ وأتهم الفزيولوغوس، بل وجه اليه لوما وتعنيفا. غير

(١) الفزيولوغوس — عنوان وضع فى القرون الوسطى لمجموعة من الرموز النظرية يبلغ عددها الخمسين، ولا تزال باقية الى اليوم مفصحة صورا عديدة، وفيما لا يقل عن اثنى عشرة لغة من اللغات الشرقية والغربية. ولما كانت كل صورها المخيلية قد استمدت من عالم الحيوان اطلق عليها ايضاً اسم _ Bestiary _ فهي اذن والزولوجيا الخرافية سواء فى الروح والمرمى. راجع دائرة المعارف الانجليزية الكبرى م ١١ ص ٥٥٢ .

أن نزعة البحث فى الطبيعة كانت قوية فتية ، حتى أن الـكتاب الـكبير الذى وضعه القديس « باسيل» فى الخليقة ـ Creation ـ قد استمد من الفزيولوغوس أمثالا كثيرة تعبر عن العظمة القدسية ؛ وكان من نتيجة ذلك أن أجازه البابا «غريغورى الكبير » ـ Gregory The Great ـ أشد البابوات الاول حزما وأشدهم بطشا .

بهذا تكون علم مقدس للخليقة وللقصد القدسى الذى يسير الطبيعة ، ومضى ينشأ ويتطور منذ بداءة القرن الرابع الميلادى الى القرن التاسع عشر ! أى منذ ظهور القديس باسيل الى القديس ازيدور الاشبيلى ، ومن آزيدور الاشبيلى الى فنسنت بوفيه ؛ ومن فنسنت الى رئيس الاساقفة « بالى» Paley ومقالات « بردجووتر Bridgewater »

ولقد نشأ هذا العلم ، كما نشأ كل شىء غيره خلال القرون الوسطى ، خاضعا للاساليب اللاهوتية . على أن الطبيعيين الذين أقاموا أسس هذا العلم ، مع اهمالهم للحقائق الجلى التى كان من الممكن أن يقعوا عليها من تشريح أحقر حشرة من الحشرات ، فقد حاولوا أن يفسروا حقائق الطبيعة بنصوص يستمدونها من المتون المقدسة ، بان يبحثوا فى سير القديسين وتراجم حياتهم ، وبتطبيق الـكثير من مقولات الميتافيزيقا

ومن هنا جاء السبب فى ان رجالا عظاما من طابع القديس إزيدور الاشبيلى قد جمعوا فيما كتبوا أوصافا « لذى القرن » (١) Unicorn ـ وهو

---

(١) اصل الـكلمة لاتينى من (Unicorum) ومعناها ذو قرن واحد . (Un corn)وهي مركبة من مقطعين الاول(Uni)اى واحد و(Cornu)اي قرن. ويغلب ان تـكون كلمة قرن العربية مأخوذة عن اللفظة اللاتينيه . ويطلق على

حيوان خرافى يشبه الحصان و يمتاز عليه بقرن فى جبهته ، والدراغون Dragon وهو ما يعبر عنه فى العربية بلفظة تنين ،وقد ذكرتهما المتون المقدسة ، أو يتناولون بالوصف طير العنقاء Phoenix والافاعى الخرافية « البزليق » Basilisks (١) التى ذكرتها الكتب الموضوعة . ومن هذه السبيل ذاعت الخرافات والاضاليل مثل القول بان « البزليق » يقتل الثعابين بزفيره، والناس بمجرد النظر اليهم ، وأن السبع اذا طورد فانه

هذا الوصف من العبرانية كلمة (ريم) ولعلها المستعملة في اللغة العربية . قال الشاعر و يرجح أنه بن الجهم :

ريم على القاع بين البان والعلم   افتى بسفك دمى في الاشهر الحرم

والريم نوع من الظباء . وقال بعض الرحالين إن فى بلاد كردوفان نوع من الأيل له قرن واحد . ولعل الكلمه أطلقت اولا على هذا النوع ثم استعملت اطلاقا على الايائل . والكلمة تستعمل الى الآن بلفظ (ريم) Reem في المعاجم الانجليزية . وكانت تطلق على الثور الوحشى — Bos Primi genius— راجع برون في شرح الاسفار المقدسه . وقيل بان هذا النوع هو الذى عناه أيوب فى سفره . قال .

« أيرضى الثور الوحشى أن يخدمك ام يبيت على معلفك . اتربط الثور الوحشى برباطه في التلم أو يمهد الاودية وراءك . أتثق به لان قوته عظيمة أو تترك له تعبك . أتأتمنه أنه يأتى بزرعك ويجمع الى بيدرك » . سفر أيوب الاصحاح التاسع والثلاثون ص ٦٤٢ طبعة الامريكان . راجع أيضاً مادة Reem في معجم وبستر والمعجم الانسيكلوبيذي .

(١) تعريب الكلمة الاصلية Basilisk وأصل الكلمة يونانى من بازيليكوس Basilikos ومعناه ملك صغير او زعيم قبيلة ، او اسم لنوع من الافاعى سمي بهذا الاسم بعد بلينيوس Pliny لان برأسه ما يشبه التاج .

يمحو آثاره بطرف ذنبه ليضلل المطاردين ، وأن البجع Pelican يغذى افراخه بدمه ، وأن الثعابين تاتى بسمها بعيداً قبل أن ترد الماء للشرب ، وان السمندل يطفىء النار ، وأن الضبع — المرفعين — يتكلم مع الرعاة ، وان انواعا معينة من الطير تولد على ثمر انواع من الشجر مخصوصة عندما تكون على وشك السقوط الى الماء . . . . الى غير ذلك من مكنونات العلم التى لا تقل عن هذه قيمة ولا تنزل قدراً

اما الاسلوب الذى وضع به العلم ليكون موافقا للكتب المقدسة فان «الفزيولوغوس» يعبر عنه أحسن تعبير بان يلجأ فى التمثيل الى تلك المقطوعة التى ذكرت فى سفر أيوب Job عن السبع العجوز الذى قضى جوعا لندرة الفرائس . ولقد كان للمحاولات التى أريد بها تفسير كلمة غير عادية وردت فى النص العبرانى اثراً تراكمت من حوله الاخطاء بعضها تلو بعض ، حتى أن خطى التطور قد مهدت السبيل الى رواية « النمل السبعى » الذى يساعدنا على أن نفهم ما هو السبع الذى ذكر فى سفر أيوب اذ قالوا . « اما النمل السبعى فان أباه كانت له صورة السبع وامه صورة النمل . وكان الاب يعيش على اللحوم والام على الاعشاب . ومن هنا نشأ النمل السبعى مزيجاً من كليهما ، وأن كان يشابههما فى الاجزاء ، لان جزءه الامامى كان كالاسد ، وجزءه المؤخر كان كالنمل . اما وانه كان على هذه الصورة ، فانه لم يقدر أن يأكل اللحوم كأبيه ، ولا العشب كأمه ؛ و بذلك هلك ومات » .

فى أواسط القرن الثالث عشر انتصر هذا الاسلوب اللاهوتى انتصاراً كبيراً بنشر كتاب عظيم ألفه بارثولوميو — Bartholomew

الفرنسيسكانى الانجليزى والذى سماه « خصائص الاشياء » The Properties of Things أما الاسلوب اللاهوتى لدى تطبيقه على العلم فليس فى أكثر الامر بشىء سوى أن يقبل الانسان التقاليد وأن يتقبل البراهين التى توافقها وتساعدها على البقاء . وكان « بارتولوميو » فارساً من فرسان هذا الميدان . فقد بدأ بفكرة اساسية هى أن يستخلص من الكتب المقدسة كل الاشارات التى أشير بها الى الاشياء الطبيعية ، غير أنه لم يلبث أن عمد الى وصف الطبيعة وصفاً عاما متخذاً من المنطق دعامة . ولما أن أراد أن يتكلم فى الافعوان Cockatrice الذى ذكرته الكتب المقدسة قال « إنه ييبس اوراق الشجرة الخضراء او يحرقها اذا لمسها ؛ وأن سمه زعاف قاتل ، حتى أنه يقتل كل من يقترب منه بلا تلكؤ أو توان . ومع كل هذا فان ابن عرس ينغلب عليه ، لان عضة ابن عرس تقتله قتلا . والافعوان على الرغم من أن سمه قاتل وهو حى ، حتى أنه لا يوجد دواء يشفى من يصاب به ، فانه يتجرد من كل مضاره اذا أحرق حتى يصير رماداً . أما بقاياه بعد الاحتراق فتفيد فى الألكيمياء Alckemy وعلى الاخص فى تغيير المعادن وتبديل خصائصها » .

على أن « بارتولوميو » لم يقف هنا ؛ بل حاول أن ينير الاذهان بان يتناول بالوصف حيوانات مصر فقال — « إن التمساح اذا عثر بانسان واقف على حافة الماء فانه يقتله ؛ ومن ثم يبكى عليه ، ثم يزدرده »

ولا يفوت مثل هذا الطبيعى الفرنسيسكانى أن ينفق الكثير من الجهد فى وصف « التنانين » التى ذكرتها الكتب المقدسة ، فقال — « ان التنين هو أعظم الافاعى كلها ، وغالباً ما يقوم من وجره ويطير فى الجو فيحرك

الهواء، وكذلك البحر، فانه يطغى ويتهيج من سمومه، وأن له عرفا (كالدجاج) وأنه يرفع لسانه الاعلى، وان اسنانه كالمنشار، وأن فيه قوة وبطشا، وان قوته لا تكون فى اسنانه وحدها بل فى ذنبه أيضاً؛ وأنه يرسل مضراته عضاً ولدغاً. وغالباً ما تجتمع أربعة أو خمسة تنانين معاً، ثم يرتبطون باذنابهم ويرتفعون الى العلاء رؤوسهم ثم يسافرون فوق البحار لكى يحصلوا على اللحم الجيد. على أن بين الفيل والتنين عداء مستحكما وجلاداً مستمراً. فانّ التنين يلدغ بذنبه الفيل. والفيل بخرطومه يسقط التنين و يلقيه صريعا. أما السبب الذى من أجله يرغب التنين فى دم الفيل فبرودته التى يرغب فى أن يرطب نفسه بها. ويقول «جيروم» إن التنين حيوان متعطش للدماء كل تعطش، حتى أنه يفغرفاه فى مهب الريح ليطفىء شيئاً من عطشه المتسعر. ولهذا السبب يرتمى على شراع المراكب التى تمخر فى ريح طيبة ليحصل على قليل من الهواء البارد فيقلب السفينة ويغرقها »

هذه الآراء التى أتى بها الراهب « بارتولوميو » قد ذاعت بين الناس أشد ذيوع ورسخت فى أذهانهم رسوخا. ولقد ترجم كتابه الى كل لغات أوروبا الحية، وكان من الكتب التى أكب الناس على قراءتها كل أكباب خلال عصور الايمان النصرانى. ولقد احتفظ الكتاب بمكانته طول ثلاثمائة من السنين الطوال. حتى لقد احتفظ بمكانته بعد اختراع الطباعة، فقد بلغت طبعاته عشراً فى اللاتينية وأربعا فى الفرنسوية؛ كما ترجم عدة مرات الى اللغة الفلمنكية والاسبانية والانجليزية. وكذلك الوعاظ فانهم وجدوا فيه ضالتهم، إذ عمدوا اليه يتخذون منه الامثال التى يعبرون بها عن الطريق التى اختارها الله

لتكون صلة له مع الانسان . وظل هذا الكتاب حافظاً لسلطانه على العقول حتى عصر الاستكشاف البحرى، اذ بدأت الحقائق تحل شيئا فشيئاً محل الاستنتاج اللاهوتى . حينذاك فقد الكتاب أهميته ونزل عن سلطانه .

ولقد فشى هذا النوع من العلم فى كتب « الزولوجيا الخرافية » - Bestiaries - التى كانت تتناولها الأيدى فى كل مكان ، وعلى الأخص أيدى الدين كانوا يعظون من فوق المنابر فى الكنائس ليهدوا جموع المؤمنين سواء السبيل ، ويثقفوا عقولهم بالطرف المثلى . ولقد نقع فى كل هذه الكتب ، كما نقع فى كتاب جمعه فى اوائل القرن الثالث عشر الميلادى « وليم النورماندى » - William of Normandy - أحد رجال الكنيسة المعروفين — على الدرس الآتى: تلد اللبوة جراء يظلون ثلاثة أيام بلا حياة، وبعد ذلك يأتى السبع فينفخ فيهم فتلابسهم الحياه . . . وعلى هذا النمط ظل المسيح عيسى ثلاثة أيام محروما من الحياه . غير أن الله الآب قد أنهضه حياً منصوراً ،،

ولقد استخدم هذا العلم فى سبيل نشر التقوى ، وعلى الأخص اذا حدث أن يكون العاملون على بثها فى الصدور رهبانا واعظين . فقالوا بأن فى بعث العنقاء الى الحياة بعد أن تصير جسمها رماداً ، دليل على يوم النشور . وأن تركيب القرود وتشويه خلقهم يبرهن على وجود الشياطين - وأن وجود قردة بلا أذناب برهان على أن إبليس جرد عن عظمته الأولى وان بنات عرس إذ ،، تغير دائما محالها ولا تستقر فى مكان ، مثل لمن فسق عن عهد الله ، فلا يجد مكانا يستريح فيه ،،

أما المقالات الادبية التي ظهرت في ذلك العهد فقد أخذت صورة كتب في التاريخ الطبيعي ، ليتسنى لواضعيها ومنشئيها أن يكونوا اكثر بيانا للناس عن حقائق تلك التعاليم الدينية المقتطعة من الطبيعة. ففي كتاب الراهب الدومنيكي « توماس الكانتمبري » - Tuomas of Contimpre ”في النحل“ نقع على تعاليم تبث في روعنا - ”أن الزنابير تطارد النحل وتعلن عليها الحرب لان بينهما عداء طبيعيا موروثا“ - وان هذه الزنابير تمثل لنا الشياطين الذين يعيشون في الجو، وأنهم مع الصواعق والاعاصير الجويه يهبطون على النوع الانساني بالمصائب والمضرات . ومن ثم يستطرد في فصل طويل ذاكراً حوادث وامثالا لحرب الشياطين التي تعانيها على الذوات الفانية . وعلى هذا السنن سار رصيفه الدومنيكي « نيدر » Nider عضو محكمة التفتيش في كتابة « تل النمل » - The Ant-Hill - فعلمنا أن نمل « إيثيوبيا » - Ethiopia - الذى يذكر أن له قرونا ، وانه ينمو حتى يصير في حجم الكلب ، هو في الواقع رمز واشارة للهراطقة المزدولين امثال « ويكليف » - Wyclif - والهسيون[1] - Hussites - «الذين ينبحون على الحق ويعضونه بانيابهم.

(١) اتباع « جون هس » - John Huss - وقد ولد من أبوين فقيرين ومن الطبقة الدنيا في هوسينتز بوهيميا في سنة ١٣٧٠ ميلادية وصار راهبا في سنة ١٤٠٠ م. وقد اسع في الفلسفة المذهب الواقعي الذى علمه « ويكليف » ثم ترجم كتبه الفلسفية ، فجر بذلك على نفسه عداء رئيس اساقفة براغ . وكان من نتاج ذلك أن حوكم أمام مجلس كونستانس ، وعلى الرغم من أنه منح عهد أمان من الامبراطور سيجموند (أو سيجيسموند) فقد صدر عليه الحكم

فى حين أن نمل بلاد الهند ، الذى يستخلص الذهب من الرمل باقدامه ويستجمعه من غير أن ينتفع به ، مثل للعمل البائر الذى يبذله الهراطقة إذ يحفرون كنوز الكتب المقدسة ويدمجونها فى كتبهم للاغاية ولا قصد»

ان هذه الروح ، روح التقوى والخضوع ، لم تغز العلم وحده . بل تعدته الى الفن ، وعلى الاخص فى الكاتدرائيات . ففى الميازيب الرمزية [١] - Gargoyles التى كانت تعلق على الجدران ، وفى الاشكال المجونية التى كانت تعلق على الابراج أو التى ترى جاثمة على القباب ، والتنانين التى ترى دانية تحت العقود المشيدة على الطرق ، أو المتسللة من خلال الاعشاب ، والوحوش السرية التى كانت تحفر عادة على منصات التلحين ، والتى كانت تنقش على الزجاج ؛ أو تغزل فى الطنافس أو ترسم بين سطور كتب القداس وكتب التراتيل أو على حواشيها : عامة هذه الاعاجيب الخلقية كانت تعتبر عند الناس ضروبا من الآداب والسلوك استمدت من الفزيولوغوس وكتب الزولوجيا الخرافية ومضارب الامثال ــ Exempla.

من بين الرجال الذين لم يكن للكنيسة عليهم من سلطان ظهرت فئة فى مختلف البقاع والازمان ابرزت للوجود مؤلفات ارقى نزعة وأثمن قيمة . ففى القرنين الثاني عشر والثالث عشر دون « عبد اللطيف » [٢]

بأنه من الهراطقة واحرق حيا في ٦ يوليه سنه ١٤١٦ ، وكذلك لحق به تلميذه « جيروم البراغي » فاحرق فى ٣٠ مايو سنة ١٤١٦ م .

(١) ميازيب كانت تصنع لتصريف مياه الامطار من فوق المبانى تشابه رأس حيوان او انسان أو تنين بشع المنظر أو غير ذلك من الاشكال الغريبة .

(٢) يقصد المؤلف عبد اللطيف البغدادي صاحب وصف مصر المعروف

ملاحظاته فى تاريخ مصر الطبيعى ؛ فكان فى هذه الملاحظات قدر غير ضئيل من الروح العلمى البحت ، كما أن الامبراطور فردريك الثانى قد حاول أن يشجع الناس على البحث فى الطبيعة بحثا أو فى انتاجا وأعلى قدراً . غير أن احد هذين قد اتهم بأنه مسلم، والثانى بأنه فاسق عن الدين. غير أن « جيرالدوس كبرنسيس » ـ Giraldus Cambrensis ـ وهو من رجال الكنيسة المعروفين ، كان فيما الف أكثر تلاؤما من هذين مع روح ذلك العصر . فانه فى كتابه المعروف باسم « طبوغرافية ايرلاندا » Topography of Ireland ـ قد أبدى اهتمامه بالحيوانات التى تقطن الجزيرة ، ولكنه قلما غفل عن أن يستخلص من كل منها حالة يستعين بها على استخلاص صورة من صور الاخلاق أو السلوك . فيقول مثلا إن « النسور فى ايرلندا تعيش أعماراً مديدة حتى ليخيل الينا أنهم مساهمون فى الابدية . وكذلك الحال فى القديسيين ، فانهم بتركهم صفاتهم القديمة واتخاذهم الصفات الجديدة التى اهابت بهم الى القداسة ، يحوزون تلك الثمرة السعيدة ، ثمرة الحياة الابدية ». ويقول أيضا ـ « كثيراً ما تبلغ النسور فى طيرانها ارتفاعات عظيمة حتى أن الشمس قد تلفحها فتشيطها. وهكذا الحال فى الذين يحاولون أن يقفوا على تلك الاسرار الدفينة القصية التى تتضمنها خفايا السموات لاكثر مما تسمح به الكتب المقدسة ، فانهم يذادون عنها ويدفعون الى الحضيض ، كما لو كانت اجنحة خيالاتهم السحرية التى تحملهم الى تلك الاجواء القصية البعيدة ، قد لفحت فاحترق ظاهرها وارتدت كليلة متعبة ».

من بين رجال الذين ظهروا فى القرن التالى كان « البرت الكبير »

وفيما كتب تقع على روح انتقادية فيها شيء من مظاهر الرشد. فان « ألبرت » في كتابه الذى تناول الكلام فى الحيوانات قد رفض القول بالاعتقاد السائد فى أن بعض الطيور تتولد من الاشجار وأنها تغتذى بالعصارة النباتية ، كما انه لم يؤمن بنظرية أن بعض الطيور قد تتولد فى البحار من بقايا الاخشاب المنحلة التى تطفو فوق سطحها.

غير انه كان لزام أن تمر عدة أجيال حتى تثمر تلك الشكوك ثمرة طيبة وتحدث أثراً فعالا . فاننا نقع مثلا فى الامثال التي حليت بها كتب « مندفيل » (Mandeville) وقد طبعت عشية القيام بحركة الاصلاح الدينى (Reformation) على صور ، بله المقاطع والعبارات ، تمثل طيوراً ووحوشاً تنشأ متولدة من بزور الأشجار .

على أن هذه النزعة العامة التى رمت الى استخدام العلم الطبيعى فى أغراض دينية تدعو الى التقوى والصلاح ، قد عاشت الى ما بعد عصر الاصلاح البروتستانتى . وكثيراً ما استخدمها « لوثر » ، فكان فى هذا الأمر مثالا احتذاه أتباعه ، ونسج عليه تلاميذه ؛ ففي سنة ١٦١٢ نشر « وولفانج فرانز » (Wolfang Franz) أستاذ اللاهوت فى جامعة لوثر كتابه الذى ألفه فى تاريخ الحيوانات المقدس ، وهو كتاب طبع عدة مرات متوالية ، وقد تضمن هذا الكتاب تقسيما فائضاً للحيوانات ، وصفت فيه التنانين الطبيعية التي لها ثلاثة صفوف من الاسنان فى كل من الفكين ، مضيفاً اليها فى رهبة وتقوى قوله « أما التنين الاعظم فهو الشيطان »

وقبل نهاية هذا القرن ؛ قبض الأب « كيرخر » (Kircher) وهو

أستاذ من عظماء اليسوعيين فى روما ، على زمام الشك مرة أخرى ، فأخضعه للتقاليد ، راجعا بالناس الى النظريات الارثوذكسية ، حتي لقد ذكر بين الحيوانات التى حملها نوح فى السفين «جنيات البحر» (Sirens) وهن فى الميثولوجيا فتيات جميلات سابيات للعقول ، ثم « الغرفين (١) » (Griffin) وهو حيوان خرافى برأس نسر وأجنحته وجسم سبع كبير .

غير أننا قد نلحظ ، حتي بين اللاهوتيين ، فى مختلف الازمان والامكنة ، روحا من الشك تغزو العقل الانسانى من طريق العلم الطبيعي ففي أوائل ذلك القرن عينه — السابع عشر — نشر « ايوجين روغر » (Eugène Roger) كتابه « سياحات فى فلسطين » أما تلقاء الاقوال التى جاءت فى الكتب المقدسة فانه من أخص أهل الاورثوذكسية . ولقد صدر كتابه بخريطة ، تظهر من بين الاشياء التي أشير اليها فى التاريخ الانجيلى المكان الذى قتل فيه شمشون ألفا من الفلسطينيين بفك حمار ، والكهف الذى عاش فيه آدم ومعه حواء بعد أن طردا من الجنة ، والبقعة التى تكلم فيها حمار « بلعام » والمكان الذى صارع فيه يعقوب أحد الملائكة ، والمرتقي الوعر الذى دخلت فيه الشياطين أجسام الخنازير فاندفعت حتى ألقت بنفسها فى البحر ، والموضع الذى قام فيه التمثال الملحى الذى كان يوما امرأة لوط ، والمكان الذى ابتلع فيه الحوت يونس فى البحر ،

(١) يكتب (Griffin) أو (Grifon) وللكلمة أصل فى اليونانية واللاتينية معاً . والغرفين عربنا به الكلمة الأصلية ، وفى ظنى ان هذا هو الذى اتبع فى التعريب إذ قيل نبتون وفينوس وجوبتير فى الأسماء الميثولوجية . والغرفين حيوان خرافى يصور بجسم اسد وراس نسر واجنحته ليمثل القوة والاستعلاء معاً

« وتعيين المكان الذى قبض فيه القديس بطرس على مائة وثلاثة وخمسين سمكة » .

أما فى التاريخ الطبيعي،فانه يصف«البزليقBasiliskالأفعى الخرافية» بدقة وبكثير من الضبط اللاهوتى.فيقول إن الحيوان يبلغ قدما ونصفاً فى الطول ؛ وهو على صورة التمساح ، وانه يقتل الآدميين بنظرةواحدة. أما « البزليق » الذى رآه فكان لحسن حظه ميتاً ، لانه فى عصر البابا « ليو الرابع » (Leo 1V) ، على ما يذكر المؤلف ، ظهر «بزليق» فى روما وقتل كثيراً من الناس بمجرد نظره اليهم . غير أن البابا قتله بصلواته وبرسم علامات الصليب . ويذكر المؤلف أن العناية القدسية قدشاءت بحكمتها ورحمتها أن تحمى الانسان بأن جعلت هذا الحيوان لا يبرح وجره ولا ينشط منه قبل أن يرسل صوتاً عالياً مرتين أو ثلاث مرات ؛ وأن الحكمة الآلهية تظهر أيضا فى أن هذا الحيوان العظيم يضطر الى أن ينظر فى عين فريسته وعلى مسافة خاصة ؛ قبل أن تنفذ نظرته من خلال مخ الفريسة الى القلب ، حيث يكون القضاء المحتوم . ومن ثم يتدرج فى ذكر الحكمة الآلهية الى القول، بأنها رحمة وحنانا ، قد خصت صياح الديك بالقدرة على قتل البزليق .

غير أننا مع هذا نجد فى ثنايا إيمان هذا الرجل الطيب ، والمبشر المسلم بما جاءت به الكتب المقدسة ، آثاراً تنم على روح « باكون » منبثة فى تضاعيف عقله ، وعلى روح التجاريب فى العلم تتغلغل فى طيات نفسه . فانه بعد أن استسقي عدة روايات عن السمندل (Salamander) فتش حتى عثر على فرد منه ، ثم وضعه حياً على فحم يحترق ، وحكم بأن

الاساطير التى تذكر أن فى مستطاع السمندل أن يعيش فى النار غير صحيحة. وكذلك أجرى تجاريب عديدة فى « الحرباء » (Chamelεon) وحكم بأن الاقاصيص التى كانت تروى عن هذا الحيوان إنما كانت نتقبل بكثير من حسن الظن ؛ غير انه كان لا يحاول الحكم فى النصوص التى تتضمنها الكتب المقدسة ، ولو انه كان يلجأ الى عقله يستدر منه الوحي العلمى على القواعد الحديثة فيما عدا ذلك.

فى النصف الثاني من القرن السابع عشر بدأ الأستاذ « هوتنغر » (Hottinger) فى كتابه « بحث تاريخ الخليقة من الوجهة اللاهوتية » طريقة جديدة بأن رفض الاعتقاد بوجود العنقاء (Phoenix) غير أن شكا كان قد ساوره فى تلك الحدود التى تأذن بها الكتب المقدسة ؛ فقد بنى شكه أولا على « أن الله قد خلق الحيوانات أزواجا ، بينما يُزعم بأن العنقاء فرد واحد لا زوج له » وثانيا « لان نوحا عندما دخل السفين أخذ من كل نوع من الحيوانات سبعا ؛ بينما لا نستدل على وجود هذا العدد من نوع العنقاء » وثالثا « لانه لا يوجد انسان يجرأ على أن يدعى بأنه رأى هذا الطائر » ورابعا « لان الذين يؤكدون وجود العنقاء يناقضون بعضهم بعضا »

فلا عجب إذن ؛ بعد أن بدأ الشك يغزو العقل فى حقيقة السمندل والعنقاء ؛ اذا رأينا الشك يتغلغل فى النفوس تلقاء البزليق ، قبل أن يودع القرن السابع عشر الوجود. فان الاستاذ الكبير « كرخماير » (Kirchmaier) من جامعة « فوتمبرغ » قد تناول العنقاء والبزليق بالكلام، ولكن على اعتقاد أنهما من الخرافات التى لم يقم عليها دليل. أما العنقاء

فأنكر وجودها ، لا لأن نوحا لم يحمل معه فى السفين طائراً بهذا الاسم فقط ، ولكن ، على حد قوله لان « الطيور إنما تخرج من البيض لا من الرماد » أما « ذو القرن » (Unicorn) فلم ينكر وجوده ، ولكنه مع هذا لم يعتقد بأنه شيء سوى الكركدن (Rhinoceros) ولقد عمد الى « أيوب » والى « ماركوبولو » ليستدل بأقوالهما على وجود هذا الحيوان ويثبت أنه كائن حقيقي ثم يقول « من ذا الذى لا يخاف إنكار «الأونيقور» مادامت الكتب المقدسة تذكره بكثير من الثناء المستطاب» أما غير ذلك من الحيوانات الكبرى التى تذكرها الكتب المقدسة ، فانه كان ازاءها من أخص اتباع الطريقة العقلية ، فذكر أن «البيهموث(١)»

(١) البيهموث (Behemoth) اصل الكلمة عبرانى (ومنه فى العربية بهيمة) وكان يعنى بها علي الاخص الحيوانات الداجنة ، ولكنها تطلق على الحيوانات المقدسة . ولهذا ترى ان القرآن قد ميز (بهيمة الانعام) عن (بهيمة السباع) وفى التوراة حيوان ذكر فى سفر ايوب (الاصحاح الاربعون) ويقول بعض الباحثين انه قصد بالكلام فرس البحر (Hippopotamus) وكان يوجد حول مجرى النيل في ايام ايوب فيما يلى الشلال الاول . ويقول آخرون بأن الحيوان الذى ذكر فى سفر ايوب قصد به الفيل . بينما يظن بعض الباحثين انه الكركدن (Rhinocerors) راجع القاموس الانسيكلوبيذى ص ٤٨١ مجلد اول . واليك ما جاء فى سفر ايوب :—

« هوذا بهموث الذى صنعته معك (والكلام هنا لايوب) يأكل العشب مثل البقر . ها هي قوته في متنيه وشدته فى عضل بطنه . يخفض ذنبه كارزة . عروق فخذيه مضفوره . عظامه انابيب نحاس . جرمها حديد ممطول

(Behemoth) كان فيلا وأن « اللوياثان (١) Leviathan كان حوتا

هو اول اعمــال الله . الذى صنعه اعطاه سيفه . لان الجبال تخرج له مرعي وجميع وحوش البر تلعب هنــاك . تحت السدرات يضطجع في ستر القصب والغمقة . تظلله السدرات بظلها . يحيط به صفصاف السواقى . هوذا النهــر يفيض فلا يفر هو . يطمئن ولو اندفق الاردن فى فمه . هل يؤخذ من امامه. هل يثقب انفه بخزامة » . ص ٦٤٣ طبع الامريكان

(١) اصل الـكلمة عبرانى من « لفياح » ويقصـد بها « كايل او تاج . لذلك عبر بهــا للحيوانات التى تعقص اجسامها فتكون اشبه با كليل . وفى الميثولوجيا اى حيوان بحرى كبير . وقال بعض الباحثــين ان اللوياثان الذى ذكر فى سفر ايوب قصد به تمساح النيــل . (القاموس الانسيكلوبيذى ص ٥٧٥ مجلد ٤)

جاء فى سفر ايوب الاصحاح الحادى والاربعون ما يلي والخطاب لايوب:—

« اتصطاد لوياثان بشص اوتضغط لسانه بحبل؟ اتضع أسلة فى خطمه ام تثقب فكه بخزامة ؟ ايكثر التضرعات اليك ام يتكلم معك بلين ؟ هل يقطع معــك عهداً فتتخذه عبداً مؤبداً ؟ اتلعب معه كالعصفور او تربطه لاجل فتياتك ؟ هل تحفر جماعة الصيادين لاجله حفرة او يقسمونه بين الـكنعانيين ؟ اتمــلأ جلده حراباً ورأســه بالال السمك . ضع يدك عليه . لاتعد تذكر القتــال . هوذا الرجاء به كاذب . الا يكب ايضاً برؤيتــه . ليس من شجاع يوقظه فمن يقف إذاً بوجهي . من تقدمني فأوفيه . ما تحت كل السموات هو لى »

« لا اسكت عن اعضائه وخبر قوته وبهجة عدته . من يكشف وجه لبسه ومن يدنو من مثنى لجمته . من يفتح مراعى فمه . دائرة اسنانه مرعبة . فخره مجان مانعــة محكمة مضغوطة بخاتم . الواحد يمس الآخر فالريح لا تدخل منها.

غير أن بزور الشك قد انتجت وآتت أكلها . فاننا لا نلبث على

كل منها ملتصق بصاحبه مسلكدة لا تنفصل . عطاسه يبعث نوراً وعيناه كهدب الصبح . من فيه تخرج مصابيح. شرار نار يتطاير منه . من منخريه يخرج دخان كانه من قدر منفوخ او من مرجل . نفسه يشعل جمراً ، ولهيب يخرج من فيه . فى عنقه تبيت القوة وامامه يدوس الهول . مطاوي لحمه متلاصقة مسبوكة عليه لا تتحرك . قلبه صلب كالحجر وقاسى كالرحى . عند نهوضه تفزع الاقوياء . من المخاوف يتيهون .سيف الذى يلحقه لا يقوم ولا رمح ولا مزراق ولا درع . يحسب الحديد كالتبن والنحاس كالعود النخر . لا يستفزه نبل القوس . حجارة المقلاع ترجع عنه كالقش . يحسب المقمعة كقش ويضحك من اهتزاز الرمح . تحته قطع خزف حادة . يمدد نورجاً على الطين . يجعل العمق يغلى كالقدر ويجعل البحر كقدر عطارة. يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج اشيب . ليس له فى الارض نظير . صنع لعدم الخوف. يشرف على كل متعال . هو ملك على كل بنى الكبرياء » .

ص ٦٤٤ طبع الامريكان

وجاء في المزمور الرابع والسبعين ضمن (قصيدة لآساف) ما يأتى :—

«حتى متى يا الله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك الى الغاية . لماذا ترد يدك ويمينك . أخرجها من وسط حضنك . افن . والله ملكى منذ القدم فاعل الخلاص فى وسط الارض . انت شققت البحار بقوتك . كسرت رؤوس التنانين على المياه . انت رضضت رؤوس لوياثان . (اللام والواو مكسورتان) جعلته طعاماً للشعب . لاهل البرية . انت فجرت عيناً وسيلا . انت يبست انهاراً دائمة الجريان . لك النهار ولك ايضاً الليل . انت هيأت النور والشمس . انت نصبت كل تخوم الارض الصيف والشتاء انت خلقتهما » .

ص ٦٨٧ طبع الامريكان

هذا غير قليل حتى تقع على « دانهوور » Dannhauer وقد اقتحم السبيل فخطا خطوة أخرى الى الامام معلناً شكه فى وجود « الاونيقور » موقنا بانه الكركدن بعينه، ولا شيء غيره. وحتى ذلك الوقت، وبعد أن بدأت بزور الشك تثمر هده الثمرات، كان تيار الفكر لا يزال يتحرك بقوة اللاهوت. ففى سنة ١٧١٢ «نشر صموئيل بوخرت» Samuel Bochart كتابه فى حيوانات الكتاب المقدس. أما روح الكتاب فلا نستطيع أن تنقل صورة منها الا بذكر رؤوس بعض الفصول :

الفصل السادس — اسم الحصان فى العبرية.

الفصل السابع — لون الأحصنة الست التى ذكرت فى سفر زكريا

الفصل الثامن — الخيل التى ذكرت فى سفر أيوب.

الفصل التاسع — خيول سليمان والمتون التى يذكر مؤلفوها فضائل الخيل.

الفصل العاشر — خيول الشمس المقدسة.

ومن العناوين التى تقع عليها فى الفصول الأخرى ما يأتى. فى أتان بلعام [١]، فى الألف من الفلسطينيين الذين قتلهم شمشون بفك حمار،

(١) جاء في سفر العدد اصحاح ٢٢ ص ١٩٣ من طبع الامريكان :

« فحمي غضب الله لأنه منطلق ووقف ملاك الرب له فى الطريق ليقاومه وهو راكب على اتانه وغلاماه معه. فأبصرت الاتان ملاك الرب واقفاً في الطريق وسيفه مسلول فى يده فمالت الاتان عن الطريق ومشت فى الحقل. فضرب بلعام الاتان ليردها الى الطريق. ثم وقف ملاك الرب فى حندق للكروم له حائط من هنا وحائط من هناك. فلما أبصرت الاتان ملاك الرب

بقى العجل الذهبي الذى صنعه هرون(١) والعجلين الذهبيين اللذين صنعهما يربعام Jeroboam(٢) فى مأماة الشياه وألبانها وأصوافها وأعضائها الداخلية

زحمت الحائط وضغطت رجل بلعام بالحائط فضربها أيضاً . ثم اجتاز ملاك الرب أيضاً ووقف فى مكان ضيق حيث ليس سبيل للنكوب يميناً أو شمالا . فلما أبصرت الاتان ملاك الرب ربضت تحت بلعام . فحمي غضب بلعام وضرب الأتان بالقضيب ففتح الرب فم الاتان فقالت لبلعام : ماذا صنعت بك حتى ضربتنى الآن ثلاث دفعات . فقال بلعام للاتان لانك ازدريت بى . لو كان فى يدى سيف لكنت الآن قد قتلتك . فقالت الاتان لبلعام ألست أنا أتانك التى ركبت عليها منذ وجودك الى هذا اليوم ؟ هل تعودت أن أفعل بك هكذا ؟ فقال لا » الخ الخ .

(١) جاء فى سفر الخروج اصحاح ٣٢ ص ١٠٨ من طبعة الامريكان :

« ولما رأي الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون . وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا . لان هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ! فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التى في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها . فنزع الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها الى هرون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا هذه آلهتك ياسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هرون بنى مذبحاً أمامه . ونادى هرون وقال غداً عيد للرب . فبكروا في الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للاكل والشرب ثم قاموا للعب » .

(٢) وجاء في سفر الملوك الاول اصحاح ١٢ ص ٤٣٢ من طبعة الامريكان

« وبنى يربعام شكيم فى جبل إفرايم وسكن بها . ثم خرج من هناك وبنى فنوئيل . وقال يربعام فى قلبه الآن ترجع المملكة الى بيت داود .

والخارجية كما ذكرت في الكتب المقدسة ، في الأشياء ذوات الخطر التي ذكرت في الكتب المقدسة عن الأسد ، في حمامة نوح والحمامة التي ظهرت عند تعميد المسيح. ولقد امتزج في خلال الكتاب كثير من الحقائق التي أتى عليها الطبيعيون خلال أبحاثهم المستفيضة في الحيوانات . غير أنها امتزجت بالأقوال اللاهوتية امتزاجا اضاع قيمتها ، وأصبح الكتاب في مجموعه عبارة عن جملة من الفصول تفيض بالروح اللاهوتية الرسيسة .

بعد أن ظلت الأبحاث الطبيعية خاضعة للروح اللاهوتي طوال الفين كاملات من السنين ، تقع في أواسط القرن السادس عشر على بدايات جديدة تنم عن أسلوب حديث لم يكن قد عرف من قبل — هو الاسلوب العلمي في بحث معميات الطبيعة — وهو أسلوب ينطوي في جوهره على البحث وراء الحقائق لذاتها ، ويتنكب جهد المستطاع الجرى وراء المزينات العقلية والنفسية . ففي ذلك الحين بدأ « ادوارد ووطون » Edward Wotton في انجلترا « وكونراد غسنر » Conrad Gesner في القارة الأوروبية ؛ يفتحان السبيل بملاحظات طبيعية ، كان فيهما من الاستفاضة والاطناب ، بقدر ما بث فيها من العناية والدقة ، وأثر الفكرة العلمية في التبويت والنسق .

ان صعد هـذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم يرجع قلب هذا الشعب الى سيدهم الى رحبعام ملك يهوذا ويقتلوني ويرجعوا الى رحبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا الى أورشليم . هوذا آلهتك يااسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحداً في بيت أيل وجعل الآخر في دان » الخ .

ولقد كان لذيوع هذا الاسلوب العقلى فى بحث الطبيعة واستقصاء اسرارها نتائج أدت الى تكوين جمعيات قامت على فكرة البحث منتحية هذا الاسلوب . ففى سنة ١٥٦٠ تألفت « أكاذيمية البحث الطبيعي » فى نابولى . غير أن اللاهوتيين ، وقد تولاهم الانزعاج والفزع ، أمروا بحلها . ومرت من بعد ذلك مئة سنة على وجه التقريب حتى عادت فكرة التعاون على البحث العلمى تختمر فى الرؤوس مرة أخرى ، فالتأمت فى لندن سنة ١٦٤٥ تلك الاجتماعات العلمية التى تمخضت من بعد عن الجمعية الملكية Royal Society ثم تلت هذه اكاذيمية العلوم فى فرنسا ، ومن بعدها « الاكاذيميا دل سيمنتو » Academia del Cimento فى ايطاليا ثم انتشرت جمعيات البحث العلمى ومنتدياته من بعد ذلك فى كل بقاع الأرض . وبذلك بدأت نهضة جديدة لها أثرها الخالد فى تاريخ العلوم والمدنية .

وسرعان ما خيل للاهوتيين أن فى هذه النهضة خطرا وأن وراءها تكمن كارثة . ففى ايطاليا رشى اللاهوتيين الامير ليوبولد ده مديتشى Leopold de Medici بأن منحوه « قبعة » الكردينالية ، وكان يعتبر حاميا لذمار أكاذيمية فلورنسا ، ليرفع عنها حمايته . ومنذ زمان البابا اربان الثامن حتى عصر بيوس التاسع Pio nono سادت الكنيسة مثل هذه الروح . أما فى فرنسا فقد تدخل رجال الكنيسة فى ابحاث العلماء مرات عديدة ، لم تكن اهانة العلامة « بافون » Buffon لتقريره بعض الحقائق العلمية ، إلا مثلا لها وعتولنا عليها . وكذلك كانت الحال فى انجلترا . فان البروتستانتية لم تكن هنالك بأكثر عطفاً على الجمعية الملكية لدى أول

تكوينها من غيرها من شعب الكنيسة ؛ حتى لقد أنكرها دكتور « سويث » Dr. South ورماها بأنها خارجة على الدين. ومن حسن الحظ أن قام فى تلك الازمان حائل واحد منع الاصطدام العلنى بين اللاهوت والعلم. وانحصر هذا الحائل فى نزعة علمية كانت بدورها خطأ كبيراً. فان الباحثين فى حين أنهم نبذوا الاسلوب القديم الذى جرى عليه اسلافهم فى العصور الوسطى ، وكان من أعز ما عند الكنيسة عليها ، قد مضوا عاكفين على فكرة الخلق المباشر وعلى فكرة القصد والغاية التى تكمن وراء كل صور المخلوقات ؛ وأن هذا القصد لم يرم الى شيء اللهم الا الى فائدة الانسان وتثقيفه وادخال المسرة والجذل على نفسه بكل الوسائل.

على هذا وجدت الميول اللاهوتية ، على ما فيها من نزعة طبيعية الى الجلاد والصراع ، سبيا قويا لتسامح العلم. فى حين أن العلم ؛ ولو أنه كان قد تحرر من كثير من القيود الثقيلة التى قيدته من قبل ، قد أصبح ساعد اللاهوت الأيمن اذ كان يزود اللاهوتيين بما يفسرون به مذهب القصد الخلق ، ولكن مع ابداء الاحترام والتبجيل ؛ ولو فى الظاهر ، لتلك الاساطير والخرافات الكلدانية وغيرها مما تتضمن الكتب العبرانية المقدسة.

حوالى منتصف القرن السابع عشر انتصر العلم على اللاهوت انتصارا تاما فى معركة فاصلة. ففي ذلك العهد نشر « فرانشسكو ريدى » — Francesco Redi — نتائج أبحاثه التى عقدها فى مذهب « التولد الذاتى » [1] — Spontaneous generation — فقد مضت عصور وكرت

(١) المذهب القائل بان الحى قد يتولد من غير الحي.

دهور والناس يعتقدون بصحة مذهب محصله أن الماء والاقذار والجيف قد وهبها الخالق القدرة على توليد الديدان والحشرات وعديد وافر جد الوفرة من الحيوانات الدنيا. ولقد رحب القديس أوغسطين وكثير من آباء الكنيسة بهذا المذهب ما دام أنه يكفى الله الواحد القهار مؤونة خلق هذه الانواع الحقيرة الوافرة العدد، كما أنه ينقذ آدم من متاعب تسميتها، وينجى نوحاً من أن يعيش فى الفلك معها. غير أن « ريدى » قد قضى بابحاثه على هذه الترهات. فانه مضى فى ابحاث مستفيضة لا محل لذكرها هنا، أظهر من طريقها أن كلا من هذه الحيوانات إنما يتولد من بيضة، وان هذا يدل على أن افرادها لابد من أن تكون نتاجا لحيوان خلقه الله، وسماه آدم، وحمله نوح، منذ بدء الخليقة الى الآن.

وظهرت فى انجلترا مؤلفات شبيهة بهذه. ولكنها كانت اكثر خضوعا للروح اللاهوتية. ففى القرن ذاته — السابع عشر — نشر الباحث الطبيعى « جون راى » — John Ray — كتابا حاز شهرة وانتشاراً واسعا. وكان « راى » احد اعضاء الجمعية الملكية وألف عدداً من الكتب فى النباتات والاسماك والطيور. غير أن أعم هذه الكتب انتشاراً واكثرها ذيوعا بين الجمهور، كان كتابه الذى اسماه «الحكمة الآلهية كما تظهر فى اعمال الخلق» ولقد طبع هذا الكتاب عشرين طبعة متوالية ما بين عامى ١٦٩١ و ١٨٢٧.

اما « راى » — Ray — فقد استدل على حكمة الله بضروب المكافآت التى رآها فى الحيوانات، لا من جهة فائدتها للانسان لاغير، بل من جهة العلاقات

الواقعة بين حياة بعضها وبعض ، وكذلك بينها وبين بيئاتها التى تعيش مكتنفة بها .

فى السنين الاولى من القرن الثامن عشر نشر الدكتور « نحمياه غرو » Dr. Nehemiah Grew احد أعضاء الجمعية الملكية كتاباً اسماه « الكونيات المقدسة » Cosmologia Sacra حاول فيه أن ينقض كل الآراء التى ذاعت مناقضة لما جاء فى الكتب المقدسة ، وعمد فى تدليله الى البرهنة على القصد والغاية من وجود المخلوقات . ولما أراد أن يدلل فى سياق مؤلفه على «الغايات التى رمت اليها العناية الالهية» قال :

« ان الكراكى وهى طيور لحومها غير جيدة ، لا تضع اناثها الا بيضتان فى السنة . فى حين أن الطواوس والحجلان تنقف خمسة عشرة أو عشرين بيضة ، لانها طيور جيدة اللحم » .

ولقد أشار بعد ذلك الى أن الطيور التى تضع قليلا من البيض ، اذا كانت ذات فائدة ، كدجاج الأرض والحمام ، فانها تحضن اسرع من غيرها . ومن ثم حاول أن يناقض فكرة القائلين بأن الاشياء المضرة فى الطبيعة قد خلقت تبعا لخطيئة الانسان ، بان ادعى بانها ذات فائدة . فذكر أن « لدغ القريص إنما يحفزنا الى البحث عن دواء يشفى الاطفال والماشية» وان «الموسج والقتاد اذا أضرا بالانسان من ناحية، فانهما يفيداه فى أن يتخذ منهما سياجا يحتمى به» . وان « هذه الاشواك اذا اضرت بعض الشيء بصاحبها فانها تمنع عنه غوائل اللصوص » وان « بنات عرس والحدادى وغيرها من الحيوانات المضرة تحفزنا الى التنبه والحذر » وأن « القمل يحفزنا الى نظافة أجسامنا ، والعناكب الى نظافة بيوتنا ، والبراغيث

الى نظافة ثيابنا » .

وهذه النظرة التفاؤلية ، بعد أن انتصرت على النظرية اللاهوتية القائلة بأن الاشياء المضرة قد خلقت تبعا لخطيئة الانسان ، والتى أذاعها القديس أوغسطين وظلت فى اوجها الى عهد « ويزلى » Wesley قد مضت متطورة فتكونت فى صورة أكثر رقيا وأنبل مرمى خلال القرن الثامن عشر ، إذ تعهدها بالتهذيب كثير من المفكرين وعلى الاخص « بالى » Paley كبير الاساقفة ، فى كتابه « اللاهوت الطبيعى » Natural Theology الذى ظل مؤثرا فى صور الفكر الى عهد قريب . ولقد ظهرت ميول مشابهة لهذه الميول الحرة فى ممالك اخرى غير انجلترا ، ولو أن كثيراً من الفلاسفة قد أبانوا عن كثير مما فيه من أوجه الضعف ؛ وعلى الرغم من أن « جوته » قدهزأبها فى بعض أشعاره المعروفة ،بأن شكر الله لانه وضع تصميم شجر الفلين ليتخذ منه فى المستقبل سدادات نسد بها زجاجاتنا ! !

قبل أن ينتصف القرن التاسع عشر بقليل ، انتهت هذه الحركة بنشر تلك المقالات المشهورة التى عرفت باسم « مقالات بردجووتر » Bridgewater Treatises وقصة هذه المقالات أن رئيس الجمعية الملكية ، اجابة لرغبة إرل بردجووتر الثامن ، قد انتخب ثمانية اشخاص ، خصص لكل منهم ألفا من الجنيهات الانجليزية تلقاء أن يكتب كل منهم مقالا مستفيضا فى « قوة الله وحكمته وخيريته كما تظهر آثارها فى المخلوقات » وكان من امتع ما طبع من هذه المقالات خاصة بعالم الحياة مقالة العلامة « توماس شلمرز » Thomas Chalmers وعنوانها « تكافؤ الطبيعة الخارجية مع

حالات الانسان العقلية والادبية ومقالات «شيرشارلز بل» Charles Bell وعنوانها « القدرة مظهرة فى القصد » ، ومقاله « روجت » Roget وعنوانها « الفسيولوجيا النباتية والحيوانية من طريق علاقتها باللاهوت الطبيعي » ومقالة الاستاذ « كربى » Kriby وعنوانها « عادات الحيوانات وغرائزها من طريق علاقتها باللاهوت الطبيعى » .

وفضلا عن هذا فقد ظهرت مقالات أخرى كتبها هيوبل Whewell وبوكلاند Buckland وكد Kidd وبروت Prout . ولقد نجح هذا العمل نجاحاً كبيراً ، دل على رقى كبير بزّ كل ما تقدم من نوعه مادة واسلوبا وروحا . أما اذا نظرنا الى هذه المقالات اليوم فانا لا يسعنا أن نقول فيها انها كانت أكثر من أشياء تمهيدية مرهونة باوقاتها ، ولو انها أدت بدورها الى استكشاف حقائق ما. ولا يجدر بنا أن ننسى قولة العلامة « داروين » المعروفة ، إذ يقول بان النظريات اذا كانت خطأ ادى البحث فيها ومناقشتها الى الحق واليقين . على الضد من المشاهدات اذا كانت فاسدة فانها دائما تضل الباحثين ضلالا كبيرا

ان جهدا كهذا ، كله نبالة فى القصد وسمو فى الروح ، لا يستحق أن يستهدف الى ما استهدف اليه من السخرية . ومن العجيب أن يكون من اقذع ما سدد اليه من سهام النقد ما وجهه اليه حديثا احد كبار المدافعين عن الارثوذكسية المتلثين حمية المشبوبين بحماسة اليقين. فان علما من رافعي ألوية الايمان ، ونعنى به المحترم الاستاذ « زوكلر » Rev. Prof. Zockler قد قال عن هذه الحركة التى رمت الى اظهار القصد والغاية فى الخلق كما قال فى القائمين بها — «ان الأرض قد ظهرت فى

اقوالهم كأنها حانوت تباع فيه الملابس الخلقة وفندق لبيع الحساء . أما الله فقد صور على أنه احد الاساتذة العقليين Rationalistic مجسم تجسيما .
ولا جرم أن هذه الاقوال يبعد أن تكون انصافا لما تصوره بطلر وبالى وشلمرز ، مع قطع النظر عن مقدار ما فاتهم به العالم الحديث من التقدم فى الفكرتين العلمية والفلسفية .

ولكن على الرغم مما كان فى عمل هؤلاء الافذاذ من نبل وجلال ، فان الحقائق التى اسسوا عليها نظرياتهم قد اخذت مع الزمن تفقد كثيراً من قوتها ، وتتزعزع أركانها .

فمنذ القرن السابع عشر اخذ كبار اللاهوتيين يشعرون بان متاعب كبرى قد أخذت تعترض سبيلهم هى انكى وأبعد أثرا من كل ما واجهوه من قبل . فقد بان مع مر الزمن وكر الدهر ، أن الأنواع الحية المختلفة التى عمرت الارض، هى اكثر عددا مما خيل الى الناس . ومن ثم زادت صعوبة القول بان هذه الانواع الكثيرة المختلفة البنى والتكوين قد خلقت خلقا مستقلا بقدرة الله المباشرة . وكذلك القول بان الانواع قد حشرت امام آدم ليسميها . وكذلك الزعم بانها حشرت فى سفينة نوح ازواجاً أو سبعات ، أى سبعة أفراد من كل نوع . غير أن الصعاب التى قامت فى هذه الطريق ؛ لم تكن شيئا مذكوراً اذا قورنت بما قام فى طريق البحث فى توزيع الحيوانات والنباتات الجغرافى . Geographical Distribution .

إذا رجعت الى الايام الاولى التى شيدت فيها الكنيسة النصرانية، فانك تجد أن البحث فى هذا الموضوع قد أثار فكرات ذات أثر ؛ وعلى

الاخص فى عقل القديس أوغسطين. فقد شرح فى كتابه المسمى (مدينة الله) هذه الصعوبه فى القالب الآتى - « هنالك صعوبة تواجهنا تلقاء البحث فى كل أنواع البهائم التى لم يتمكن الانسان من تأليفها ، ولم تنشأ من الأرض كما تنشأ الضفادع ؛ كالذئاب من أنواع السباع ؛ وعلى الاخص اذا تساءلنا كيف استطاعت أن تشق طريقها الى الجزر النائية بعد ذلك الطوفان العظيم الذى اعدم كل الأحياء التى لم تحفظ منها « عينات » فى الفلك المشحون ؟ لا جرم أن بعض الحيوانات يمكن أن تصل الجزر سابحة فى الماء ؛ فى حالة ما اذا كانت تلك الجزر قريبة من اليابسة . غير أن بعض الجزر بعيدة عن الشاطىء بعداً شاسعا ؛ حتى انه من المتعذر على أى مخلوق أنه يصل اليها سابحا . على أنه لا يبعد عن التصديق أن تكون بعض هذه الحيوانات قد اقتنصها الانسان وحملها معه الى تلك الجزر التى أراد أن يستعمرها ، ليلهو بها فى الصيد ويتخذها وسيلة للتسلية . كذلك لا يمكن أن تنكر أنه من الجائز أن يكون نقلها قد تم بفعل الملائكة، وقد أمرهم الله أو حملهم على أن يقوموا بهذه المأمورية »

غير أن هذه المشكلة الطبيعية قد وصلت حدا لم تقم منه صورة ولو ضعيفة فى عقل القديس أوغسطين . وكان من أكبر الاشياء التى امدتها بالقوة وعززتها بالغلبة والسلطان ، تلك السياحات الكبيرة التى قام بها كولومبوس وفاسكودى غاما وماجلان وامريجو فسبوتشى وغيرهم من الافذاذ الذين ظهروا فى عصر الاستكشاف البحرى . وزادت اهميتها عندما استكشفت جزائر البحار الكبرى التى تغشاها مياه المحيطات الجنوبية . فان كل مستكشف قد نقل معه بعد اتمام سياحته اخبارا عن أنواع

جديدة من الحيوانات ، وسلالات جديدة من سلالات النوع البشرى تعيش فى بقاع من الأرض ، طالما أعلن اللاهوتيون ، اعتماداً على ما قال القديس بولص من أن صوت الكتب المقدسة قد انتشر فى كل بقاع الأرض ، انها غير موجودة اصلا . ولقد زاد ضغط هذه الحقائق على التصور الكنسى ، حتى لقد نزع اللاهوتيون الى القول بان الملائكة طوعاً لارادة الله ؛ وقد هموا بان يوزعوا الحيوانات على وجه البسيطة ، قذفوا بالمغاثيروم ـ Megatherium ـ فى جنوب أمريكا والارخيوبتريك ـ Archeopetryx ـ فى أوروبا ، وخلد الماء الاورنيثورنكس Ornithorhynchus فى أوستراليا ، والابسوم ـ Opossum ـ فى شمال أمريكا ! ! !

كان أول من كشف القناع عن هذه المشكلات المضمة « يوسف اكوستا » ـ Joseph Acosta ـ احد مبشري اليسوعيين . فقد ظهر فى كتابه المعروف باسم « تاريخ جزائر الهند طبيعيا وأدبيا » الذى نشر فى سنة ١٥٩٠ ، بمظهر الامانة والتفكير المستقيم . وعلى الرغم من أنه ظل مقيدا بكثير من التفسيرات القديمة التى فسرت بها الكتب المقدسة ، فانه تخلص من الكثير منها . غير أن توزيع الحيوانات الجغرافى كان من الاسباب التى اتعبته واعنتته تفكيراً وبحثاً . فانه بعد أن أظهر أن بيانات القديس اوغسطين عقيمة ولا قيمة لها تساءل : « من ذا الذى يتصور أن الانسان خلال هجرة طويلة الى بلاد « بيرو » ـ Peru ـ قد يفكر فى أن يتحمل المشقة ويحمل معه الثعالب الى تلك البلاد النائية ، وعلى الاخص ذلك النوع المعروف هنالك باسم « آشياس » ـ Acias ـ وهو أقذر ما رأيت من نوعه ؟ ومن ذا الذى يجرأ على القول بانه حمل معه النمور والاسود ؟

ولا جرم أن هذه الأقوال لجديرة بان يضحك منها ويهزأ بها . ولا شبهة مطلقا فى أن الناس وهم معرضون لخطر البحار فى سفر طويل كهذا، لا يعنون بشيء الا بانقاذ أرواحهم اولا ، من غير أن يحملوا معهم الذئاب والتعالب ؛ وان يغذوهم ويعتنوا بهم، وهم بعد بين ظفر البحر ونابه»!!!

ولقد كان لنشر هذه الحقائق آثار جليلة حفزت « إبراهام مليوس » Abraham Milius أن ينشر فى جينيف سنة ١٦٦٧ كتابه المعروف « أصل الحيوانات وهجرة الامم » . وهذا الكتاب يظهر بوضوح كاف ، كما أظهر من قبل كتاب « اكوستا » ، عظم تلك الصدمة الشديدة التى أصابت نظام الاشياء على ما عرفت فى العالم اللاهوتى بعد استكشاف امريكا . ولقد نشر هذا الكتاب بمصادقة خاصة صدرت من اسقف « سالزبرج » اشارت الى إمكان العثور على حل ينتفى معه كل ما يترتب على هذا الاشكال الكبير ، اذا رجعنا الى نص المتن الاصلى فى سفر التكوين اذ فيه : —

« وقال الله لتخرج الأرض ذوات انفس حية كجنسها » . (١) ولقد مضى « ميليوس » فى كتابه محاولا أن يظهر أن قدماء الفلاسفة يتفقون مع موسى وان — « الارض والمياه ، وعلى الاخص حرارة الشمس والأرض الأصلية مع ما فيها من صفات اللزوجة والتعفن ، تلك الصفات التى يلوح لنا أنها من الصفات الخصيصة بطبيعة الأرض ، قد يمكن أن تكون العلة التى نشأت عنها الاسماك والحيوانات الأرضية والطيور » . غير انه من جهة أخرى يقسو كل القسوة على أولئك الذين

١ راجع سفر التكوين الاصحاح الأول ٢٥ ص ٢ من الطبعة الامريكية

يقولون بان الانسان يشارك الحيوانات فى نشأتها وانه يعود واياها الى اصل واحد أما الموضوع الذى انفق فيه مليوس كل جهده فكان « توزع الحيوانات الجغرافى » · ولقد أثرت فيه حقيقة وجود تلك الانواع الكثيرة التى تأهل بها امريكا وكثير من الجزائر النائية المنبوذة فى جوف المحيطات العظمي ، تلك الانواع التى لم تعرف فى القارات الأخرى ؛ كما كان وجود تلك الانواع فى تلك البقاع النائية البعيدة من كرة الأرض وعدم وجودها بالقرب من جبل « أرارات » أكبر المشاكل العلمية التى شغلته وحوطته بمتاعبها . ولقد كان ذلك سببا فى أن يعترف هذا المؤلف بأن تعليل توزع الحيوانات الجغرافى اشكل المشكلات وأشق المعضلات . ولقد ساءل نفسه: اذا كان من الممكن للطيور أن تصل الى امريكا طائرة وللاسماك أن تصلها سابحة ـ فكيف تعلل وصول السوائم التى لا تطير ولا تسبح . » وعاد فساءل نفسه فى الطيور فقال .

« الا يوجد من بين ذوات الأجنحة تنوعات لا عدادلها لا تطير الا ببطء عظيم وتثاقل ، وهى على ذلك شديدة الخوف من الماء ، حتى أنها لا تجرأ على أن تسلم بنفسها طائرة فوق نهر قليل الاتساع » ؟ .
ولما رجع الى الاسماك قال : « إنها تنفر فى العادة نفورا شديداً من مغادرة مياهها الاصلية » واظهر بعد ذلك أن كثيراً من أنواع الاسماك التى تعيش فى مياه امريكا ومياه الهند الشرقية لم تعرف من قبل فى القارات الأخرى ، وأن وجودها فى تلك المواطن لا يمكن تعليله باية نظرية من النظريات التى يعلل بها توزع الحيوانات الطبيعي على وجه الأرض»

اما ازاء القائلين بأن حيوانات الارض من الجائز أن تكون قد

توزعت فى أنحاء الكرة بفعل الانسان ، إما للانتفاع وإما للتسلية بها فان يتساءل ، من ذا من الجلس البشرى يرغب فى أن يحمل معه على ظهر مركب سباعا ودببة ونمورا وغير ذلك من الحيوانات المفترسة المغيرة ،ومن ذا الذى يأمن على نفسه معها، ومن لك الذى يود أن يوجد جماعات كثيرة منها فى بقاع جديدة اتجهت ارادة الانسان الى استعمارها وكانت خلوا منها ؟»

اما النتيجة الاخيرة التى وصل اليها فكانت القول بان النباتات والحيوانات إنما تتأصل فى نفس البقاع التى توجدفيها . وهى فكرة اخذ يؤيدها بمقاطيع من تينك الروايتين اللتين وردتا فى سفر التكوين ، واللتين تشيران الى صفة « التأصيل — اى الخلق — التى اختصت بها الأرض والمياه .

غير أن الحالات التى قامت خلال القرن التامن عشر كانت على وجهة النظر اللاهوتية أشد قسوة وأمر ثمراً . ولقد عمد « دوم كالمت » ــ Dom Calmet ــ البنديكتى المعروف فى تعليقاته ــ Commentary ــ ليستقوى على الصعاب التى واجهت اللاهوت النصرانى فى ذلك الزمان، الى الاعتقاد بأن كل الانواع التى تلحق بجنس ما من أجناس الأحياء كانت تكوّن فى الاصل نوعا واحدا . ولقدتشبث بهذا الاعتقاد على اعتبار انه السبيل الاوحد الذى يمكن أن يعلل به الباحثون امكان جمع زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات فى سفينة نوح . غير أن هذا الرأى ،على الرغم مما فيه من خطر واضح على الفكرة الاورثوذوكسية،

وعلى ما يتضمن من مناقضة صريحة للمذهب الذى استمسكت الكنيسة بعراه ، فالظاهر انه كان كثير الذيوع بين المفكرين خارج الكنيسة ، حتى لنجد أن رجالا من طبقة « لينيوس » ــ Linneaeus ــ قد عمدوا الى التفكير فيه خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ولقد كان من الضرورى فى ذلك الحين أن تنشأ نظرية لاهوتية اخرى متطورة عن النظريات الاولى بعد أن نضج الزمان لظهورها . ولقد حدث أن « لينيوس » العظيم ، على الرغم مما اعلن عنه من شدة اقتناعه بثبات الانواع وخلقها مستقلة ، قد قذف النظرية القديمة بقذيفة ذهبت بها بددا وحطمتها تحطيما . ففى كتابه المعروف باسم « النظام الطبيعي » ــ Systema Naturae ــ الذى نشر فى أواسط القرن الثامن عشر ، أحصى أربعة آلاف نوع من أنواع الحيوانات ، فظهرت إذ ذاك الصعوبة التى صادفت آدم فى تسميتها والصعوبة التى قامت من جراء حملها فى سفينة نوح ، ظاهرة لكل المفكرين ظهوراً جعل حل المعضلة اقل سهولة واكثر صعوبة .

وتراكمت الصعاب حتى اصبحت ممضة معننة . فان عدد الأنواع المعينة قد مضى فى الزيادة زيادة كبيرة حتى أن أحد كبار الزولوجيين وثقاتهم المجربين من معاصرينا قد ذهب الى انه — « بجانب كل نوع من الانواع التى احصاها « لينيوس » قد عرف الطبيعيون خمسين نوعاً آخر ، وانه مما لا شك فيه أن عدد الأنواع التى لم تعرف بعد يزيد على عدد الانواع التى عرفت بالفعل »

على أنه كانت قد قامت فى الاذهان صعاب اخرى من جراء ما عمدت اليه الكتب المنزلة ، اذ كان من الضرورى ، على مذاهب اللاهوتيين ، أن يحدث ٣٦٠ فعلا خاصا من أفعال الخلق المعجزة يقوم بها

الخالق ليوجد ٣٦٠ نوعا من الاصداف الأرضية التى تعيش فى جزيرة « ماديرا » وحدها على صغر مساحتها ، وان يحدث ١٤٠٠ فعلا من افعال الخلق المستقل ليوجد الخالق العدد الموجود من صور نوع واحد من الاصداف المعروفة .

كذلك ازدادت الصعاب عند ما عرض للمفكرين البحث فى توزيع الحيوانات الجغرافى واستيطانها على سطح الكرة الأرضية . وكانت كلما ازدادت الاستكشافات الجغرافية ، ازداد ذلك الخطر الذى داهم الفكرة اللاهوتية . ولقد كان العثور على آثار «السلوث » ـ Sloth ـ فى امريكا الجنوبية سببا فى قيام اسئلة ممضة إذ قيل — . كيف يمكن لحيوانات تبلغ من ثقل الجثة مبلغ هذه أن تهاجر من أرارات — حيث رست سفينة نوح — وأن تسافر الى مثل هذه البقاع القصية ؟

وكان للاستكشافات التى وقع عليها الرواد فى اوستراليا وما يجاورها من الجزائر آثاراً اشد مرارة . فقد عثر الباحثون فى تلك البقاع على عالم من الحيوان يختلف جهد الاختلاف عن عالم الحيوان الذى عرف فى بقية بقاع الأرض .

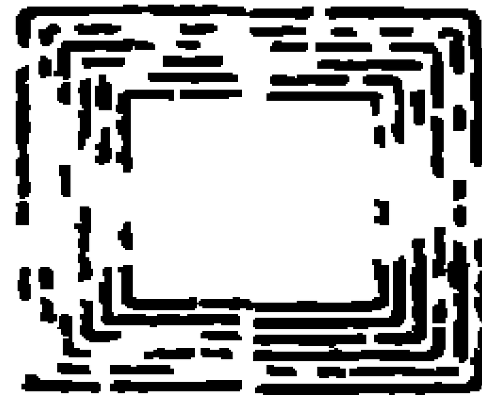
اما الاشكال الذى قام فى وجه اللاهوتيين فكان محاولة تعليل وجود « الكنغر » ـ Kangaro ـ فى سفينة نوح فى حين أنه لا يوجد الآن الا فى اوستراليا وحدها دون بقية البقاع المعروفة . وعلى الرغم من أن قدرة هذا الحيوان كبيرة ، فانه يبقى أمام اللاهوتيين أن يظهروا كيف استطاع هذا الحيوان وبأى قدر من القفزات المتوالية ، أن يجتاز الجبال والوديان وانه يعبر المحيطات التى تفصل هذه القارة البعيدة عن بقية قارات

الأرض ؟ اما اذا قيل بتلك النظرية التي يزعم اصحابها بأن طريقا للاتصال كان يصل فى الازمان الاولى ما يفصل الآن بين تلك القارة واقرب قارة اليها، فانه يبقى أمام القائلين بهذه النظرية ان يظهروا لماذا لم تستطع الاسود والنمور والجمال والزراف أن يجدوا طريقا أو يقتحموا الحواجز اليها ؟

من هنا نرى أن النظرية اللاهوتية قد تحطمت وذهبت بددا وأجزاء فى أواخر القرن الثامن عشر . اما عقلاء اللاهوتيين فقد تريثوا متلبثين . اما الحمقى منهم فقد نزعوا الى الانذار والتهديد ليقتلعوا جذور الانكار والكفران » وانكروا « العلم الذى يسمى علما بطريق الخطأ معلنين فى كثير من النزق « أن الأناجيل صحيحة » ـ فى حين انهم لم يعنوا بقولهم ان الاناجيل صحيحة الا ان الفهم المحدود الذى فهموا به الاناجيل والذى ورثوه عمن سبقهم صحيح استتباعا .

لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى بان لكل المفكرين بجلاء كاف أن النظرية اللاهوتية فى الخلق قد نقضت تماماً ، ولو أنها كانت تردد فى جنبات الكنائس احتفاظا بالشكل دون الموضوع . ولقد نهض رجال عظام من رجالات الكنيسة امثال الكردينال « وزمان » فى الكنيسة الرومانية، والاسقف بوكلاند فى الكنيسة الأنغليكانية، وهيومولر فى الكنيسة الايقوسية، يعملون بجهد اليائس لعلهم يفوزون بانقاذ شيء من ذلك المعتقد ، ولكنها كانت جهود ضاعت سدى وذهبت هباء . وهنا ظهرت صفة الامانة الصلبة القوية التي عشت فى صدور التيوتون والانجلوسكسون ، والتى هى لدى الواقع انبل ميراث أورثته العصور

الوسطي للعالم ، تحقق وجودها فى القلاع القديمة التى احتمت وراء حصونها المذاهب اللاهوتية ، ونعنى بها الجامعات. فلا منطق الاسقف « بطلر » على قوته، ولا معقولات رئيس الاساقفة « بالى » ــ Paley ــ على روعتها، قد اغنت عن الكنيسة شيئاً . فكما استطاع مفكروا الفلكيين من كوبرنيكوس الى نيوتن أن يحطموا النظام الفلكى القديم الذى كانت الارض فيه مركز النظام الكونى والله الواحد القهار جالس فوق الجلد السماوى على أنه السبب المباشر الذى يحرك الاجرام السماوية بيديه ، كذلك استطاعت سلسلة منظومة من عظماء البيولوجيين أن ينقضوا الفكرة القديمة التى تركزت من حول خالق يعمل جاهداً فى أن يصور الحيوانات و يصبها فى قالب خاص لتكون مفيدة للانسان . انهم وضعوا للحياه نظاماً جديداً . وهذ ما سوف نتكلم فيه بعد .



٣ ـ النظريات اللاهوتية والعلمية فى تطور الطبيعة الحية

فكرة التطور عند القدماء — فكرة التطور فى الكنيسة خلال عصورها الاولى ، وفى خلال العصور الوسطى — نشوء هذه الفكرة فى القرن السادس عشر الى القرن الخامس عشر — اعمال ده ماييه — لينيوس و دباوون — تقدم فكرة التطور فى نهاية القرن الثامن عشر — أعمال تريفيرانوس ولا مرك ـ جفروى سانتيلير وكوفييه ـ تقدم نظرية التطور حتى أواسط القرن التاسع عشر ـ أعمال ولاس ودروين ـ معارضة اغاسيز .

* * *

رأينا حتى الآن كيف ثبتت فى عقلية النوع البشرى فكرة خالق الكون المتطور وما يأهل به من الاحياء خلقا موقوتا كاملا ؛ وفكرة وجود خالق على صورة بشرية وبخصائص بشرية ، تكلم فبرزت المادة الى الوجود فعلا بان حرك أوتار صوته وشفتيه . أو أنه صور المادة بيديه وأصابعه ووضعها حيث هى موجودة الآن.

ورأينا أيضاً أن هذه الفكرة قد ورثت منذ أزمان بعيدة ، وأنها كانت احدى المعتقدات الشائعة فى المدنيات الكلدانية البابلية ومدنية مصر القديمة ، وأنها ربما كانت موجودة فى مدنيات أولى يفصلها عن زماننا هذا أبعد عهد يمكن أن يقدره التاريخ المعروف . وعرفنا أن صور هذه المعتقدات قد انتقلت الى كتب اليهود المقدسة ، ومن ثم الى الكنائس النصرانية الاولى ، التى عمل لاهوتيوها على تنمية هذه المعتقدات خلال العصور الوسطى ، واحتفظوا بها خلال العصور الحديثة .

غير أن هذه النظرية بينما كانت تنمو وتتطور بجهد سلسلة من

عظماء الرجال الذين اتصفوا برجاحة العقل ونبل المقصد على طول آلاف كثيرة من السنين ، نشأ بجانبها تصور آخر كان يناوىء هذه النظرية حينا أو يختلط بها حينا آخر . ذلك هو تصور أن الكائنات الحية ، كليا أو جزئياً ، هى نتيجة نظام يبعث على النماء والتغاير ، او بالأحرى فكرة فى تطور الأحياء .

وهذه الفكرة قد تطورت فى صور مختلفة جدا الاختلاف ، وكانت ذات اثر كبير واضح فى كل الصور اللاهوتية والفلسفية التى نشأت خلال المدنيات القديمة على وجه التقريب . فانك تجد انه قد انتشرت بين كل الشعوب القديمة التى امتازت بقوة الفكر والتأمل ، فكرة انه مطاوعة لحكم قوة قدسية ، قد برزت الأرض من العماء الذى كان سداه مياه متلاطمة ، وأن الارض والبحر بدورهما قد ولدا الاحياء التى تغشاها

وتظهر هذه الفكرة بوضوح من الآثار الكلدانية البابلية التى قرئت معمياتها فى العهد الأخير . وقد اشرنا اليها من قبل . وفيها نجد آثار عماء سداه المياه التى بلا نهاية ، وان هذه المياه تحت تأثير قوة قدسية قد انشأت الارض وأحياءها وكانت حيوانات الماء اسبق بالظهور على حيوانات الأرض التى تلت تلك فى الظهور ، وان هذه كانت منقسمة الى ثلاثة أقسام كبرى ، على نفس الطريقة التى قسمت بها حيوانات الارض فى الآثار العبرانية . ونجد فوق هذا ان « الخالق الكلدانى » قد أعلن فى عدة مواضع من قصة الخلق المنسوبة اليه أن خلقه « جميل » على نفس النمط الذى يصف به « الخالق العبرانى » خلقه اذ يصفه بانه « حسن »

وفى كلتا الروايتين ، الكلدانية والعبرانية ، تجد قبة زرقاء صلبة

القوام مقمره التشكل . وفى كلتاهما تجد أن النور خلق أولا ، وانه بعد ذلك علقت الأجرام السماوية لتؤدى الاشارات القدسية وتشير الى الفصول السنوية ، وفيهما تجد أن العدد « سبعه » قد خص بالقداسة على صوره خاصة ، وان تقديس هذا العدد قد أدى الى تكوين اقسام مقدسة فى الوقت وفى غيره من الاعتبارات الانسانية . أضف الى ذلك أنه فضلا عما تجد فى القصة العبرانية من الصور الذهنية التى تتفق والاساطير الكلدانية ، فان قصة الخلق فى كليهما ، أى العبرانية والكلدانية ، قد عقب عليهما باسطوره فى « هبوط الانسان » وفى « الطوفان » ؛ تلك الاشياء التى نجد أن كثيراً من تفاصيلها قد نقلت من الكلدانية الى العبرانية بصورة قد حورت بعض التحوير .

ولا جرم كانت تصبح معجزه حقيقية لو أن هذه المصورات الاولية التى صبت فى ذلك القالب الشعرى القوى حلال تلك المدنيات القديمة والتى نشأت على ضفاف الدجلة والفرات ، لم تتأثر بها العبرانيون على مدى تلك العصور التى خضعوا فيها لنيرانهم الكلدانيين ، وعلى الاخص إذا تذكرنا انهم كانوا فى ذلك العهد قد خطوا فى التدرج والارتقاء خطوات طويلة ثابتة . ومنذ أن برزت الى الوجود ابحاث لايارد وجورج سميث وأوبرت وشاردر وجنسن وساس والذين عاونوهم فى تلك الابحاث الطويلة ، لم يبق مجال للشك فى أن هذا المصور القديم فى حقيقة الكون ؛ والذى يمكن أن يكون قد تحور ان لم يكن قد نشأ فى دنيات تلك المدنيات القديمة ، قد اصبح ابعرا بين ميراثنا ، داخذوه ثم صبوه فى صورة توحيدية مخالفة الاتصال ، ثم أسبغوا عليه من شعريه جعله كلا ، هو

لدى الواقع كنز من أثمن الكنوز التي وصلت الينا من مخلفات « الفكر القديم » حفظ بين دفتي سفر التكوين .

وبينما كانت الفكرة في ابراز خلق مادى مصنوع بيد خالق وأصابعه أو صوته مبدأ لتكوين مذهب لاهوتي بالغ التأثير ؛ وبينما كان تيار هذا المذهب يندفق من جيل الى جيل مستمداً خلال كل جيل قوة من مجهودات آباء الكنيسة ودكاترة اللاهوت وقديسي الكنائس المبرزين في علوم الدين ، كاثوليك وبروتستانت ، أخذ نهير ضئيل من نهيرات الفكر الانساني ينساب بقوة قد تخفى حينا ؛ وقد نستبينها أحيانا ، ناقلا في طيات الفكر جيلا بعد جيل ، فكرة في أسلوب من النشوء دون أن يعالل بها الكون والمخلوقات .

أما المحترم الاستاذ سايس Rev. Prof. Sayce ذلك الباحث الانجليزى الذى لن نؤمن بان من الباحثين في هذا الموضوع من يبزه سعة اطلاع أو رصانة حكم ، فقد أعلن مقتعده في أن النظرية الكلدانية البابلية كانت بلا أقل شك النبع الأوحد الذى استقيت منه مقومات نظرية أخرى أخذ بها الفيلسوف الأيونى « أنا كسمندر » وتماها ، ودافع عنها — وان فلاسفة اليونان القدماء قد استمدوا هذه النظرية عن البابليين من طريق أهل فينيقية . وكذلك قضى بان هذا النبع عينه كان مستقى نقات زبدته في الروايات التي قصت في كتبنا المقدسة . وبهذا الاعتقاد يؤمن كل علماء الآثار الاشورية من أهل النصرانية .

والحقيقة أن تلك الروايات التي تقص في كتبنا المقدسة تناقض احداها الأخرى . ففي ذلك الجزء من الرواية الأولى — أو الرواية

الالوهية [١] التى نعثر بها فى الاصحاح الأول من سفر التكوين، نجد أن «المياه» أخرجت الاسماك والحيوانات البحرية والطيور (تكوين ١ : ٢٠). غير أننا فى الجزء الثانى المعروف باسم « الرواية اليهووية » [٢] والتى نعثر عليها من فى الاصحاح الثانى من سفر التكوين، نجد أن حيوانات اليابسة والطيور قد خلقت لا من « الماء » بل من الأرض (تكوين : ٢ : ١٩).

ان المهارة الجدلية التى اتصف بها آباء الكنيسة قد استطاعت أن تستقوى على هذا التناقض فتأوله تفسيراً . غير أن تيار الفكر القديم

---

(١) نسبة الى « الوهيم » اسم الله فى العبرانية

Elohistic: Relating to „ Elohim „ as a name of God; - Said of passages in the old Testament. See Webs. Dict.

جاء فى الاصحاح الاول آية ٢٠ : وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطير طير فوق الأرض على وجه جلد السماء . فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات النفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذى جناح كجنسه » ونسبة «الوهيمى» خاصة بالعبارات التى ورد فيها ذكر الخالق مسمى باسم « الله » ـ الوهيم فى العبرانية — من أسفار العهد القديم .

(٢) نسبة الى يهوه Jehovah

Relating to, or containing' as a name of God; said of certain parts in the old testament especially of the pentateuch, in which Jehovah appears as the name of the Diety. Webs. Dict.

ونسبة « يهووى » خاصة بالعبارات التى ورد فيها ذكر الخالق مسمى باسم « الرب » فى أسفار العهد القديم .

جاء فى الاصحاح الثانى آية ١٩ : « وجبل الرب الاله من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء .

على الرغم من هذا ، وقد عضدته هاتين الاسطورتين ، قد خدرهم فتنقل منسابا فى طيات العقول ، عقول اقدر من ابرزت الكنيسة من رجالها خلال القرون ، ودمغ الفكرة اللاهوتية بدامغ واضح الأثر ، ظل ظاهراً فى جبينها طوال دهور ، إذ وجهها الى القول بنظرية ما فى نشوء الكائنات

بل كان هنالك نبع آخر فاض بالفكرات النشوئية . فان المفكرين من أهل المدنيات الاولى ، تلك المدنيات التى اهتزت وربت على ضفاف الانهار فى مناطق الأرض المعتدلة ، قد لاحظوا كيف ان « الآله الشمس » عند ما كان يطلع على الأرض فى قوته وجبروته ، قد استطاع أن يولد من الأرض صور الحياة الدنيا . ففى مصر على الاخص ، قد رأى الناس كيف أن طمي النيل ، تحت تأثير تلك العناية القدسية ، قد انشأ من « الدواب » الصغيرة ما لا اعداد له . ومن هنا نشأ المعتقد القديم فى أن الحيوانات ومعها الانسان قد خلقت « فى البدء » من المادة الميتة بأمر العناية الآلهية ، تلك الفكرة التى حلت محلها فكرة أن بعضاً من الحيوانات الصغيرة ، وعلى الأخص الحشرات ، قد نشأت فيما بعد بتطور آخر ، حيث استمدت على حسب النموذج الخلقى الأول من منابع متفرقة ، ولكن على الأخص من مادة فى حالة الانحلال .

وهذا المعتقد القديم ، على ما كان به من مظاهر التخلخل ، قد ساعد على تفريخ جرثومة فى التطور أرقى من الجرثومة الأولى ، اسلم بها الى اليونانيين القدماء . فالفلاسفة أمثال انكسيمندر وإمبيذقليس وانا كساغوراس ، وعلى رأس الجميع ارسطوطاليس ، كما رأينا من قبل ، قد عمدوا الى تنمية هذه الجراثيم القديمة ، وقد شفوا الطريق الى الحقائق

حادسين ؛ تلك الحقائق التى أيديها من بعد المشاهدات . ولقد وصل ارسطوطاليس ، بالمشاهدة حينا والتأمل حينا آخر ، الى نتائج ، لو أن حرية الفكر اليونانية قد استمرت كما كانت ، اذن لوصلت الانسانية منذ زمان بعيد الى ما وصلت اليه الآن من حقائق علم البيولوجيا . فانه قد وصل الى اعماق من الفكرة العلمية أدت به الى القول بنشوء العضويات العليا تدرجاً من صور دنيا ، وقال بذلك الفرض المنتج ، فرض ان فى الطبيعة « مبدأ يسوقها الى الكمال » .

فلما أربت فكرات اللاهوت النصرانى ، صدّ الميل الذى كان يحفز الباحثين الى الوصول الى نظريات نشوئية أكثر صدفاء عن الاستمرار فى طريقه المرسوم . غير أن الفكرة القديمة الناقصة فى التطور ، قد ظلت ثابتة . ومثالا على ذلك نرجع الى فكرة القديس « باسيل » الكبير الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى . فانه لما أراد أن يناقش روايات أعمال الخالق قد أعلن انه بامر من الله — « قد خصت المياة بقوة إنتاجية وانه من الطمى والطين اللازب نشأت الضفادع والهوام والبعوض »؟ .

ثم اشار فى النهاية إلى أن ذلك « الصوت » نفسه الذى خص الأرض والمياه بتلك القوات الانتاجية ، سيظل مختصاً بهذه القوة ذاتها حتى نهاية العالم . وعلى هذه الفكرة ، أو ما يشابهها ، سار القديس غريغورى النياسى .

وهذه الفكرة التى استمكنت من عقلية آباء الكنيسة الشرقية العظام ، قد أصبحت أشد استمكاناً من عقلية الأب الاكبر للكنيسة الغربية . فان القديس أوغسطين ، على الرغم من استمساكه بالنص الحرفى الذى صبت فيه الكتب المقدسة ، قد رجع عن مذهبه المعروف فى

قبول التنزيل بنصوصه كما هى ، ورفض المعتقد السائد فى اسلوب خلق يشابه ذلك الاسلوب الذى يتبعه صانع اللعب التى يلهو بها الأطفال من عمل صندوق به مختلف الصور والألاعيب . فقال من مقاله المعروفة « تعليقات على سفر التكوين » — « إن الفرض بان الله قد خلق الانسان من التراب بيدين عضويتين لفكرة صبيانية . فان الله لم يبرأ الانسان لا بيدين عضويتين ، ولا بان نفخ فيه ريحاً خرج من حلقومه أو من بين شفتيه » .

بعد هذا تجد ان القديس اوغسطين قد جنح الى الاعتقاد بالنظرية التطورية القديمة التى عرفت بنظرية « الانبثاق » Emanation وهى التى تقول بانبثاق جميع الأشياء من الله ، فقال « بان حيوانات صغيرة معروفة من الممكن أن لا تكون قد خلقت فى اليوم السادس من أيام الخلق ، بل من المرجح أن تكون قد تأصلت بعد ذلك اليوم من المواد المنحلة ؛ مثبتاً أنه وإن كان هذا هو الواقع، فان الله ولا شك يكون خالقها ، مستنداً الى امكان الخلق بالتبعية الى حقيقة ايجاد المخلوقات بالفعل . ومن ثم يتكلم فى « الحيوانات التى برزت بعددها المقدر لها فيما بعد اليوم السادس من ايام الخلق » .

وفى مقالته الكبرى فى التثليث Trinity- وهو مؤلف انفق فيه ثلاثين سنة من أطيب أيام عمره — تقع على هذه الفكرة فى أجلى مظاهر نمائها . فانه فى النهاية يعمد الى القول بفكرة أن خلق العضويات الحية كان خاضعاً لاسلوب من النشوء Growth وأن الله هو المكون الأول ؛ ولكنه يعمل من طريق اسباب ثانوية . ويختم القول فى ذلك بان مواداً

ماء قد خصها الله بقوة تستطيع من طريقها أن توجد صوراً خاصة من الحيوان والنبات .

وهذه الفكرة التي ترى الى امكان نشوء الأحياء بوساطة أسباب ثانوية منفصلة عن أعمال الخلق الاصلي ، قد ساعدها على البقاء والنماء ضرورات لاهوتية لم يكن عنها من محيص . فانه شيئاً فشيئاً وعلى مقدار ما كان يتسع مجال النظر في مخلوقات العالم العضوى ، أصبح عدد الحيوانات الدنيا والكائنات المجنحة « والأشياء الزاحفة -Creeping things- مصدراً للشعور بعبء ثقيل ينوء على قصة الخلق المقدسة بكل ثقله . وشيئاً فشيئاً اخذ الشعور يتحول نحو إمكان التوفيق بين ما يقتضى لله القاهر من عظمة وكرامة ، وبين عمله فى خلق هذه الكائنات الحقيرة وحشرها أمام آدم ليسميها ، وكذلك امكان التوفيق بين مقدرة آدم المحدودة بصفته الانسانية وبين استطاعته أن يسمى « كل كائن حي » أو التوفيق بين اتساع فلك نوح وبين ما يحتاج حملها من الفراغ الكبير ، ومقدار الغذاء الضرورى لتقويم حياتها على مختلف ضروبه ، سواء اكان ما حمل منها أزواجاً أو سبعات ، كما ذكرت فى موضعين مختلفين من الكتاب المقدس .

ولقد كانت الفكرة فى اتساع الفلك مصدراً لكثير من الاضطراب . فان « اوريغن » قد عمد لدى الكلام فى ذلك الى فرض أن الذراع -Cubit- كان ستة اضعاف مقداره المعروف فى عصره . وأبان « بيده » عن قدرة نوح ليبنى مثل هذا الفلك بأن فرض أنه ظل يعمل فى بنائه مائة من السنين . ولما أراد الكلام فى مقدار الغذاء الذى كان من الواجب أن يحمله فيه ، اعلن انه لم يكن هنالك من حاجة لان يحمل معه من الغذاء الا ما يكفى

يوما واحداً ، ما دام أنه فى قدرة الله أن يلقى على الحيوانات سباتاً عميقاً ، أو أن يصنع بها غير ذلك من معجزة تجعل غذاء يوم واحد كافياً لحفظ حياتها وكذلك حاول أن يخفف ضغط الحقائق على الايمان تخفض من عدد الحيوانات التى حملت فى الفلك ، مستنداً فى ذلك الى نظرية أوغسطين التى سبق شرحها من القول بنشوء الحشرات من المواد المتعفنة والجيف.

ومما لا ريبة فيه أن هذه الضرورة اللاهوتية ؛ كانت من بين الاسباب ذات الخطر التى حفزت القديس «إيزيدور الاشبيلى» فى القرن السابع ؛ ان يدمج هذه النظرية ، مستعينا بالقديس باسيل والقديس أوغسطين ؛ فى مؤلفه الانسيكلوبيدى الكبير الذى ظل منتجع الفكر ومرجع الطلاب فى حقيقة الله والطبيعة أجيالا عديده . ولقد مهر هذا القديس ، عالم اللاهوت بمذهب الخلق بان جعله أكثر ذيوعا وانتشاراً بين المؤمنين ، إذ قربه الى الاذهان بامثال ضربها فقال : ـ «ان النحل إنما يحدث من لحم الثور المتحل ، والخنافس من لحم الحصان ، والجراد من البغال ؛ والعقارب من السراطين». ومن أجل أن يؤيد هذا المذهب بقوة جديدة تلوح منها مثل هذه الاستحالات العضوية فى حيز الأمكان ، نعمد الى الرواية التى جاءت فى الكتاب المقدس عن « بنوخذنصر » ـ Nebuchadnezzar ـ وهى رواية من الظاهر انها كانت ذات أثر واضح فى الفكر العلمى خلال العصور الوسطى ، معانا أن كثيراً من بنى آدم قد استحالوا حيوانات فصاروا على الاخص خنازيراً أو ذئابا أو بوما .

ان مذهب « المخلوقات البعدية » ـ اى المخلوقات التى ظهرت « بعد » اليوم السادس من أيام الخلق ـ قد مضى يستجمع الاسانيد

والقوى الفكرية من حوله ، حتى اذا كان القرن الثانى عشر ، ظهر بطرس لومبارد» فى ملخصه اللاهوتى المسمي « الجمل » ــ Sentences ــ ابعد ما يكون اقتناعا وقوة فى تصوير الفكرة الكنسية، مبينا الفرق بين الحيوانات التى تنشأ من الجيف والحيونات التى خلقت من التراب والماء ، ليقول بعد ذلك بان الحيوانات الاولى خلقت « بالقوة » ؛ واما الثانية فخلقت « بالفعل » ! ! !

وفى القرن التالى تناول القديس « توماس اكويناس » هذه الفكرة وعلى يديه صبت فى قالبها الاخير. ففي كتابه المسمى ــ Sumna Theologia ــ الذى لا يزال معتبرا حتى الآن اعن ما أخرج الكاتبون فى العصور الوسطي ، تراه يقبل مذهب أن صنوفا خاصة من الحيوانات قد تنشأ من اجسام منحلة نباتية وحيوانية ، ويعلن فى صراحة انها انما تتكون خضوعاً لكلمة الله ، إما بالفعل وإما بالقوة . ثم يتوسع فى هذه الفكرة مثبتاً ــ « انه ما من شيء خلقه الله بعد ستة الايام الاولى من أيام الخلق فكان جديدا بمعنى الجدة ، بل لا بد من أن يكون مندمجاً فى الاعمال التى تمت فى تلك الستة الأيام» . وأنه ــ « حتى الانواع الجديدة ؛ اذا ظهر شيء منها ؛ فلابد من ان تكون قد وجدت فى خصائص معينة، كما تستحدث بعض الحيوانات من المواد المنحلة » .

على انك تجد أن التفريق الحاصل بين الخلق بالفعل والخلق بالقوة؛ أي الخلق بالمادة والخلق بالصورة، قد نماها و كثرها اصحاب التعليقات من بعد ذلك . فقد قال « كورنليوس ألابيدا » Cornelius a Lapide إن بعض الحيوانات لم تخلق « أطلاقا » بل « بالاشتقاق ». وبعد ثلاثة

قرون اخذ « اوغسطينوس أيوغيبنوس » — Augustinus Eugubinus هذه الفكرة وتوسع فيها فقال بانه بعد أن دعت القوة الخالقة الارض والماء الى الوجود ، خلق الله القادر الضوء ، وهو الأداة التي استخدمت في كل ما تلى ذلك من أعمال الخلق ، وأن الضوء دعا من بعد ذلك كل الاشياء الى الوجود فوجدت .

هذا العلم — كما يدعى علماً من طريق الخطأ — حتى بعد أن نمته اكبر العقول التي ظهرت بين جدران الكنيسة ، على الرغم من انه علم « عقيم » ، كان الى هذا الحد غير ضار على الاقل . غير أنه كان في نظر اللاهوتيين ، ممن أقاموا انفسهم حفظة على كنوز العلم الكنسي ، وكانوا يندون باقل انحراف عن الفكرة الاصلية المقدسة ، ذا خطر عظيم . فقد ظهر لهم أن هؤلاء انما يذهبون بمذهب « الخلق البعدى » بمقتضى الاسباب الثانوية الى غايات كبيرة الخطر . لهذا نجد في بداية القرن السابع عشر أن اليسوعى الاسبانى المعروف « شوارز » Suarez — وهو لاهوتى ذو شهرة كبيرة ، قد رفض هذه الفكرة ، معلناً أن القديس اوغسطين « هرطوق » لانه اخذ بها وعضدها .

غير انه لم يكن هنالك من خطر على الفكرة القديمة حتى بعد أن بلغ الناس من التفكير هذا المبلغ . فان الميول اللاهوتية الاساسية كانت من القوة بحيث مضى الناس بها مستمسكين .

وكان اللاهوت الانجيلى لا ينفك عاملا على نسج شبكته السحرية يجر خيوطها من أمعائه الواسعة ، فكان ذباب اللاهوت يعلق بها اينما صادفته وأينما صادفها . غير انك ترى فوق ذلك أن من هنا ومن هنالك

حام من حول الشبكة مفكرون اقوياء الحجة ثابتو البديهة ، استطاعوا ان يحلوا انفسهم من اغلالها ، بل حلوا معهم اغلال غيرهم ممن كانوا قد تساقطوا عليها .

فى نهاية العصور الوسطى ، وعلى الرغم من تشبث الكنيسة البروتستانتية بنص الكتب المقدسة ، خلقت نهضة الاداب والسياحات البحرية جواً جديداً انتعش فيه الفكر وتقدم خطوات واسعة من حيث النظر فى مشكلات الطبيعة ، فكان اقوم سبيلا واثبت قيلا . واينما وليت وجهك ، وحيثما ادرت عينيك ، بل وفى كل مجاز ، كنت ترى رجالات افذاذاً قد وقفوا على مستكشفات كان من شأنها أن تظهر المذاهب اللاهوتية ، أقل مسايرة للحقائق واشد مناهضة للواقع المحسوس .

ان أول من يجدر بنا ذكره من اولئك الذين يجب ان نخصهم بالاحترام والتبجيل ، كمثال لتلك الفئة التى أخذت تحيي تيار الفكرة الاغريقية ، تلك الفكرة الفذة التى خانتها وصدعت اركانها اساليب العلم التى استمدها من كتبنا المقدسة آباء الكنيسة خلال الف كاملة من السنين ، هو ذلك الجهبذ النادرة « جيوردانو برونو Giordano Bruno » إن اقواله كانت ولا شك غامضة مبهمة ، بل لا نبالغ اذا قلنا انها كانت ملغزة إلغازا . غير ان هذا يمكن ان نتسامح فيه ، لانه بلا ريب كان يرى عن كثب ما سوف يكافأ به إذ هو اعان ما اضمر ، وصارح بما اسر فى نفسه . غير أن هذا لم يفده شيئاً ، فنال على يد الكنيسة عقابه الاكبر ، تلقاء اقواله المبهمة الملغوزة المشحونة بالاخطاء العامية ، فأحرق حياً وذريت مع الريح بقاياه الترابية . على انه جوزى فى نهاية القرن التاسع عشر خير

الجزاء ، اذا اجتمع لفيف من اكبر مفكرى الارض واجمعوا امرهم على انه يقيموا له تمثالا ينصب حيث اقيمت المحرقة التى احرق عليها بامر مجلس التفتيش الرومانى ، بعد ان مضى على ذلك زهاء ثلاثة قرون كاملة.

بعد موت «جيوردانو برونو» وفى خلال النصف الاول من القرن السابع عشر، ظهر «ديكارت» ليرفع راية الامامة فى مجال الفكر الانسانى. فان نظرياته ؛ ولو انها انقضت الآن ؛ قد حفزت العقول إلى البحث والاختبار بالمشاهدة اذ ذاك. فان نبوغه قد ظهر فى اجلى مظاهره بتلك النظرية التطورية الميكانيكية التى وضعها فى تكوين النظام الشمسى، كما كان اسلوبه التفكيرى سبباً فى أن يقوى تيار المذهب التطورى النشوئى على وجه عام. غير أن الاضطهاد المستمر الذى ناله من الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء، جعله يلغز افكاره الغازا ، بل حمله على ان يترك اكثرها جائلا فى ثنايا نفسه من غير ان يجرأ على المصارحة به. ولقد احرق « برونو » عندما كان « ديكارت » فى طور الطفولة، ولما بلغ مبالغ الرجولة تعقب بأنتباه معركة غاليليو وتتبع حوادثها جملة وتفصيلا. ولقد رأى مؤلفاته تلعنها الجامعات واحدة تلو اخرى تحت تأثير اللاهوتيين ، بل رآها تضم الى الفهرست الرومانى. وعلى الرغم فى أنه زود الفكر الانسانى ببراهين قوية يثبت من طريقها وجود الله، واضطر أن يمتهن نفسه ازاء اليسوعيين، فانه لم يسلم من اتهام الكاثوليك والبروتستانت على السواء. حتى انه من الحق أن نقول انه منذ عصر « روجر باكون » Roger Bacon لم يمتهن اللاهوتيون مفكراً كبيراً بقدر ما امتهنوا « ديكارت » بل انهم استبدوا به وحقروه تحقيراً.

وفى أواخر القرن ذاته ظهر المفكر الكبير ليبنتز Leibnitz وعلى الرغم من أنه لم يبشر بنظرية نشوئية كاملة . فانه أعطى الفكرة سنداً جديداً بأن بث نظرية تناوىء الاعتقاد المقدس فى ثبات الأنواع — ذلك الاعتقاد الذى كان يلزم المؤمنين بأن يؤمنوا تسليما بأن كل نوع فى عالم الحيوان ؛ إنما تلابسه ذات الصورة التى خرج بها من يد الخالق ، والتى سماه بها آدم ، والتى فارق بها فلك نوح!!

غير أن الكنيسة لم تتركه من غير أن تنزل به العقاب . فبعد سنين قلائل وفى سنة ١٧١٢ تمكن اليسوعيون من أن يحبطوا مشروعه فى تكوين أكاديمية علمية فى ڤينا . وعلى الرغم من أن السلطات الامبراطورية قد منحته أعلى درجات الشرف وحوطته بأقصى ما تستطيع من عناية ، فان القساوسة وهم المحتكمون من فوق المنابر وفى نواميس الايمان ، لم يمكنوه هو والذين انتهجوا سبيله من طلاب العلم ، من أن يكشفوا عن بعض الحقائق التى بثها الله فى ثنايا الطبيعة .

ولا يجدر بنا أن نغفل ذكر « سبينوزا وهيوم وكانت » بين الذين هم كان من المستطاع أن يكون لفكراتهم ، ولو كانت خطأ ، أثر فى تنشئة نظريات جديدة أصدق برهاناً وأقوى أساساً ، لو لم يفعم جو زمانهم بريح اللاهوت القاتل . غير أنه بعد أن مات « ليبنتز » ببضعة أعوام ؛ ظهر فى فرنسا مفكر ممن اتخذوا علم الطبيعة مجالا لجهدهم . على أنه لم تكن من الشهرة فى المكانة التى نزلها أولئك الاعلام . غير أنه استطاع مع هذا أن يخطوا بالعلم الى الامام خطوة ثابتة . .

ففي بداية القرن الثامن عشر ظهر « بنوا ده ميليه » — Benoist de Maillet وهو رجل دنيوى عرك الحياة وعرفها ، وكان بجانب هذا واسع المشاهدة دقيق الملاحظة صادق الفكر عميقه كثير الشغف بالطبيعة ، فبدأ يتأمل فى تأصل الصور الحيوانية على الاخص وكيفية نشوئها ؛ حتى أدى به تأمله الى فكرة تغاير الانواع ، ومن ثم الى الاعتقاد بتطورها على صورة يصح أن يقال إنها من

الاسس التي بنيت عليها الفكرة الحديثة فى النشوء . ولقد آمن ايماناً صادقاً مفروغاً منه ؛ ولو أنه لم يكن بيناً صريحاً فى بعض المواطن ، بأن الانواع الحاليه مشتقات تحولت عن أنواع أخري بتوالى التغاير الوصفى على أعضائها. ومن البين فوق ذلك أنه قبل مبدأ من المبادىء الاساسية التي يقوم عليها اليوم علم الجيولوجيا ، اذ آمن بأن تركيب الكرة الارضية يجب أن يخضع فى درسه للمؤثرات الطبيعية التي تجرى تحت أعين الباحثين فى العصر الحاضر .

على أنه لم يلبث غير قليل حتى وقع بين نارين . فكانت الاولى السلطات الكنسية : تتهمه بأنه حر الرأى Freethinker وكانت الثانية ساطة فولتير Voltaire الادبية اذ رماه بأنه مغال فى رأيه متعصبا له . ولما شعر بأن الخطر الاكبر آت من ناحية لاهوتيي الاورثوذكسية ، حاول « ده ميليه » أن يحمى نفسه من أذاهم بأن ينشر كتابه تحت اسم مستعار يرمز له رمزاً فى الصفحة الاولى ، وبأن يجري في المقدمة والاهداء على قاعدة « التلاعب بالالفاظ » حتى إذ حاولت السلطات اضطهاده ، استطاع أن يعلن أن الكتاب ليس أكثر من هلاس خيالى . لهذا نجد أنه أشار الى أن الكتاب عبارة عن أشياء أفضى بها حكيم هندى الى مبشر مسيحى. غير أن هذه المناورة لم تفده شيئاً . فانه جعل « الحكيم الهندى » يرجح أن أيام الخلق التي ذكرت فى سفر التكوين لم تكن الا عصوراً متطاولة ودهوراً متلاحقة . وهذه الفكرة ، مع غيرها من الفكرات التي لا تنزل عنها أثراً من حيث التأثير فى اللاهوت النصرانى ؛ كانت كافية لان تعتبر مسممة للافكار . وعلى هذا لم ينشر الكتاب قبل سنة١٧٤٨ ، أي بعد موت مؤلفه بثلاث سنوات، وكان قد طبع سنة١٧٣٥

وتري من جهة أخرى أن لاهوتية « فولتير » الالحادية الانكارية قد تحركت من مكمنها لتضرب فى أصول الفكرة الجديدة . فان « ده ميليه » عند ما رأى آثار الحفريات التي كشف عنها فى رؤوس الجبال . قضى بأن وجودها

دليل على أن هذه الجبال كانت يوماً من الايام تحت سطح البحر. و لما ترآى لفولتير أن في هذه الفكرة تأييداً لطوفان نوح أخذ يهاجم المفكر الجديد ويهزأ به بلا شفقة أوهوادة. ومن سوء الحظ أن بعض ماوقع فيه « ده ميليه » من الاخطاء، وما قال به من احتمالات، فتحت لفولتير المجال واسعا وأفسحت له سبيل الاستهزاء و السخرية. و لامشاحة فى أن « فولتير » لن يجد من مادة للسخرية أوسع مجالا من نظرية قال بها « ده ميليه » في جد وصلابة، من أن أول انسان وجد فوق سطح الارض قد ولدته « مرمادة » (١)

و من هاتين الصورتين اللاهوتيتين، صورة اللاهوت الاقدس ممثلا فى الكنيسة، و اللاهوت الالحادى الكاذب ممثلا فى فولتير، لم يظهر «لده ميليه» من أثر أو يعترف له بفضل الا منذ عهد قريب، عندما قام رجالات العلم فى فرنسا و انجلترا ليوفوه من التكريم حقه. غير انه على الرغم من كل هذا فان مؤلفه لم يقض على أثره بتة حتى فى حال حياته وبين أبناء عصره. فان « روبينيه » Robinet وبونيه Bonnet قد خطا كل منهما بالنظرية خطوات ثابتة، كانت للعلم انتصاراً جديداً.

فى خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر قام فى وجه هـذا التيار المجيد سد « منيع » استجمع لبناته العلامة لينيوس » ـ Lineaus وكان أبعد علماء الطبيعة فى عهده صيتا و اكثرهم شهرة وانفذهم نظرا و أوسعهم اطلاعا ومشاهدة وادقهم فكرا. غير أن الجو الذي عاش و انتعش فيه، كان مسمما بفضلات اللاهوت الانجيلى، فكان له اكبر الاثر فى تفكيره العلمى.

---

(١) تعريب ـ Mermaid ـ وهى أنثى خرافية من أناث البحر لها جسم امرأة جميلة حتى نصفها الاعلى، ثم ينتهى جسمها الاسفل بذيل سمكة.

إن من يزور قبر « لينيوس » الآن ، ميمما شطره من باب كاتدرائية أو بسالا الجنوبي ، يرى منقوشا فوق أحجاره تنويها بخرافة الخلق العبرانية ، ففي سلسلة من الاطباق المنقوشة ، ترى الخالق في صورة بشرية يتم عمل كل يوم من أيام الخلق . وتراه في ترتيب العمل يضع القبة الزرقاء الصلبة ومن فوقها المياه : ويثبت فيها الشمس والقمر والنجوم ، ومن تحتها السوائم والطيور والنباتات . ويتم مهمته بانه يخرج الرجل الآدمي من كثيب من الارض السفلى ؛ والمرأة من أحد جنبيه . ومما لاشك فيه أن « لينيوس » عندما كان يذهب الى الكنيسة ليؤدي واجبه الديني ، كان ينحرف قيد انملة عن الفكرة التي تتضمنها هذه الخرافة . وغالب ما كان يضطر الى التسليم ببعض الاشياء ، كلما يزداد ضغط الكوارث التي نزلت بالنظرية الارثوذوكسية . على انه عندما بلغ أواخر سنيه . بتر متهيباً بنظرية أن أنواع كل جنس من أجناس الاحياء كانت في بدء الخليقة نوعا واحداً . بل انه في الطبعة الاخيرة من كتابه « النظام الطبيعي » — Systema Naturae قد انصرف عن الزعم الارثوذوكسي من القول بثبات الانواع . بعد ان كان قد تشبث به كل تشبث في مؤلفاته الاولى . غير انه لم يعلن عن ذلك في صراحة وجلاء . أما ما كان ينتظر من جزاء فيما لو صارح بنظرية جديدة ينميها و يشفعها بالبراهين ، فقد ساقت اليه مقدمات معروفة نتائجها . فان التحذيرات ، مصوبة في قالب التهديد ، قد تناوحت من حوله نعماها رياح البروتستانت والكثلكة .

في الوقت الذي مضى فيه رعاة الكنيسة القديمة يقرظون الفجرة الخلعاء من الامراء أمثال « لويس الخامس عشر . ويكيلون لهم الثناء جزافا ، متبعين تلك الاساليب السفهة الساقطة المرذولة التي اختطها اليسوعي « سانشين » Sanches في تعليم الكهنة والقساوسة كيفية علاقة الرجل بالمرأة من ناحية جنسيته . ارتاعت الكنيسة كل ارتياع بل اهتزت سلطاتها فزعا ورعبا .

عندما برهن « لينيوس » على حقيقة النظام التناسلى فى النباتات؛ حتى لقد حظر نشر كتاباته فى الولايات البابوية سنوات عديدة. كما حرمت على القراء فى كثير من بقاع أخرى فى أوروبا كانت لاتزال السلطة الكهنوتية فيها من القوة بحيث تستطيع أن تجبر الناس على مثل هذا الحرمان، وان تقف حائلا فى وجه التيار العلمى الحديث. ولقد ظل الحال على هذا المنوال الى سنة ١٧٧٣ عندما قام كردينال واسع العقل بعض الشىء — هو الكردينال (زنلاندا) Zenlanda. فنجح فى الحصول على أمر يبيح للاستاذ (ميناسى) Minasi ان يلقى دروسا فى نظام (لينيوس) النباتى فى روما.

ولم تكن البروتستانتية أقل عسفا أو أهون استبداداً. ففى خطاب الى (الوويس) Elouis يذكر « لينيوس » مدى الاحتقار الذى وجه الى العلم على يد الاسقف « سفيد برج » Sved berg أحد رعاة الكنيسة اللوثرية العظام. وقد وصل الى أكاديمية العلوم الملكية تقارير عديدة وفى انحاء مختلفة من أوروبا، مؤداها أن المياه قد انقلبت الى دماء. وان رجال الكهنوت الذين هم « يعلمون» والذين هم « يعنون مايقولون »قد رأوا فى هذه الظاهرة دلالة على غضب « الله » على البقاع التى حدثت فيها هذه الخوارق بالذات، كما يجوز أن تكون علامة على غضبه على النوع البشرى فى مجموعه. ولقد حدثت مثل هذه « الخارقة » فى اسوج فامتحنها « لينيوس »، ووجد أن السبب فى احمرار الماء راجع الى تكاثر نوع من الجرثومات فيه. ولما وصل الى الاسقف أن « لينيوس» قد علل احمرار الماء بهذه الطريقة : جاهره بالعداء واقتحم الميدان. فقال فى هذا الاستكشاف العلمى انه « غمرة شيطانية » Abyssum Satanae وأعلن «ان احمرار الماء غير راجع الى سبب طبيعى » وان « الله عندما يسمح بحدوث مثل هذه المعجزة يحاول الشيطان، متخذا من أعوانه البعيدين عن الله المعتمدين على أنفسهم؛ المكتفين بقواهم العقلية، وسائل تظهر معها المعجزة

كأنها لاشيء »، ولقد اضطر « لينيوس » امام هذه الحالة الشنيعة الى النكوص والتقهقر . فذكر لاحد الذين كاتبوه « انه من الصعب أن يصارح بشيء ازاء هذا الامر » مستخفيا وراء القول « بانها لمعجزة أن تنشأ ملايين عديدة من الحيوينات فجاءة وفي أقصر زمان » وان هذه المعجزة إنما تظهرنا بلا أقل شك، على القدرة العاقلة البالغة التي يختص بها الله الذي لايحد بزمان ولا مكان ».

وكان الطبيعي الكبير قد طعن في السن وانهكته الجهود التي بذلها في سبيل العلم ، فلم يقو على أن يقاوم تيار اللاهوت الذي انساب في عصره ، فاستنام مطيعاً لقوته . وبينما كان التغير الظاهر الذي استولى على كل ما كان يراه من فكرة أو ثوذوكسية في أول حياته ، وقد تسلل في هوادة وسكون إلى الصيغة الأخيرة من كتابه العظيم كما رأينا ، فانه لم يبذل جهداً محاولا أن يطبع العالم بطابع فكرته التي استخلصها من جهاده العلمي الطويل . وظل متظاهراً بأنه من أنصار الفكرة القائلة بأن كل الانواع الحية قد خلقها الله القادر على كل شيء — في البدء — وانه منذ — « البدء » — لم تظهر أنواع جديدة على اطلاق من القول .

غير أن نفوذه العلمي العظيم لم يقف الاستكشاف العلمي . فقد ازداد عدد الأنواع المستكشفة يوماً بعد يوم . وكذلك أخذت الحقائق المستكشفة في علم الاستيطان — التوزع الجغرافي — Geographical Distribution تصبح شيئا بعد شيء غير مفهومة بل بعيدة عن بديهة العقل لدى تطبيقها على النظرية القديمة ، كما أن العقول قد اتجهت وهنا على وهن نحو الاعتقاد بأن الكون والعضويات الحية قد وجدت خضوعا لنظام بعيد عن فكرة الخالق المستقل — في البدء — حتى لقد أصبح سؤال العلم الأوحد « بأية وسيلة وجدت الاشياء ؟ . .

ولم يكن في القرن الثامن عشر كله من رجل اشتغل بالتاريخ الطبيعي

بحيث كان من المنتظر أن تنتج جهوده تتاجا يمكن به الاجابة على هذا السؤال سوى « بافون » ـ Baffon ـ الفرنسوي. فقد خص بقدر كبير من موهبة القدرة على البحث وعمق التفكير، وكانت كفايته على استظهار نتائج أبحاثه واستعماقه الذهنى، من أكبر الدلائل على عبقريته. ولقد استضاء ـكره بنظرية التطور بتغاير الأنواع، وكان المنتظر أن يخطو بها خطوات ذات بال. غير أنه لم يصل إلى هذا الحد حتى أدركه نفوذ اللاهوت، فشعر بقوته الثقيلة تنوء على كاهله.

ولقد رحبت الكنيسة بأبحاثه طالما كانت مقتصرة على وصف الاحياء، ولكنه لم يكد يدلف من الوصف إلى استنتاج حقائق ذات قيمة فلسفية، حتى انفجرت عليه بطاريات السوربون اللاهوتية، معلنة له أن « الكنوز المقدسة التى عهد بها إلى الكنيسة » ـ تنص ـ « على أنه فى البدء خلق الله السماوات والارض ». وأن كل -- « الاشياء قد خلقت من بدء صنع الدنيا ». ومن أجل تلك الاستعراضات العلمية البدائية التى تعد اليوم من الحقائق المتداولة؛ قد اضطر « بافون » خضوعا لسلطان الكنيسة، أن يعتذر عنها علناً وأن ينشر اعتذاره مطبوعاً على الناس. ولقد قال فى اعتذاره — « أعلن اقلاعى عن كل ماجاء فى كتابى خاصاً بتكوين الأرض، وجملة عن كل ماجاء به مخالفاً لقصة موسى ».

غير أن كل هذه الانتصارات التى حازتها الأساطير الكلدانية البابلية، والتى ورثتها الكنيسة النصرانية باللقاح، لم تغن إلا قليلا.

ففى أواخر القرن الثامن عشر بدأت تلوح فى أفق الفكر تقريرات، كلا بل شروح وافية جلية، فى هذه الناحية أو تلك، من نظرية نشوئية كبرى، تناولتها العقول بالبحث والتقرير آنا بعد آن. ومن جهات تختلف أمزجتها جهد الاختلاف، بل تتباين كل التباين. على أننا نخص بالذكر من

تلك الشروح والتقريرات ما أظهره « اراسموس داروين» Erasmus Darwin في انجلترا ، وموبرتوى Maupertuis فى فرنسا ، واوكن Oken فى سويسرا وهردر Herder ، وعلى الاخص « جوته » Goethe فى المانيا لما اتصفت به تقريراته من الطلاوة والقوة .

على أننا نذكر من بين هؤلاء الأفذاذ رجلان يجب أن نوجه اليهما عناية خاصة . وهما تريفيرانوس ـ Treviranus ـ فى المانيا ، ولامارك ـ Lamarck ـ فى فرنسا . فان كلا منهما ، مستقلا عن الآخر ، قد جر العالم من هذه السبيل الى حدود لم يبلغها من قبلهما .

ففى سنة ١٨٠٢ أخرج « تريفيرانوس » كتابه فى علم البيولوجيا وبث فيه فكرة أنه من صور الحياة التي كانت فى البداية بسيطة ، قد نشأت كل النظامات العضوية الراقية متطورة تدريجيا . وأن كل المخلوقات الحية فيها قدرة على قبول التهذيبات الوصفية التى تقع على تراكيبها بفعل المؤثرات الخارجية ، وأن أي نوع من الأنواع المنقرضة لم يصبح منقرضا بالفعل ، بل لا بد من أن يكون كل منها قد تطور فصار نوعا آخر . كذلك أخرج « لامارك » كتابه « الابحاث » ـ Researches ـ وبعد قليل كتابه الكبير « فلسفة الحيوان » ـ Zoological philosophy ـ الذى أدخل على نظرية النشوء عاملا جديدا . هو عامل فعل الحيوان ذاته اذ يجاهد فى سبيل أن « يتطور » ليرضى بذلك حاجات جديدة تظهر فى أفقه وبيئته ، وأثبت فى النهاية هذه النتائج :

أولا ـ ان الحياة تعمد الى زيادة الحجم فى كل جسم حى وفى كل أعضائه حتى يبلغ من النماء الحد الذي تتطلبه حاجاته

ثانياً ـ ان الحاجات المستحدثة فى الحيوانات تنشىء أعضاء جديدة

ثالثاً ـ ان نماء هذه الاعضاء يكون دائما بنسبة استعمالها .

رابعاً ـ ان صور النشوء المستجدة فى الحيوانات تنتقل إلى الاعقاب .

ولقد كانت أمثاله التى ضربها للتدليل على صحة مذهبه ، كاستطالة عنق الزرافة باحتياجها جيلا بعدجيل إلى ارتعاء أوراق الاشجار العالية ، واستطالة أرجل الكنغر الخلفية وقوتها راجعة الى احتياجه إلى الوثب ، مثالاللسخرية والاستهزاء . غير ان ما قوبلت به تدليلاته هذهمن السخرية ، كان سيبافى تعلق أثارها بالاذهان وتنطبع فيها .

على ان فى المثلين اللذين أتينا عليهما . ولو انهما ناقصين غير كاملين ، قد كمنت حقائق جديدة . حقائق كان من المؤكد أن تنمو وتؤتى أكلها .

فان ما أعلن عنه « لامارك » ، وعلى الاخص قوله ان نشوء الاعضاء ونمائها انما يكون بنسبةاستعمالها ، واشاراتهالتى وجهفيها القول إلى انتقال الصفات المكتسبة أو المفقودة من الآباء إلى الاعقاب ، كانت قوة كبرى عملت على تنشئة نظرية النشوء وتدعيم أسسها .

وكان « جفروسانتيلير » - Geoffroy st Hilaire - أكبر من تبع « لامارك » من رواد هذه النظرية . فى سنة ١٧٩٥ وضع نظرية ان الانواع عبارة عن سلسلة من التطورات المتتابعة واقعة على صورةأصلية Type أومثال أصلى . ولقد عمل على تنشئة هذه النظرية وتنميتها متدرجا فيها على مر الزمن وبمقتضى ما كان يكشف له من أسرار الطبيعة . ولقد كان من نصيبه أن يواجه فى سبيلها عقبات شديدة عاتية . وأن يخوض فى سبيلها معارك ممضة مضنية ، سنينا طوالا .

أما الرجل الذي خاض المعركة فى عصر « سانتيلير » فكان مرماه العلم ولكنه خدم اللاهوت لا عن قصد ولا عن شعور ، فكان « كوفييه » أكبر الفوسيقيين فى عهده ، وحجة علماء الطبيعة فى عصره . وكانت شهرته العلمية عن جدارة واستحقاق . ولقد ضفت عليه الالقاب العلمية من وطنه ومن غير وطنه . فكان يحملها بحق وبوزن لا تطفيف فيه . فكان من رجال الحاشية

الملكية فى عصر نابليون ، ورئيس مجلس المعارف العمومية ، ورئيس الجامعة فى عصر البوربون بعد رجوعهم إلى عرش فرنسا ، وحامل لوسام اللوجيون دونور ، ونبيل من نبلاء فرنسا ، ووزير للداخلية ، ورئيس لمجلس الدولة فى عصر لويس فيليب . ولقد حاز شهرة في كل مركز من هذه المراكز . ومع كل ما حازه من مراقى الشرف باعتلائه هذه المناصب الادارية ، لم يكن شيئا مذكورا بجانب ما عقد له من لواء الزعامة فى عالم العلم الطبيعى . ولقد اعترف له « العلم » فى كل أنحاء الدنيا بأنه مالك زمامه ، وحامل لوائه ولهذا الشرف الكبير عاش اسمه ، وبحق سوف يعيش . غير انه كانت تكمن فى تضاعيف نفسه وفى تلافيق دماغه ، كما كمنت فى نفس لينيوس ، جراثيم جعلته ينظر فى الكون من ناحية تصور لاهوتى بذاته فى أصل الخليقة وتخطيط تصاميمها الاولى. غير ان هنالك اعتبارات ذات بال جعلته يقاوم النظرية الجديدة ويشدد عليها الخناق بقوة . منها أن أخلاقه قد تكونت على أن يكون شاكا أزاء كل نظرية جديدة فى العلم لكثرة مارأى فى حياته من ولادة النظريات واستشبابها ثم موتها . ومنها بيئته كعمدة من عمد الحكومة حاز الشرف ونال الحب والإحترام ، بل عبده الاعظمون ، وقدسه الانبغون ، لا من رجال الحكومة وحدهم ، بل من رجال الكنيسة أيضاً . ومنها حيدته وبعده عن المجادلات العنيفة رغبة منه فى أن يتحامى المعارك الشديدة التى كان لابد من أن تحتدم نارها ويتلظى سعيرها اذا قاوم العلم الكنيسة عيانا وبادرها بالعداء جهاراً . وعلى الاخص بعد أن وقعت أوروبا فى يد الكنيسة لقمة سائغة باردة بعد الثورة الفرنسوية الكبرى ، وجعلت من أعدائها موطئا لقدمها . لهذا تراه قد ناوء فى جلبة المدائح التى افاض بها عليه أعاظم رجال الكنيسة ، بكل سلطته العلمية ونفوذه ، على نظرية النشوء مؤيداً النظرية القديمة ، نظرية النكبات الجيولوجية ، وما يتبعها من مذهب الخلق المستقل.

غير ان « جفردي ساتيلير » قاومه بمرارة وحرارة ، محتملا فى سبيل ذلك كل ضروب الانكار وسوء المعاملة والسخرية . فى حين ان « تريفيرانوس » بعيداً فى حجرة محاضراته الرياضية فى مدينة « بريمن » كان نسيا منسيا

ذلك فى حين ان تيار الفكرة النشوئية ظل منسابا جارياً ، ولم تستقو هذه الوسائل على صده والوقوف فى سبيله . نعم ان مجرى الفكرة قد انتابته بعض الصعاب زمانا ما ، غير أن الفكرة تحولت فى مجار أخرى وفى طرق وأمكنة لم يكن من المحتمل أن تتمشى فيها . فان هذه الفكرة كما بدأت فى فرنسا ظهرت فى انجلترا على الاخص ، حيث ظهرت سلسلة كون وحدلتها رجال من عظماء الحفريين والجيلولوجيين ، حتى انتهت بظهور العلامة الجليل شارلس ميل Lyell ونهض الاخصائيون في أنحاء الدنيا فاستجمعوا بجد وجلد ومثابرة كثير من الحقائق وقارنوها بعضها ببعض وفكروا فيها أعمق تفكير متبعين طرقا أخذت بعدها نظرية الخلق المستقل تتواري وتتراجع شيئا بعد شيء . ولما اتسعت تلك النهيرات الفكرية واستقوت على شق طريقها فى أرض الفكرة القديمة ، لم تلبث إلا قليلا حتى تجمعت فى ملتقى واحد ، لتكون نهرا عظيما من الفكر أخذ يفيض ويتدفق بصور التجديد الفكرى والابتكارات الاستكشافية

ففي سنة ١٨١٣ اذاع دكتور ويلز - Dr. Wells - الانجليزى نظريته فى النشوء بالانتخاب الطبيعى ليعلل بذلك ظهور السلالات المتغايرة في النوع البشرى وحوالى سنة ١٨٢٠ اذاع الاسقف هربرت - Dean Herbert - وكان من الثقاة المعدودين فى علم زراعة الحدائق ، معتقده فى أن الانواع ليست سوى تنوعات ثابتة ، أي غير ماضية فى سبيل التغاير . كذلك نجد العلامة «باتريك ماتيوز - Patrick Mathews - قد قرر رأيه على صحة مذهب الانتخاب الطبيعى فى احداث صور النشوء . فى حين أن غير هؤلاء ، سواء افى اوروبا أم أمريكا، قد المعوا الى هذه النظرية الماعاً ونظروا فيها لماماً .

غير أن هذه الفكرات لم يتأثر بها أحد ممن هم خارج دائرتها ، وعلى الاخص اذا تذكرنا أن أفراد هذه الحلقة لم يكن لهم تأثير ظاهر . وكانت الكنيسة هادئة ساكنة . ذلك لانها كانت باسطة نفوذها الرجعى فى القارة الاوروبية على الابلطة الملكية وعلى الوزراء وعلى الجامعات. وكان الاسقف «كوكبرن» ـ Cockburn ـ يقاوم رافضا نظريات «مارى سومافيل» Mary Somerville والجيولوجيين ، بين تهليل رجال الكنيسه وتصفيقهم . بينما كان المحترم «ميلور براون» يفعل نفس الفعل ، محتطا ذات الخطة ، ليشذب من قتادة المنشقين على الكنيسة .

أما فى أمريكا فقد قوبلت تقريرات «سيليمان» ـ Sill man ـ واتباعه بمعارضة لاهوتيي «أندوفر» وعلى رأسهم موسى ستيوارت ـ Moses u art ـ وليس فى هذا من الغرابة بقدر ما فى موقف الجامعات الانجليزيه . فانها على اطلاق القول ، لم تعر هؤلاء المجددين العظام أى التفات . اللهم الا ليكونوا موضع سخرية أو ازدراء .

فى سنة ١٨٤٤ لقح تيار هذه الفكرة بعنصر جديد عندما اخرج «روبرت شامبرس» ـ Robert Chambers ـ كتابه آثار الخلق ـ Versiges of creation ـ كان في الكتاب من الجاذبية وخفة الروح ما جذب اليه أنظار عديد وافر من القراء . فعم انتشاره وذاع صيته . وكان من رأى مؤلفه أن سلائل المخلوقات الحية المتعددة من ابسطها واقدمها الى ارقاها واحدثها نتيجة مؤثرين مستقلين بثهما الخالق لاول وآخر مرة فى تضاعيف الطبيعة . فكأن المؤثر الاول عبارة عن قوه بثت فى جبلة صور الحياة تدفعها الى التدرج فى الارتقاء حالا بعد حال . أما المؤثر الثانى فقوة تعمد دائما الى تهذيب العضويات بما يجعلها تلائم ظروف الحالات الخارجية . والمحصل أن محور الكتاب قد دار حول فكرة فى النشوء مصبوغة بصبغة الاعجاز ، أو هى تجويز لبسط اعمال الخلق خلال كل الازمان . وان

شئت فقل تعبير ديني عن مذهب لامارك .

وكان من ذلك نتيجتان. لقيت الاولى روحا من الفزع والخوف. وحركت الثانية نزعة البحث الجدي . فان الاولى ظهرت باجلى مظاهرها في خوف اللاهوتيين وفزعهم من الكتاب . فقد علت الصيحة في جانبهم في حرارة وجد بان الكتاب يساعد على ترويج الالحاد وانكار وجود الله. على اننا اذا رجعنا الى نهج الفكرة والسبيل التي تمشت فيها العقول مند ذلك الحين حتى اليوم وما نشأ فيها من تطورات ، لشعرنا بانه كان من واجب قدماء أهل اللاهوت ان يصلوا الى الله طاعة وشكرا على ظهور كتاب « شامبرس» وانهم كانوا اجدر بان يضرعوا الى الله عسى أن يكون ما فيه صحيح . أما النتيجة الثانية فانحصرت في أن الكتاب قدهيأ القول بقبول معتقد النشوء باعتبار ان النشوء في صورة أو وضع ما ممكن على الاقل . وعندى أن هذا الكتاب لم يكن له قيمة عملية واقعية سوى في هذه الناحية وحدها .

بعد هذا العهد بثماني سنوات نشر العلامة الفيلسوف هربرت سبنسر مقالة قارن فيها بين نظريات الخلق المستقل و نظريات النشوء ، مؤيداً بكثير من البراهين الراجحة القوية النظرية الاخيرة، مظهرا بمالا يحتمل الشك أن الانواع لابد من أن تكون قد تهذبت وصفا بتأثير ظروف الحالات . غير أن ما في هذه الثمرات الشهية من قوة وجاذبية لم يدرك اهميتها الا قليل من الافذاذ . تلك الثمرات التي ظلت تتجه نحو النضج ببطء خلال سنوات عديدة .

في الاول من شهر يوليه سنة ١٨٥٨ قرىء امام جماعة لينيوس Lennaean Society خطبتان . الاولى لشارلس داروين والثانية لالفرد روسيل ولاس ، و بقراءة هاتين الخطبتين . ولدت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي . وبهما فتحت ثغرة واسعة في حصن اللاهوت الآخذ بمذهب ثبات الانواع على صورها الحالية منذ بدء الخليقة .

أما تاريخ هذه المدونات العلمية فان أهل العصر الحديث يحفظونها عن ظهر قلب . فكيف أن شارلس داروين كان قد ألحق بجامعة كمبردج ليخرج في سلك الكهنوت الانغليكانى ، ثم تركها ليلتحق فى سنة ١٨٣١ يبحث حول الارض فوق ظهر « البيجل » وكيف انه ظل سنوات خمس مكبا على الدرس والتحصيل منقبا فى أدق مشاكل علم الحياة و مستعصياته كما ظهرت له آثارها فوق الارض وفى البحار ؛ بين البراكين والجزائر المرجانية ، فى الغابات ومن فوق الرمال ؛ وفي الاقطار الاستوائية الى البقاع المتجمدة ؛ وكيف انه في جزر رأس فيردو الغلاباغوس و فى البرازيل و باتاغونيا و استراليا، استطاع أن يسائل الطبيعة وان يستدر وحى أسرارها بقوة في الفكر واستعماق فى النظر لم يبزه فيهما عالم من قبل ، وكيف انه عاد الى انجلترا غير معروف ولا مذكور بلسان ، بل عكف هادئا وادعا مكباً على عمله ، ثم سرعان ما وجه أنظار العالم كله الى التفكير فى أمر مباحثه التى بثها فى كتبه مثل كتاب جزائر المرجان Coral Reifs ومقالته فى الحيوانات السلكية الارجل Cirripedes وكيف انه في النهاية عرض مخطوطته التى حاول فيها أن يكشف عن سر الاسرار فى أصل الانواع ، وكيف اتبع ذلك بمقالات عديدة رفعته الى مصاف كبار الرواد فى تاريخ الفكر الانسانى . كل هذه الحقائق ذائع أمرها مذكورة غير منسية من طلاب العلم وأهل التاريخ .

ولقد أخذ عالم العلم يحقق شيئاً فشيئا القوى الخلقية العظيمة التى أظهرها داروين فى كل دور من أدوار حياته . فموهبة القدرة على الصمت والسكون، وتلك القوة العظمى التى أظهرها فى الاحتفاظ بفكرته الكبيرة ـ فكرة النشو بالانتخاب الطبيعى ــ مستعرضا إياها في جو من الدرس الهادىء العميق والتأمل الواسع المستفيض ، خلال حقبــــة من الزمان لا يقل مداها عن العشرين عاما على وجه التقريب ، فلم يشر اليها باشارة ولم يبشر بها للعالم و لو

تلميحا ، بل جال في كل مجال من العلم ليستجمع الادلة والبراهين ، إما لها أو عليها ، وليحصل على أكبر مجموعة فى المادة العلمية التى تمكنه من حل المشكلات التى عرضت له . عامة ذا حقق لدى العلماء ما كانه لداروين من قوة الخلق وصلابة الاعصاب .

ولم يفش فكرته تلك الا لرجل واحد، اذباح بها للدكتور «يوسف هوكر» Joseph Hooker فقدقدم له سراً فى سنة ١٨٤٤ ملخصا بالنتائج التى وصل اليها. ومضى على ذلك اربعة عشر عاماً حتى سنحت الفرصة التى اوحت اليه بأن زمان الافصاح عن فكرته قد آن ، وذلك بعد أن وصل خطاب من الفرد روسيل وولاس Alfred Russell Wallace وكان قد وصل بعد ابحاث مبتكرة مستفيضة خلال عقد كامل من الزمان — ١٨٤٨ الى ١٨٥٨ — قضاه متنقلا بين بلاد البرازيل وارخبيل الملايو . الى نفس الفكرة فى النشوء بالانتخاب الطبيعى . ومن بين البراهين الناصعة على أن الدرس العلمى لن يضر بشىء فى مختلف صور العواطف الانسانية ، تلك القصة العجيبة التى يرويها تاريخ العلم عن ذلك الخطاب الذى أرسل به « وولاس » لانجلترا . فقد أرسل « وولاس » مع هذا الخطاب مذكرة « لداروين » وسأله انه يعرضها على جمعية لينيوس العلمية . فلما استوعبها « داروين » وجد أن « وولاس » قد وصل مستقلا عنه الى نتائج تقرب من النتائج التى وصل اليها . ومعنى هذا انه كاد يحرمه من كل صيت على ظل يعمل له عشرين عاما طوالا . غير ان داروين كان وفيا لصديقه كما ظل صديقه وفيا له فيما بعد وعلى طول الايام . فلم يتردد فى أن ينشر مذكرة « وولاس » مشفوعة بالنتائج التى وصل اليها . وكان تاريخ نشر هذه الوثائق — أول يوليه سنة ١٨٥٨ — فاصلا بين عصرين تاريخيين . لا فى العلم الطبيعى وحده ؛ بل فى الفكر الانسانى برمته

فى السنة التالية — ١٨٥٩ — صدر الجزء الأول من مؤلفاته النشوئية

كاملا ، إذا أصدر كتابه « أصل الأنواع » -The Origin of Species- وفى هذا الكتاب استطاع داروين أن يكشف على الأقل عن سر واحد من أسرار النظام النشوئى الذى كلت دون الافصاح عنه جهود الباحثين والفلاسفة منذ عصر ارسطوطاليس . فان مؤثر النشوء الميكانيكى قد أفصح عنه خلال هذا الكتاب بثلاث حقائق دائمة التأثير فى طبائع الكائنات الحية . فى التناحر على البقاء بين العضويات . وفي بقاء الأصلح . وفى الوراثه . ولقد استعرضت هذه الحقائق في قالب دقيق من البحث والتنقيب زكته قوة الملاحظة والصبر والامانة وصحة الحكم والقدرة على التمييز ، فلم يمض على نشرها عهد قصير حتى استلفتت أنظار العالم كله . وحسبك أنها نتيجة عمل ظل متواصلا ثلاثين عاما طوالا . وثمرة لتفكير نابغة من النوابغ الذين قلما يجود الدهر بأمثالهم . كلا بل كان أكثر من هذا . كان نتاجا لجهد رجل نابغة آخر عاش منذ خمسين سنة مضين قبل ظهور « أصل الانواع » هو «توماس روبرت ملتوس » . فان كتابه فى « مبادىء الاحصاء وزيادة عدد السكان » الذى بناه على قاعدة أن الحيوانات انما تتزايد بنسبة رياضية ، وانها إذا لم يقف سبيل زيادتها عامل من العوامل ، فانها تسد فضاء الارض بما وسع ، كان قد نسى وترك أمره ، بل كان يشار اليه بهزة كتف أوابتسامة سخرية . غير أن نبوغ « داروين » قد استخلص منه معنى أعمق وفكرة أنق ، وبجهده اشتركت فكرة « ملتوس » فى دفع التيار بأقصى ما جرى تيار من الفكر فى كل العصور . فان « داروين » لما أخذ يتأمل فى نظرية « ملتوس » ليطبقها على ملاحظاته ومشاهداته الطبيعية مع ما رأي من خصب الطبيعة فى انتاج الاحياء ؛ استطاع أن يصل إلى نظريته فى الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح

لما أن تصدع السد المذهبي الكبير الذى كان قائما بين وجهتى النظر القديمة والحديثة تلقاء أصل الكون ونظامه . مد فيضان الفكر وعلا فوق شواطىء الدنيا برمتها ، فأحيا كثيراً من النباتات في كل حقل من حقول الفكر

والاستنتاج العقلي. لهذا توالت طبعات الكتاب، وترجم حتى إلى اليابانية (١) حتى لقد لاحظ العالم أن تبحر الفكر العلمي الذي نعاه المؤلف الكبير «بوكل» Buckle ـ منذ سنوات. قد اختفى متنحياً من الميدان ليحل محله نشاط فكرى قبل أن أثمرت صورة من صور النشاط التي انتابت الفكر الانساني بمثل ما أ ر في كل العصور. فان مجموعات من الحقائق العلمية التي استجمعت على مر الزمان، وظن من قبل بأنها عقيمة ولا فائدة منها، قد أحييت وانتعشت بل ان حقائق ثابتة لم يعرف لها العلماء معنى أو فائدة، قد فسرت وعرفت معانيها الصحيحة من معجم الطبيعة. وتحت هذا التأثير الجديد. هب فيلق كامل من شباب المتعلمين واحتل كل منهم ناحية من نواحي البحث الطبيعي وافقت مشربه ولاءمت هواه. وظهرت على إثر ذلك الكتب المبتكرة الناضجة، دبجتها أقلام رجال من مختلف الامم. وحسبك أن تعرف ان مؤلفيها كانوا من أمثال سبنسر و ولاس وهكسلي وغالتون وتندول وتيلور ولابوك وبيجهوت ولوويس في انجلترا. وفئة من أكبر كتاب المانيا وايطاليا وفرنسا وأمريكا فانهم جميعا قد أصبحوا بمؤلفاتهم التي أخرجوها من كبار النقاد في كل فرع من فروع علم الحياة. على أن فئة من شيوخ علماء فرنسا قد ظلوا مستمسكين بالفكرة القديمة متأثرين بما كان لكوفييه من سلطة و نفوذ. غير ان هذا لم يعق شباب فرنسا عن أن يقتحم افراده السبيل الى عالم النور والعرفان.

إن مصدرا واحدا من مصادر المعارضة لا يجب علينا اهمال أمره هنا ـ

(١) اظهرت الجزء الاول من الكتاب مطبوعا في العربية سنة ١٩١٩ وكنت قد اخذت في طبعه في اواخر سنة ١٩١٨ ونفذت طبعة الجزء الاول قبل ان اتمكن من طبع بقية الاجزاء فاخذت في طبعه طبعة كاملة ظهر منها حتى الآن جزآن والثالث يظهر قريبا ويليه الرابع والخامس.

ذلك لان هذا المصدر مثله لويس اغاسيز — Louis Agassiz

كان أغاسيز من كبار الباحثين . ومعلم أوحى اليه بالعلم وأوحاه ، وكان فوق ذلك رجلا نبيل النفس عالى الهمة ؛ تلقى نظرية فى الخلق العضوى وأخذ يلقيها ويلقنها ، فلم يكن فى مستطاعه أن يتبدل منها بنظرية أخرى طواعية وبين عشية وضحاها . وظلل عقله وقلبه جو تلك الابرشية السويسرية التى ولد فيها، وكانت ميوله الدينية وآدابه على ما كان فيهما من جمال وروعة ، قد جرحتها ونالت من عزتها شطحات بعض المتحمسين لنظرية النشوء ممن لا اختصاص لهم بها ، اذ كانوا يجهرون باشياء كانت بطبيعتها ضد الدين ، كما حملت بزورا من الفكر ظهرت لاول وهلة كأنها على نقيض شريعة الآداب . أضف الى ذلك الاتجاه العقلى الذي ورثه عن « كوفييه » فان هذين التأثيرين معاً قد اتحدا وتعاونا ليكونا سببا فى أن يرفض « أغاسيز » الفكرة الجديدة فى النشوء .

وكان « أغاسيز » ثالث ثلاثه من العظماء الذين أقاموا السد في وجه نظرية النشوء وأحكموا بناءه بعد أن اقاموا من دعائمه . كان أولهم « لينيوس » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وثانيهم « كوفييه » فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، كما احتل « أغاسيز » مركز سلفيه فى النصف الاخير من ذلك القرن . على أن كلا من هؤلاء لايزال يذكر حتى الآن ولقب العظمة والنبوغ يتبع اسمه اينما يذكر . غير أنهم لم يستطيعوا مع ذلك أن يصدوا التيار أو يحولوا مجراه . فان الجهود التى بذلها « أغاسيز » في امريكا على عظمتها والجهود التى بذلها فى أوروبا نفسها ، كانت لدى الواقع سبباً فى الترويج لمذهب النشوء . فمن دار العاديات الطبيعية التى انشأها فى كمبردج ومن مدرسته التى أسسها فى « بنكيز » — Penikese — ومن قاعة محاضراته في جامعة « هارفارد » وجامعة « كورنل » كان يخرج تلاميذه وانصاره وقد افعم قلوبهم الحب والاعجاب باستاذهم الكبير ، وملئوا حماسة للعلم يحرك أصولها فى انفسهم نحو الميادين

التى يريد لهم أن يرتادوها . غير أن قواهم التى عمل « أغاسيز » على تنبيهها وتعزيزها ، قد انصرفت كلها الى تزكية الحقيقة التى عجز هو عن الاعتراف بها والترويج لها بكل طريق مستطاع . فان شايلر ومرفيل و باكارد و هارت وويلدر وجوردان ولفيف غيرهم وعلى الاخص ابنه الذى تشرف بان يحمل اسمه ، قد انصفوه كل انصاف ومجدوا ذكراه كل تمجيد ، بان استخدموا كل ماتلقوا عنه من علم ، الى البحث مؤتمين بالوحى الجديد الذى هبطت عليهم به نظرية النشوء الحديثة .

على أنه لايجدر بنا أن نهمل ذكر رجل آخر نتصف اذ نخصه بالتبجيل والاحترام ، هو «ادوارد لفنستون يومانز» Edward Livingstone Youmans فانه على الارجح أول باحث فى أمريكا أدرك ما للحقائق الجديدة التى بشربها داورين و زميلاه وولاس وسبنسر من خطر وكبير أثر . ولقد اعتنق هذه الحقائق ، مضحيا فى سبيلها كل أمل له فى نهجه الذي كان بدأه كمحاضر؛ مستهديا بهدى هؤلاء الزعماء الثلاثة رافعا رايتهم ، مكبا على الكتابة و النشر ، معلنا عن الحقائق الجديدة ، مدافعا عنها بكل ما استطاع من قوة .

و لقد أيدت المذهب الجديد طائفة كبيرة من الحقائق الثابتة ، كان أكبرها شأنا ما كشف « لداروين عنه فى تلقيح بعض أنواع النباتات وماستمد من مبادىء علم الامبريولوجيا — تكوين الاجنة ـ وتبع هذه مجموعة الاستكشافات التى وصل اليها وولاس و باتسن وهكسلى ومارش وكوب وليدى وهيكل ودوللو وجودرى وغيرهم من النابهين فى أقطار الارض .

٤ — جهد اللاهوت الأخير

مهاجمة دراوين ونظريته فى انجلترا — فى امريكا — تكوين جماعة علمية كنسية لمحاربة نظرية النشوء — الهجوم فى فرنسا — فى المانيا — اعتناق « ليل » لمذهب النشوء — مهاجمة كتاب داروين « نشوء الانسان » — الفرق بين هذا الهجوم والهجوم الأول — معاداة المذهب الداروينى فى امريكا — تغيير فى لهجة العداء — محاولات فى سبيل التوفيق — تضاؤل العداء لفكرة النشوء — آخر الانفجارات اللاهوتية — انتصار فكرة النشوء الأخير .

كان مثل كتاب « داروين » — اصل الانواع — أزاء عالم اللاهوت، كمثل محراث صادف قرية من قرى النحل في أرض مرملة . فكنت ترى فى كل مكان اولئك الذين صحوا من نومهم الهادىء العميق قد تماسوا جماعات أخذها الغضب و فعل بها الاضطراب . فالمجلات و المواعظ الدينية و الكتب كبيرة وصغيرة : أخذت تهال على المفكر الجديد من كل جانب انهيالا و تترامى عليه تراميا .

أما رحى اللاهوت فقد حملها نوا ومن غير توان مستر « ويلبر فورس » اسقف أوكسفورد وظهر بها على صفحات مجلة الكوارتارلى . فقد أعلن أن « داروين » قد أجرم أشنع جرم بان « حاول أن يحدد مجد الله فى فعل الخلق » وأن « مبدأ الانتخاب الطبيعى لا يتفق بحال من الاحوال مع كلمة الله » . وانه « يناقض العلاقات المنزلة التى ربطت بين الخلق وخالقه » . وان هذه النظرية « لا تتفق وما يقتضيه كمال المجد الآلهى » وأنها نظرية فى الطبيعة تحقر القائل بها » — وأن هنالك تعليل أبسط وأكثر بداهة يمكن أن يعلل به وجود تلك الصور العضوية الغريبة القائمة بين أعمال الله » — أما ذلك التعليل فينحصر « فى هبوط آدم » . ولم تقف جهود الاسقف الكبير عند هذا الحد . ففي

اجتماع الجمعية البريطانية لتقدم العلوم زج الاسقف بنفسه فى ذلك التيار الشديد. ولما أشار إلى آراء « داروين » وكان غائباً عن الاجتماع لمرضه ، حمد لنفسه في خطبة القاها أنه ليس منحدراً من القردة ، فرد عليه هكسلى المعروف بقوله « لو خيرت لفضلت أن أكون من نسل قرد دنىء النسب ، على أن يكون أبى رجلا من البشر يستخدم معلوماته ومعارفه وقوته الخطابيه ، فى تحقير اولئك الذين يفنون أعمارهم الطيبة فى سبيل البحث عن الحقيقة . »

ولقد دوت هذه القذيفة فى أنحاء انجلترا دويا تناقلته عنها أجواء البلاد الأخرى .

على أن أقوال « ولبرفورس » وكان معدودا من أنبه رعاة الكنيسة الانغليكانية ، قد تلقتها الكنيسة الكاثوليكية الانجليزية وجاوبت عليها بصوت آخر . ففي خطاب القاه الكردينال « مانتج » Manning أمام أعضاء « الاكاديميا » Acodemia وكانت قد تكونت لمحاربة ما يدعى العلم Science هوجم المذهب الطبيعى الجديد ورمى بالتجديف ووصف بأنه « فلسفة وحشيه إذ تقضى عقلا بان لا آله ، وأن القرد هو أبونا آدم » .

ان هذه الهجمات التى قامت بها مصادر اشتهرت فى عالم اللاهوت ونبه صيتها فى جو الكنيسة قد صبغت الفكر الكهنوتى بصبغة ما بضع سنين . فقد ذهب كاتب كهنوتى معروف على الرغم من السنوات الثلاثين التى أنفقها « داروين » فى عمله الهادىء المستمر ، وعلى الرغم من تلخيص أصل الانواع تلخيصاً بلغ منتهى القوة والمتانة ، إلى القول فى إحدى مجادلاته ـ لكان أجدر بداروين أن يكون أكثر تنهى بأن يزودونا ببعض الاسباب الاوليه التى تحملنا على نبذ المذهب الذى يعتنقه الجميع » . ولديك لاهوتى آخر مشهور وكان نائباً لرئيس معهد أسس لمحاربة العلوم « المضرة أو « الخطرة » . قد أعلن بأن مذهب داروين « محاولة يقصد بها انزال الله عن عرشه » . وذكر ناقد آخر أولئك الذين تقبلوا مذهب داروين وآمنوا بصحته بأنهم كمثل الذين وقعوا تحت تأثير وحى جنونى

أوحى اليهم به من استئشم غازاً وبائياً كريهاً ، كما قال فى براهين داروين أنها « غابة ملتفة من فروض خيالية » وتكلم آخر فى مذهب داروين بانه يفرض أن الله « قدمات » ، وأعلن أن مؤلفات دارين إنما ـ تفتح باب الاضطراب فى كل شىء من الاشياء التى أظهرها لنا الله فى كتبه المقدسة عن وسائلها ونتائجها في عمله. وقال ثقة آخر من رجال اللاهوت بأنه إذا كان مذهب داروين صحيحاً ، إذن فسفر التكوين كذب ؛ وبه ينهدم ذلك الهيكل العظيم الذى نستقرىء آياته فى كتاب الحياة ويتحطم تحطيما ، ويصبح وحى الله للانسان ، كما نعرفه نحن أبناء النصرانية ، عبارة عن سخرية وخيال » . وقال آخر عن أظهر صفات فذة أهلت به لان يكون من مستقرئى أسرار الطبيعة . بأن المذهب الداروينى « دعوى باطلة من أولها . . .

ومن جو أمريكا ترددت الاصداء . فقد قالت مجلة من أكثر مجلات الفئات الدينية انتشاراً فى امريكا — أن داروين « يحاول إن يزيد الاشكال ظلاماً على ظلامه » . ورفضت أخرى فكرات داروين باعتبار أنها « خيانة » وعدم « أمانة » . وأعلنت المجلة التى تمثل فرع الكنيسة الانغليكانية بعد أن أوسعت « داروين تسفيها وتحقيراً أن مذهبه — « سفسطة وبعد عن المنطق » . ومن ثم دلفت بقدمها فى مناقشة خطرة قالت فيها ـ إذا صحت هذه النظرية الفرضية فهل تكون الاناجيل خيال لايمكن تصديقه ؟ وهل ظل النصاري أكثر من الفى سنة غارقين في لجات يم عميق من الكذب الفاضح؟ إن داروين يدنا أن نكذب كلمة الخالق الاولى » . وحاولت جريدة أخرى تابعة لنفس هذا الفرع من أفرع الكنيسة أن تثبت أن نظريه النشوء مناقضة للنصوص الصريحة التى أعلنت فى العهد الجديد ، كما أنها تناقض نصوص العهد القديم : ثم قالت : إذا كنا جميعا أناسى وفرودا :أصدافا وبزاة . قد نشأنا من جرثومة أصلية واحدة فهل يمكن أن يكون تصريح القديس بولس اعظم من أن

الاجسام مختلفة وأن أجسام الآدميين نوع غير أجسام البهائم والوحوش وهذين غير أجسام الاسماك والطيور؛ غير صحيح ؟

وارتفع صدى آخر من اوستراليا، حيث نشر الدكتور «برى» Dr. Perry كبير اساقفة ملبورن كتابا هو أشد الكتب مضاضة وأكثرها مرارة عنوانه «العلم والانجيل» اعلن فيه أن الغرض الاول الذي يرمى له شامبرس و داروين وهكسلى - هو أن يزرعوا فى قرائهم بزرة انكار الانجيل وعدم الاعتراف به»

وهل يمكن أن تظل فروع الكنيسة القديمة من خلف هذه الجلبة ساكنة هادئة ؟ كلا. فقد صرح «بيمان» Bayman فى مجلة - «عالم الكثلكة» قائلا «لنا الحق فى أن نعتقد أن داروين ليس الا بوقا ينطق عن تلك الفئة الكافرة الجدفة التى ليس لها من غرض أن إلا تذهب بكل فكرة فى حقيقة وجود الله»

ومن الاشياء التى لايجب علينا أن نهمل الاشارة اليها لخطورتها فى اظهار مقدار مابيت عليه الجانب اللاهوتى فى ذلك العهد كان تأسيس معاهد العلم القدسى التى هيئت لمحاربة الفكرات الجديدة. ومن أولى هذه المؤسسات «الاكاديميا» Acodemia التى وضع تصميمها الكردينال «ويزمان» Wiseman فقد نشر الكردينال رسالة دورية، وكان فى العادة رصينا عادلا، أنذر فيها الناس وختمها بقوله - «والآن يكون من واجب الكنيسة التى تملك وحدها دون غيرها الحقيقة القدسية، أن ترأس بلاتردد ولاموانة حركة فعلية تتادم بها ماتهدد بقايا اجزاء المعتقد النصرانى فى انجلترا». ولقد حصل على الاذن اللازم من «روما»، وأسست الأكاديميا وظهر «الحصافة القدسية» التى خصت بها الكنيسة فى أقوال صدرت عنها، كتلك الأقوال التى قذف بها الكردينال «مانتج» Manning - والتى يود كل كاثوليكى مفكر أن نعدها الى ذكراه، وفى مماحكات الدكتور «لينج»

Dr. Laing وكلها أقوال لم تثر الا ابتسامات السخرية والازدراء. ولقد ظهرت في النواحي البروتستانية جهوداً مشابهة لهذه. فقد تأسس « معهد فكتوريا » ـ The Victoria Institute ولا يبعد أن يكون أهم عمل صدر عنه هو ذلك النداء الذي أذاعه نائب رئيسه المحترم « وولتر متشل » Rev. Walter Mitchell وفيه قال ـ « إن المذهب الداروينى يحاول أن يخلع الله عن عرشه ».

أما في فرنسا فان الحملة كانت على الارجح اشد وأقسى. فقد أخرج فابر دنفيو « Fabre d'envieu مدافع اللاهوت الفخمة من ثكناتها القديمة، وفي سلسلة طويلة من الفروض المستفعضة قضى بأن كل نظرية غير نظرية ثبات الانواع وعدم تغايرها، إنما تناقض نص الكتب المقدسة مناقضة تامة صريحة. أما « ديسبورج » وكان من قبل استاذاً للاهوت قد دمغ داروين بطابع فقال إنه « مدع » ونعت نظرية النشوء بانها « مثللة معتمة ». أما المونسنيور سيغور Segur فلما أشار الى « دارويين » وأتباعه فقد أخذته الهستيريا فقال، إن هذه المذاهب المرذولة لا يؤيدها الا احط النزعات وأسفل المشاعر. فابوها الكبر وأمها قذارة النفس، وهاذان لا يلدان الا التورات. مذاهب ماخرجت الا من جهنم ولن تعود الا اليها، ومعها تلك المخلوقات الغليظة التي لا تعلوها حمرة الخجل عندما تعلن تلك المذاهب وتدافع عنها ».

أما فى المانيا فان الحملة ان كانت أقل اسفافا، فانها لم تكن أقل شدة. فقد تكاتف اللاهوتيون من كاثوليك وبروتستانت وعملوا معاً. فاعلن الدكتور « ميخيليس » Dr. Michelis ان نظرية داروين « صورة كاريكاتورية للخلق » وأكد دكتور « هاجرمان » Dr. Hagermann أنها « نفت الخالق وطردته خارج الابواب » وصمم دكتور « شند » Dr. Schund على القول بان « كل فكرة فى الكتب المقدسة، من أول صفحة الى آخر صفحة فيها، تناقض نظرية

دار وين » على خط مستقيم » . وأنه ـ اذا كان « داروين » محقاً في قوله بنشوء الانسان من صورة حيوانية منحطة ، فلاشك فى ان تعاليم الانجيل فى خلق الانسان تتبدد وتذهب سدى » . ودعا « روجمون » Rougemont في سويسرا الى القيام بحرب صليبية تعلن ضد هذا المذهب الخاطىء المفسد » أما « لوتاردت » Luthardt استاذ اللاهوت فى ليبزج فقد أعلن « بان فكرة الخلق ملك للدين لا للعلم الطبيعي . وان كل الهيكل الاعلى للدين الذاتى انما يقوم على مذهب الخلق » . ثم أظهرمن بعد ذلك أن نظرية النشوء تناقض الحكمة القدسية مناقضه تامة .

غير أنه حدث فى سنة ١٨٦٣ ما أوقع الاضطراب فىمعسكر اللاهوتيين. فان سير « شارلزليل » Lyell أشهرجيولوجي عصره غيرمنازع ، وكان رجلا ذا ميول ومشاعر دينيه رسيسة ؛ على ماامتاز به من خلق الحذر والحيطة وعلى ماعارض به نظرية « لامارك » النشوئية ، وعلى ما أعلن عنه من انتمائه عليا إلى نظرية الخلق المتعاقب . قد أصدر إذ ذاك كتابة « قدم الانسان » Antiquity of Man فاظهرفيه وفى غيره من الكتابات أنه من أنصار « داروين» المؤيدين لنظريته المتابعين لمذهبه ، مكرها لامختاراً . وكانت هذه الضربة قاسية فى كثير من النواحى ؛ وعلى الاخص فى ناحيتين : الاولى : فى أنها نقضت فى الحقيقة كل أساس كانت تقوم عليه التأريخات القدسية . والثانية . في أنها انقصت الثقة بنظرية الخلق . بل كانت ضربة غير منتظرة ولا محسوب حسابها . في كثيرمن المطالعات التى تناول بها اللاهوتيون نظرية « داروين » فزع الى « ليل » وبعض الاحايين فى أسلوب يدعو الى الاشفاق ، بأن لايرجع عن الحقائق التى أعلن عن اقتناعه بها من قبل » . غير أن « ليل » قد سمت به أمانته الى حيث أذعن بغير تحفظ الى مجموعة البراهين الجديدة التى أيدت نظرية النشوء ضد نظرية الخلق

وفى الوقت ذاته صدر كتاب هكسلى « مركز الانسان فى الطبيعة ». Man's Place ıu Nature فاورد فيه كثير من البراهين الثابتة القوية التى تؤيد نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى.

وفى سنة ١٨٧١ نشر كتاب داروين « تسلسل الانسان »

أما المذهب الذي ذهب اليه داروين فى كتابه هذا فقد سبقه به غيره من النقاد الذين تناولوا كتبه الاولى ، غير أنه فضلا عن هذا قد أحدث صدوره رجة عظمى ، تجمعت على أثرها فلول الجيش المعارض . ولكنه لم يتزود بمثل ماتزود به من حرارة فيما مضى . على أن البعض كان قاسياً . فان « مجلة جامعة دبلين» The Dublın Unıversıty Magazıne متبعة الطريقة القديمة، قد اتهمت « داروين » بانه يبحث كيف يخلع الله عن عرشه بفعل مستمد من سورة الاوهام » وأنه يحاول أن يقتنص الله خارج العالم . غير أن أخطر . ماجاء عن الكنيسه القديمة كان مارد به على داروين الحكيم الكاثوليكى المعروف دكتور « قسطنطين جيمس» Dr. Constantın James الفرنسوي في كتابه « الداروينزم أو الانسان القردى » الذى نشر في باريس سنة ١٨٧٧ لم يسفه دكتور قسطنطين العلامة « داروين » علمياً، بل قذف كتابه بكل أنواع الاحتقار ناعتاً اياه بانه« اسطورة » وظن مقتنعا بان كتابا كهذا بلغ ذلك المبلغ من «الخيالية والانحطاط ، لايمكن أن يكون أكثر من أضحوكة كبرى مثل كتاب اراسموس المسمى « مدح الجنون » أو كتاب « مونتسكيو » المسمى « خطابات فارسية » .

ولقد اغتبط أمراء الكنيسة . فقد أكد الكردينال اسقف باريس المؤلف بان الكتاب اضحى « مقرأته الروحانية » ورجاه أن يرسل نسخة من الكتاب للبابا نفسه . ولقد رد قداسة البابا بيوس التاسع بخطاب منمق على المؤلف مادحا الهدية بل وشكر لابنه المحبوب« أى المؤلف » كتابه الذى نقض فيه مبادئ الزيغ « الداروينى » ولقد أضاف قداسته الى ذلك قوله — « إن مذهبا يناقض التاريخ

من ناحية ،وتقاليد كل الامم والعلم الصحيح والحقائق المرئية ، بل والعقل نفسه من أخرى لايكون محتاجا الى نقض أو رفض، لولا أن الجنوح الى الخروج على الله والنزعة الى المادية ، التى لاسبب لها إلا الجهل، تمت دائما الى هذا النسيج الخرافى محاولة أن تستمد منه عونا . . . على أن الخيلاء بعد أن رفضت الاعتقاد بالله موجد كل الاشياء ، وبعد أن أعلنت على الملأ أن الانسان مستقل ، مهيبة به فى أن يكون هو بذاته سيد ذاته ، وأنه يكون هو بذاته قسيس نفسه ، وأن يكون هو بذاته إله ذاته — إن الخيلاء بعد كل هذا قد خطت خطوات أخرى حتى بلغت حدا عنده جردت فيه الانسان وأنزلته منزلة السوائم غير العاقلة، بل ربما نزلت به الى درك المادة المبتة ، وبدلك حققت ، على غير وعى منها ؛ القول القدسى « حيثما تكون الخيلاء تكون الوقاحة » غير أن فساد هذا العصر ومحاولات الفسقة وطرائقهم ، وخطر الغفلة البسطاء، كل هذه الاشياء تتطلب أن تنقض أمثال هده الاوهام ، ولو أنها مضادة للعقل ، بالعلم الصحيح ، مادامت هى تتقنع بقناع العلم ، ، وبعد ذلك شكر البابا دكتور جيمس على كتابه قائلا -« إن الحاجة اليه كانت شديدة . وأنه من امس الاشياء لحاجات عصرنا هذا » ثم منحه من بعد ذلك البركة الرسولية . غير أن الامر لم ينته عند هذه « البراءة» فقد صحبتها أخرى إذ منح المؤلف رتبة من سيامه القديس « سلفستر » البابوية. أما الكردينال أسقف باريس فقد أكد للمؤلف بان أحداً غيره لم يفز بمثل هذا العطف البابوي ، واقترح عليه أن ينظر فى طبعة أخرى نظرة أعمق فى — « العلاقة الكائنة بين قصص سفر التكوين ومستكشفات العلم الحديث ، على طريقة يمكن بها اقناع أشد الناس إنكارا بان لاتناقض بينهما » وكذلك لم يقف المؤلف عند هذا الحد بل تطلع الى ماهو أعلا . فان تجاريب الطبعة الثانية عرضت كلها على فخامة الكردينال ، ثم ظهر الكتاب فى سنة ١٨٨٢ تحت عنوان « موسى وداروين : رجل التكوين مقارنا بالرجل القردى - أو التربية

الدينية أزاء التربية الالحادية . ولا عجب بعد ذلك اذا عانق الكردينال المؤلف شاكراً اياه باسم العلم والدين معا ، قائلا — « لقد حصلنا أخيرا على كتيب نستطيع أن نضعه بين أيدي الشبان آمنين »

وفى الغالب أن حماة البروتستانتية من المحافظين لم يكونوا أقل حماسة وتطرفا. فقد جاء فى خطاب القاه مستر غلادستون في ليفربول ما يلي : — على القواعد التى يبثها المذهب المسمى بمذهب النشوء ، يتخلص الله من كل متاعب الخلق ؛ و باسم القوانين الطبيعية الثابتة أخرج من يده حكم الدنيا . و لما نبهه مستر « هربرت سبنسر » الى حقيقة أن «نيوتن» بنظريته فى الجاذبية و مبادئه فى علم الفلك الطبيعى معرض لنفس هذه التهمة ، تراجع مستر غلادستون فى مجلة « الكونتمبورارى» مختفيا وراء سحب كثيفة من الكلمات كما هى عادته فى المناقشات . أما المحترم دكتور « كولز » فى « المجلة الانجيلية لانجلترا و الخارج » فقد أعلن أن « آله» النشوء ليس هو بنفسه « آله» النصرانية . كذلك كانت خطبة . مستر «برجون» Burgon اسقف شيستر فى موعظة ألقاها في جامعة اكسفورد . فقد حذر الطلاب فى استعطاف قائلا — « ان الذين يحاولون رفض الاعتقاد بصحة تاريخ خلق أبوينا الأولين . كما هو منصوص عليه حرفياً فى الكتب المقدسة ، ليستبدلوا بها خيال النشوء الموهوم سائما هم فى ضلال . » و لقد اقتحم دكتور «بيوزى» Puoey المعركة مهيباً بالناس فى جدو أمانة أن يرفضوا الاخذ بالمذهب الجديد ، وكذلك المحترم « جافن كارليل» — Gav.n Carlyle ، فانه تبع نفس السبيل وانضم الى ذات الحزب . وطبعت جماعة تقدم المعرفة النصرانية — Socıety ıor Promotıng Chıistıan knowledge — كتابا الفه المحترم مستر « بركس » — Bırks — أعلن فيه أن مذهب التطور » مضاد أولا وآخراً للمعتقد الاساسى فى الخلق » . أما « اللندن تيمس» فقد ذكرت فى مراجعة نشرتها عن كتاب تسلسل الانسان أنه — « عبارة عن نظرية وهمية — مملوءة » بقضايا لا أساس لها وأبحاث

لعينة و تأملات لاتحدث الا التسكك فى ألفة العقل » وان داروين نفسه ليس الا رجلا « كافراً جاهلا بالعلوم » .

ولكن لوحظ أن سلسلة الهجمات الثانية التى وجهت الى كتاب « تسلسل الانسان » قداختلفت فى اعتبار واحد ذى خطر ـ وذلك بقدر مايهم انجلترا ـ من تلك الهجمات التى وجهت من قبل الى كتاب « أصل الانواع » . فبينما كانت كل المساعى التى بذلت قدوجهت الى اقلال الثقة بداروين ، والى صب أنواع الاحتقار والسخرية عليه ، والى اظهاره بمظهر « المهاجم للنظرية المضطهدلها» ـ وهو بعد أكبر من كانت تقل الارض فى أيامه من رجال النبوغ والعبقرية مصروفة الى العلم . هذا بينما كان انصاره يصورون فى الاقلام بصورة المنافقين المكارين ـ بينما كان هذا مفعماً جو الجلاد الفكري ـ كنت ترى أن نصراء القديم كانوا قدتنكبوا القول بان النشوء حتى على قاعدة الانتخاب التى قال بها داروين ـ مناقض لنص التنزيل . ولقد كان انتصار «سيرليل » للنشوء سبباً فى أن يثير التساؤل بين اللاهوتيين الذين احتفظوا بشيء من التوازن العقلى في رؤوسهم قائلين : ماذا نكون لو أن مذهب داروين قد ثبتت صحته علمياً ، ؟ على أن ذكريات تلك المواقف التى وقفتها الكنيسة بعدأن ثبتت صحة المذاهب التى استكشفها كوبرنيكوس وغاليليو ، قدعادت الى اذهان الذين هم أصفى عقلا وأقوم طريقة . غيران هذا الاعتبار لم تظهر فى ألمانيا آثاره سريعاً كاظهرت فى انجلترا . فان أحد مشهورى رجال الكنيسة اللوثريين فى « مجدبرج » مثلا قد أهاب بسامعيه أن يوازنوا مخارين بين داروين والدين . أما « ديلتش » Delitzsch فقدحاول فى تعليقات حديثة كان قدوضعها على سفر التكوين ، ان يرجع بالعلم خطوات واسعة معترفا بأن خطيئة الانسان عامل من عوامل الخلق الاساسية . أما الاستاذ « هنريش إيوالد Prof. Heinrich Ewald» فبعد أن حاول التخلص من كل اصطدام يمكن أن يحصل بين التعاليم المبتذلة

و بين مذهب النشوء ؛ قد أرضى ضميره بان أنزل بداروين واتباعه كل صنوف الاحتقار والتحقير . وكذلك « كريستليب » Christlieb فانه فى خطابه الذى القاه أمام الجمعية الانجليزية فى نيويورك سنة ١٨٧٣ قد لجأ ببساطة إلى القول بأن المتجهات التى تتمشى فيها نظرية داروين إنما هى متجهات « تقود إلى الكفر » ولكنه مع هذا تحاشى أن يثير معركة انتقادية يتخذ الانجيل فيها سلاحا . أما فى هولاندا فقد قام الأب « بيش » Pesch وكتب باللاتينية ، شأن القدماء ، استعراضا عاما لنظرية النشوء — كان ولاشك مثيرا للعجب — فكان بمثابة فيلق من فرسان القرون الوسطى أدرعوا الحديد وحملوا القوس والنشاب فى ميدان حرب من طراز القرن التاسع عشر !

أما أمريكا فقد تجاوبت أنحاؤها . باصداء جديدة . على أننا نختار من بين الآلاف المؤلفة من الهجمات التى وجهت الى داروين من البروتستانت والكاثوليك على السواء ، معركتين اختص بهما رجلان من نقاد ذلك العصر. أما الاول فكان الدكتور « نوح بورتر » Noah Porter رئيس كلية « يال » وهو أحد مشهوري الباحثين وكاتب من أمهر الكتاب ورجل من أنبل الرجال، كثير التسامح يجمع فى تفكيره مزيجاً غريبا من المغالاة فى التطرف مع الامعان فى المحافظة. لذلك ترى أنه بينما اباح لمذهب النشوء فى الجامعة التى عهد اليه بها أكبر دائرة ممكنة من التسامح ،فانه شعر بان من واجبه أن يصرح مرة واحدة بعدم اعتقاده من صحته . غير أنه كان من النهى واتزان العقل حيث قال إنه لا يرى اى عداء بين هذه النظريه وبين النصوص المنزلة بل أنه قد عمد فيما كتب الى الاقتصار على الاشارة الى ان مذهب النشوء ينزع فى الصورة التى أظهرها به داروين الى اللا ادرية ووحدة الوجود . اما الذين عرفوا دكتور « بورتر » ومحضوه الحب والاحترام، وتتبعوا باهتمام طريقته المعقولة التى اتبعها فى اهمال شأن العلم وعدم اعطائه فرصة ولو محدودة ليسمع صوته بين جدران معهده ؛ فقد أخذوا من ذلك باشد العجب الممزوج بالاعجاب .

على مرمى حجر واحد من مقر الدكتور « بورتر » فى معهد « يال » تقوم دار العاديات البالنتولوجية التى رتب فيها البروفسور « مارش » جنبا الى جنب . تلك الحلقات الحفرية المتتابعة التى تثبت تطور الحصان منذ أقدم ازمان الحياة — عندما كان فى حجم الثعلب وبارجل ذات خمسة اصابع — متمشيا خلال تلك الحلقات حتى بلغ صورته التي نراه عليها اليوم شكلا وحجما - تلك الحلقات التى قال العلامة « هكسلى » بانها برهان لا ينقض على أثر الانتخاب الطبيعي كعامل أساسى فى النشوء . لهذا تجد أنه على الرغم من الاحترام والحب الصادق الذي كان لدكتور « بورتر » فى قلوب رجال جامعة « يال » ، لم يكن ينتظر أن تصبح أدلته التى جاء بها ذات أثر ثابت فى عقولهم ، ما دامت « دار الآثار الحفرية » تحتوى على مثل هذا البرهان الناصع الذى يؤيد مذهب النشوء بما لا يترك مجالا لريب أو فسحة لشك بحال من الاحوال

ولكن بجانب هذا قام عدو لدود ثابت العقيدة هو المحترم دكتور «هودج» Dr. Hodge من جامعة « برنستون Princeton فان غضبه على مذهب النشوء كان « حامياً » . فانه رفض المذهب باعتباره مذهباً « إلحاديا » ، وقال فى يقين بان النصارى لهم « الحق في أن يحتجوا على نشر مثل تلك المرجحات الغامضة الخطيرة ضد الايضاح الكامل والادلة الثابتة التى تتضمنها الكتب المقدسة . ولقد بلغ به التطرف فى الجمود الى حد أن هاجم الدوق « أرجيل »، وهو معتبر من أشد الكتاب محافظة على القديم، معلناً أن نظرية داروين فى الانتخاب الطبيعى لا تتفق «بحال من الأحوال على نص التنزيل المقدس » ـ وأن ـ « آلهاً غائباً لا عمل له فى الكون ، لا يمكن أن يكون آلهاً بحال ما » . ـ وان ـ «إنكار القصد والغاية كما صوروا فى خلق الله ، هو بمثابة انزال الله عن عرشه » ـ وان ـ « انكار الغاية والقصد على الطبيعة انكار لله بالاستتباع » ـ وأنه ـ « لا يتسنى لمن يعتقد بالقصد فى الخلق أن يكون داروينياً » .

ولقد كان في هذه الجامعة نفسها رجل أشد مراساً وأمر تعصباً ، هو المحترم دكتور « دوفيلد – Dr. Duffield – وكان من ثقاة المعلمين بها وأصحاب النفوذ بين جدرانها . فانه لم يعالِ الحرب ضد داروين وحده ، بل وجهها ضد رجال من طراز اغاسيز ولاكونت وغيرهما من الذين حاولوا التوفيق بين النظرية الجديدة وبين النصوص المقدسة ، قائلا بان « التوفيق بين مذهب النشوء وبين التنزيل فيما تختص بنشوء الانسان غير ممكن ، وان النظرية الداروينية «تعارض مواجهة تعاليم الرسل بان كل تنزيل هو من كلمات الله التي لا تتبدل » وأشار بعد ذلك فى حملته على داروين في كتاب «تسلسل الانسان » وعلى «ليل» فى كتابه «قدم الانسان» ـ ان صلة النسب الانجيلية التي تصل الاسرائيليين فى مصر بآدم وحواء بينة لا يمكن التنازع فيها » ولقد ختمت أقوال الدكتور « دوفيلد» باعلان اجدر بنا أن نشير به الى أن فى امكان أحد رجال الكهنوت فى المذهب المسيحى أن ينتحل سلطة البابا والاساقفة فى ان يعلن طرد البعض من الكنيسة دون بعض . فقد قال فى مجلة جامعة « برنستون » « إذا تسنى لمذهب النشوء أن يطبق بعد قليل على أصل الانسان — وذلك أمر غير مشكوك فيه — مع ما يتبعه من التأملات العلمية المتحجرة أو اتينها في هذا العصر · فان الذين يقبلون نتائجه المنطقية سوف يكونون في الحياة الأخري من زمرة اولئك الذين لم يعرفوا الله فى هذه الحياة ولم يطيعوا أوامر انجيله بما انزل على ابنه » .

ولكن من حسن الحظ انه فى الوقت الذي أذاع فيه داروين كتابة «تسلسل الانسان » رأس جامعة « برستون » دكتور « جيمس ماكوش » Dr. James Mcccoch ولم يكد يعتلى كرسى رآسة الجامعة حتى أذاع بانه يضاد كل تلك التعاليم الخطرة التي لا توجه خطورتها لشيء بقدر ما توجه الى النصرانية. تعاليم دكتور هودج ودكتور دوفيلد وأتباعهما . فنى إحدى خطبه المعروفة اظهر للناس سر الخطورة في هذه التعاليم . فقد أظهر بما عرف فيه من قوة الخلق

الايقوسى ، ذلك الخالق الذي اشاد به الكاتب « ثاكوري » فى أشعاره ،أن أخطر المخاطر التي تتعرض لها النصرانية في جامعة « برنستون» أن يعاد من فوق منبر الخطابة فيها وعلى مسمع فى الطلاب أسبوعاً بعد أسبوع ، قوله إن النشوء بالانتخاب الطبيعى ، أو النشوء على وجه عام ، إن ثبتت صحته ، انتفت صحة الكتب المقدسة . فقد أظهر ان هذه الطريقة هى الطريقة المثلى لغرس بذور الكفر فى قلوب الطلبة . ولهذا فانه لم يحظر مثل هذه المواعظ فقط ، بل بشر بنظرية جديدة ، اتخذت قاعدة للوعظ والارشاد . فان ابتداء عهده كان فى الحقيقة ابتداء عصر التوفيق بين الناحيتين ، وعلى الرغم مما رمى به من أنه داروينى . فانه لم يأبه لشىء من هذا وشق طريقه ثابت القدم موفق السبيل . ومهما يكن من أمر مارى العلماء فى مذهبه الفلسفي ، فان احداً لايستطيع أن ينكر أثره الثابت وخدمته العظمى التى أداها بالكف عن التبشير بتعاليم الذين سبقوه و أنصارهم ـ تلك التعاليم التى تناولت خطورتها كل ماهو أساسى فى تعاليم النصرانية .

ولم يكد يخطو دكتور « ماكوش » هذه الخطوة حتى تابعه فيها كثير من رجال الدين قانعين بان المرأ من الممكن أن يكون نصرانياً ومن أنصار داروين فى آن واحد . غير أنه على الرغم من هذا ظهر بين آن وآخر خوارج على هذا المذهب . ففي سنة ١٨٧٣ بشرت « مجلة الدين الشهرية » التى تظهر فى بوسطون ؛ قراءها بان دكتور « بر » Dr. Burr قد استطاع أن « ينقض نظرية النشوء وأنه أخمد أنفاسها ورمى بها الى الكلاب » . ولقد كرر ماذهب اليه دكتور « بر» بصورة محورة أسقف يدعى الاسقف « كينر » Bishop Keener من «مجلس الكنيسة العادية الاوكيومونى » فى واشنطن سنة ١٨٩١ . ففي إحدى خطبه التى وصفتها الجرائد بأنها خطبة ممتعة شيقة ، رفض الاعتقاد بمذهب النشوء بقوله إن على النشوئيين أن يسافروا اثنى عشرة ساعة من المكان الذي يخطب

فيه ليروا عظام الأوبوسوم والكبروليب (١) coprolite والاختيوسور معاً فى مكان واحد » . ولقد اكد أن أغاسيز ـ الذي ظن الاسقف وغيره من رجال الدين خطأ أنه نشوئى ـ عند مازار القيعان التى تتضمن هـذا النظام قال ـ «إن هذه القيعان القديمة قد هوشت رأسى . لقد هدمت بنظرة واحدة مابنيت له فى عمر كامل » . ثم انتهى الاسقف العمادي بان قال ـ « والآن ، أيها السادة ، وأيها الاخوان ! انقلوا هذه الحقائق معكم الى دوركم ، ثم تبصروا فيها . تلك هى الساعة التى كانت تحت المطرقة البخارية . تلك هى نظرية النشوء . وما المطرقة البخارية إلا رواسب قيعان آشلى » .

على أن مثل هذه المظاهرات لم تجد إلا قليلا . فانه بينما كان هذا الاسقف العمادي يعرض نفسه لابتسامات السخرية بأن جعل أغاسيز من النشوئيين والكبروليت حيوانا ـ كان رجال العلم يستجمعون في كل أنحاء العالم حقائق تؤيد نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي . ففي الوقت الذى أحاط فيه اللاهوتيون دكتور « بر » بهالة من المديح والثناء لانه « ألقى بنظرية النشوء الى الكلاب » كان الاستاذ « مارش » فى جامعة « يال » يتم سلسلة الحلقات التى تظهر صلة النسب بين الحصان وبين حيوان من ذوات الاظلاف ذى خمسة أصابع . وفى الوقت الذي كان كان فيه دكتور « تيلور » « Tayler » فى « يونيون » ودكتور هودج ودكتور دوفيلد فى برنستون كانوا دائبين على اظهار أن النشوء اذا صح انتفت النصوص المقدسة ، كان أستاذ جامعة « يال » ـ مارش ـ دائبا مجدا في إظهار آثار الصور الكريتاسية ، ومن بينهم الاسبيرورنس « Hesperornis » والاختيورنيس « Ichthyornis » ذوي الأسنان المنشارية . وبينما كان ايبارد

(١) corpolite أصلها يونانى من كلمتين korpos أي روث و (lithos) أى حجر ، ومعناها الروث المتحجر . وهو فى الحفريات اصطلاح يصرف على روث الحيوانات بعد استحجاره ومنه يستدلون على نوع الطعام الذى كان يأكله الحيوان الذى خلفه اذا كان قطعا . فاذا كان كاملا أمكن الاستدلال به على شكل المعدة الذى

وشاند وأنصارهما فى ألمانيا يقولون بأن الكتب المقدسة تتطلب اعتقادا ثابتا فى صحة الخلق الذاتى المستقل ، استكشفت آثار طير « الارخيوبتري » « Archeopteryx » – التى أظهرت بجلاء العلاقة الكائنة بين الزواحف والطيور. و بينما انصرف مسيو « سيغور » وأنصاره فى فرنسا الى حملات جدلية يوجهونها الى شخص « يدعى داروين » – كان الاستاذان جودرى وفيلهول مجدين في استكشاف عدة « حلقات مفقودة » تربط بين الحيوانات المفترسه .

أما فيما يختص بالبراهين التى كانت تستجمع لتأكيد النظرية الحديثة فى النشوء ، فان التغير فى نغمة اللاهوتيين أزاءها قد أصبح سريعا . ولقد ارتفعت الاصوات من كل صوب طالبة البحث عن طريق للتوفيق . أما المستمسكون بالنص الحرفى للأناجيل فاستمروا يلجؤون الى آيات سفر التكوين التي نصت على أن الارض والبحار انما صنعن لتخرجن طيوراً واسماكا ، وان الانسان انما خلق من تراب الثرى . على أن هنالك بعض رجال خصوا بسعة فى المدارك ونفاذ فى البصيرة أمثال « كنجسلى » Kingsley و « فرر » Farrar وغيرهما من مستنيرى رجال الكنيسة فى انجلترا وأمريكا لم يتلكؤوا فى أن يعلنوا انضمامهم الى داروين . ناهيك بأن « هيويل » (Whewell) نفسه قد حاول أن يظهر أنه ربما يكون هنالك شىء من الصحة فى البراهين الداروينية يدل على أنها كانت من مقاصد الخلق في الطبيعة . أما المحترم «صموئيل هوتون» S.Houghton عضو الجمعية الملكية ، فقد اقترح فروضا يعبر بها عما يمكن أن يكون فى الخلق من أثر القصد القدسى فى النشوء

كذلك تجد أن الكليتين الانجليزيتين قد قبلتا التعاليم الجديدة على أنها أشياء ثابتة . ففي اكسفورد وفي اجتماع رجال الكنيسة العليا فى جامعة « كيبل » أعلن فى خطاب جامع أن مذهب النشوء « خطوة إلى الأمام فى سبيل التفكير اللاهوتى » . أما تمبل « Temple » أسقف لندن ، ومن المحتمل أنه كان أكبر ثقاة المفكرين من رجال الكنيسة الانغليكانية فى عصره، فقد قبل مذهب النشوء فى هذه الكلمات : « إنه لأكثر جلالا وأليق

بقدرة الله الذى ألف سنة عنده بمثابة أمس الذي غبر ، أن يكون قد دمغ ارادته الأبدية أولا وآخراً دفعة واحدة فى جبين خلقه ، وهيأ لظهور كل ضروب التباينات الخلقية اللامتناهية بفضل ذلك الطابع الأصلى الذى دمغ به الخلق ؛ من أن يكون قد أحدث الخلق بعدة أفعال مستقلة اضطر فيما بعد أن يغير من أوصافها ويهذب من تراكيبها تتابعاً » .

أما في أيقوسيا فان الدوق « أرجيل » رئيس الحزب الأورثوذوكسى وإمامه الأوحد ، فعلى الرغم من أنه أبدى نفورا من كثير من النتائج التى وصل اليها داروين ؛ فانه سلم بكثير من الأشياء التى زعزعت المعتقد القديم وصدعت كثيرا من أركانه .

ومن أعجب العجب أن يرتفع من جانب الكنيسة الرومانية ، على الرغم مما أظهر بعض كتابها من عداء ومرارة ، صوت يحاول اثبات أن المعتقد الكاثوليكى لا يصد أى انسان عن الاعتقاد بالنظرية الداروينية ، وعلى الأخص تلك الاذاعة التى أعلنها ثقة ثبت من كاثوليكيي أمريكا — في أن « نظرية النشوء لا تعارض مذهب الكنيسة الكاثوليكية بأكثر مما يعارضه مذهب كوبرنيكوس ومذهب غاليليو » وهذا القول على الرغم مما فيه من غرابة الواقع ، لا يصح لنا أن ننزل من قدره أو نفتش عن نواحي الخطأ الكامنة فيه .

ولقد تقدم رجال ممن كان العلم ممزوجاً بالاعتبارات اللاهوتية طبعهم ، أمثال دوسون وميفارت وويجاند ، ببحوث حاولوا من جهتها النزوع على سبيل للتوفيق بين الناحيتين . غير أن التيار كان شديداً حتى أن كثيراً من مشهورى رجال اللاهوت في كل قطر من الأقطار قد قبلوا مذهب الانتخاب الطبيعي باعتباره ، على الأقل ، عامل هام في ميكانيكية النشوء .

لما مات « داروين » شعر كل الناس بأنه لا يوجد فى انجلترا من مكان يصح أن يضم جثمانه إلا مكان واحد ، وأن هذا المكان هو الموضع التالى لقبر « اسحاق نيوتن » فى كنيسة وستمنستر . أما الخطاب الذى نوه به

الأسقف « فرر » — Farrar — فقد تجاوبت بمعانية أعواد المنابر فى أوروبا وأمريكا ؛ حتى لقد اعتبر أنه آخر ضربة وجهت إلى روح العداء اللاهوتى لمذهب النشوء . على أنه قد ظهرت بين آونة وأخرى مظاهر من الشعور القديم . فان المحترم دكتور لينج — Dr. Laing — قد أشار إلى دفن « داروين » فى كنيسة وستمنستر فقال : — « إنه برهان على أن انجلترا لم تصبح بعد بلاداً نصرانية » ، وأضاف إلى ذلك أن دفنه فيها كان تدنيساً — وأن هذا الشرف لم ينله « داروين » إلا لأنه كان « الزعيم الذي قام بنشر المذهب الهزلى فى نشوء الأنواع وتسلسل الانسان عن القرد » .

هنالك ظهر نبي آخر من أولئك الأنبياء المخدوعين ، ممثلا فى شخص « توماس كارليل » . فانه بما شعر في قرارة نفسه من حقد ومرارة ، شبيهة بتلك الروح التى حملته على أن يجد فى أفاق مثال « فيكنج » ، أو فى قائد من قواد فردريك الأكبر ، من الشجاعة والشهامة أكثر مما وجد فى وشنجطون أولنكولن أوجرانت ، والتى جعلته يرى فى الحرب الامريكية الاهلية أنها عبارة عن دخان تقذف به مدخنة متهدمة ، قد هاجم « داروين » قائلا إنه — « رسول عبادة قذرة » .

أما الأصداء الاخيرة فقد تجاوبت بين أيقوسيا وأمريكا . في الاولى — وفى سنة ١٨٨٥ — ظهر المحترم دكتور « لى — Dr. Lee » معلناً بأن مذهب داروين إذا كان صحيحاً فانه — « لا يكون هنالك من مكان لله » . وأنه — « لا يمكن باى أسلوب من أساليب التفسير أن تؤول لغة الكتاب المقدس بتوسع يحتمل القول بنظرية « الاوران اوتان » فى تاريخ الانسان الطبيعى » — وأن « المذهب الدارويني يقلب وحى الله رأساً على عقب » وانه « يتضمن تجديفاً صريحاً يناقض الصفات الانسانية والآلهية المنسوبة الى الله المتجسد » . واغتبط بعد ذلك بان نعت داروين وأتباعه بانهم « مبشروا البلاليع القذرة » . ولقد ظهر فى إحدى الدوائر الفكرية الامريكية أحد محرري المجلات ، وكان محرر المجلة المسماة « النصرانى » — The Christian فقال مقتنعاً فى حرارة بان — « المعركة يجب أن يحتدم أوارها ليرى الناس الفريقين : من منهما فى جانب الله ، ومن فى جانب القردة والشاطين » .

ويجب علينا أن نثبت هنا أن للكنيسة الانجليزية الشرف الاكبر حيث قاوم عدد كبير من مشهوري رجالها مثل هذه الترهات المسفة . ويكفينا أن نذكر واحداً منهم هو «فرر» رئيس أساقفة وستمنستر ، إذ اعترض على هذه الاقوال وأمثالها في كلمات جديرة بان يكرر ذكرها على الدوام؛ ففي حين أنه اعترف بعدم قدرته على قبول المعتقد العلمي قبولا كاملا - قال - « يجب أن نعتبر أنه مما لا يليق بالكرامة ، بل مما هو مزر بالنفس ، ان نحاول جاهدين أن نهز أسس المعتقد العلمي الحديث ببراهين خطابية منقولة ، او بان نستعطف من فوق المنابر جماعات بلغوا من الجهل ابعد المبالغ واحتدمت فى صدورهم العداوة لاهل العلم الى غير حد . إننا يجب أن نخجل من أن نواجه مثل هذه الحالة بالاستهتار أو بابتسامة تحقير » .

على أن كل ضروب المقاومة لم تجد فتيلا . فان مؤلف داروين وصيته كلاهما كان بمأمن عن التصدع . ولما رجع الناس الى تاريخ حياته التي قضاها فى بساطة وأمانة وتسامح وعطف انسانى . وعاودتهم ذكريات الجهود العظيمة التى بذلها فى سبيل البحث عن الحقيقة ، تبخرت كل صنوف العداء وذهبت بدداً.

على أننا فى هذا التاريخ لا يجب أن نهمل ذكر بعض نقط سوداء تزداد سواداً على مر الازمان . ففى كلية « التثليث » فى كمبردج حظر « هيوويل » Whewell « الحكيم الكلى الحكمة » ومؤلف الكتاب الخالد « تاريخ العلوم الاستقرائية » أن توضع نسخة من كتاب « أصل الانواع » فى المكتبة . كذلك نقع فى كثير من المعاهد التى كانت تحت حكم اللاهوت من بروتستانت وكاثوليك، على محاولات أريد بها حظر التعاليم النشوئية أو تحقيرها . ولقد انتشرت هذه الروح زمانا فى امريكا . وإن حادثة الكلية الامريكية فى بيروت بسوريا والتى طردفيها كل الاساتذة الذين مثلوا العنصر الحديث بانضوائهم تحت لواء داروين ، لجديرة بان نعيد ذكراها . أما المعاملة التى لقيها الدكتور «ونشل» فى جامعة « فاندربلت» بتنيسى ، فقد ظهرت فيها مثل هذه الروح . فانه على الرغم من أكبابه على العلم وتعمقه فيه ، وعلى الرغم من أنه كان بجانب ذ

ذا مشاعر نصرانية عميقة ، فانه طرد من الجامعة لانه أبدى آراء تقوم على أساس النظرية الداروينية .

وعلى هذا كانت الحال مع دكتور « وودرو » — Woodrow — فانه حوالى سنة ١٨٥٧ عين أستاذا للعلم الطبيعى من حيث علاقته بالدين المنزل، فى المعهد المشيخى بكولومبيا فى كروليننا الجنوبية . وكان رجلا نصرانياً مخلصاً للنصرانية ، كما أن تعليمه قد قاده إلى انتحال المذهب المشيخى فى الدين. ولقد تزود بقدر كبير من المقدرة على الدرس العلمى وزار أوروبا، وأكب على دراسة المسائل الاساسية فى العلم والتى كانت موضع السجال والمناقشة فى ذلك الحين ، فاعتنق عن يقين وعقيدة المبادىء الاساسية فى النشوء على قاعدة الانتخاب الطبيعى . على أنه سرعان ما احتدم أوار معركة كبرى ، فان حركة معادية له أخذت فى الظهور والتكون ونمت شيئاً بعد شىء ، حتى أنه على الرغم من الجهود التى بذلها فى سبيله دكاترة المعهد وأساتذته وأقلية من رجال المذهب المشيخى خصوا بسعة العقل ورجاحة الحكم، عصفت من حوله رياح المحافظين التى أثارها رجال من مختلف المعاهد المشيخية ، أقصته عن مركزه العلمى

ان هذه التجربة التى جربها الايمان بفضل البروتستانتية الامريكية ، قد رنت أصداؤها في جو الكثلكة الاسبانية . ففي سنة ١٨٧٨ نشر اسبانى من رجال المستعمرات المشتغلين بالعلم هو الدكتور « شيل ي مارانجو » — Dr. Chil y Marango — مؤلفاً عن جزر الكناري . غير أن الدكتور « شيل » ، لسوء حظه قد ضمن مقدمة الكتاب استعراضاً لخص فيه نظرية النشوء، وذكر بعض البراهين التى عثر بها فى جزيرة الكنارى عما كان فى الازمان القديمة من بربرية الانسان البدائى . ولقد فزعت السلطات الكنسية ، وعلى رأسهم الاسقف «أوركوينا وونای بیدوت » — Urquinaona y Bidot — من الاستكشاف الجديد ، معلنا فى حماسة أنه « خطأ فاضح بعيد عن التقوى» ولقد صدرت الاوامر إلى كل الذين كانوا يحرزون نسخاً من الكتاب أن يسلموا كل النسخ التى لديهم للسلطات الكنسية ، كما طرد المؤلف من حظيرة الكنسية .

غير ان هذه الصور العدائية لا يمكن أن تعتبر آخر صور الحمى التي انتابت

النظرية اللاهوتية و رجالها . والدليل على هذا أن جامعة واشنجطون الحديثة بأمريكا قد أعلن من ناحيتها أقوال تؤيد النظرية الجديدة ، كما أن جامعات كثيرة فى العالمين القديم والحديث قد تقبلت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى وأكب رجالها على المذهب يدرسونه بما يستحق من العناية والتقدير . وفضلا عن هذا فانه من الظاهر الجلى أن رجال الكنيسة العظام لم يقفوا فقط سير المعركة التى دارت ضد العلم ، بل عملوا فى أمانة واخلاص لكى يضعوا قواعد جديدة للتوفيق بين الناحيتين . ففي محاضرتين ، لهما منزلتهما وخطرهما ، ألقاهما في كنيسة « روتشدايل » سنة ١٨٩٢ المحترم « ويلسون » (Wilson) رئيس أساقفة مانشستر ، أعلن عن تقبله المذهب الداروينى باعتباره مذهبا صحيحا . غير أنه حاول أن يصله بوجهة النظر النصرانى ، معتمدا على قوته فى الشرح والتعبير. ولقد نشرت هذه الخطب على نفقه نفس الجمعية التي كانت منذ عهد قريب تنشر أمر ما كتب ضد النظرية الداروينية وهى ، « جمعية تقدم المعرفة النصرانية » . كذلك نرى انه فى خلال سنة ١٨٩٣ كون البروفسور « هنرى درموند » الذي يمتدحه كل رجال الكنائس المنشقة ، وجهة من النظر مصبوبة فى قالب جميل من قوة الفكر ألقاها فى مجموعة من المحاضرات فى مدارس « شوتوكوا » الاميريكية ، ونشرت فى احدي الصحف الارثوذوكسية الواسعة الانتشار .

مهما يكن من أمر العوامل التي يمكن اضافتها الى الانتخاب الطبيعى ـ ولقد سلم داروين نفسه بانه من الممكن أن تكون هنالك عوامل أخري تؤثر فى نشوء الانواع ـ فان نظرية فى النشوء الكونى ونشوء الصور الحية قد وضعت وثبتت قواعدها . كما أن نظرية الخلق المستقل القديمة قد اضمحلت وفنت من عالم الفكر الانسانى . ولقد تبدل الانسان منها بما أوحى العلم الحديث من تصورات ثابتة أبعد مدى وأنبل قصداً ، فتحت الباب لتكوين فكرة فى « القصد والغاية » أجمل من كل الفكرات التى كونها التصور اللاهوتى على مدى الازمان.

القاهره فى ٥ يناير سنة ١٩٣٠

[illegible]

مطبوعات دار العصور

مـ

١٥ تاريخ الفكر العربي
٥ قصة الطوفان
١٥ معضلات المدنية الحديثة
١٥ أصل الأنواع : خمسة أجزاء (ثمن الجزء)
٨ يحكى أن ـــ مجموعة قصص مصرية
٦ الضحية وروايات و أبحاث أخرى عن طا غور
٧ العقائد ـــ بحث في مقارنة الأديان
٥ نزعة الفكر الاوروبي ـــ عن مرتز
٥ نهضة فرنسا العلمية ـــ عن مرتز
٢ الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الانساني
٥ نشيد النيل : شعر وموسيقى ـــ بغلاف فنى ملون
١٥ الطبيب والمعمل ـــ لأبى شادى
٥ بنت الصحراء (أوبرا)
٥ الآلهة (أوبرا)
٥ اخناتون (اوبرا)
١٠ محاورات رينان الفلسفية
٨ بين العلم والدين
١٠ خزانة الادب الكبرى للبغدادى : ثمانية أجزاء (ثمن الجزء)
٧ التصوف الاسلامى العربي ـــ بحث تاريخي
٢٥ منتخبات الترجمة (للمدارس الثانوية) أربعة اجزاء

(تطلب جميعها وهذه الاوبرا بصفة خاصة من مكتبة الوفد بشارع الفلكى بباب اللوق بالقاهرة)